بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): عبدالله بن فراج بن صالح الشهري كلية: الشريعة قسم: الدراسات العليا التاريخ والحضارة الإسلامية

الأطروحة مقدمة لنيل درجة: الماجستير في تخصص: التاريخ الإسلامي

عنوان الأطروحة: ((دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد الإسلامي ضد المغول (٦١٦-٦٥٧هـ))).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٤١٧هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم: د. محمد السلمي	الاسم: [illegible]	الاسم: د. فوزي محمد ساعاتي
التوقيع: [signature]	التوقيع: [signature]	التوقيع: [signature]

يعتمد

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخ والحضارة

الاسم: د. سعد بن حسين عبدالله البشري

التوقيع: [signature]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة.

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا في التاريخ والحضارة الإسلامية

دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد الإسلامي ضد المغول

(٦١٦ - ٧٢٠ هـ)

إعداد الطالب

عبدالله بن فراج بن صالح اليوسي الشهري

مقدمه لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشراف

فضيلة الدكتور / محمد بن صامل السلمي



١٤١٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد الإسلامي ضد المغول
(٦١٦ - ٧٢٠ هـ)

ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فإن لعلماء المسلمين مكانة رفيعة عند الله ومنزلة سامية في المجتمع الإسلامي ، فهم ورثة الأنبياء وحاملوا راية الدين وهم أهل الحل والعقد ، وإليهم يرجع المجتمع الإسلامي في فهمه وتصوراته ، وبفتاواهم يستنير ، وهم صمام أمان للمجتمع الإسلامي أمام موجات الفتن والمحن التي يتعرض لها. ومن أعظم المحن التي تعرض لها المسلمون في تاريخهم الغزو المغولي المدمر الذي بدأ في تدفقه على بلدان العالم الإسلامي سنة ٦١٦هـ ، واستمر المغول في توجيه الطعنات للبلاد الإسلامية حتى وضعت الحرب أوزارها بمعاهدة الصلح سنة ٧٢٠هـ بين المغول ودولة المماليك .

ومن هنا تبرز أهمية دراسة هذا الموضوع وتناوله من هذا الجانب . وقد تم تناول هذا الموضوع من خلال تمهيد وثلاثة فصول مع الخاتمة والملاحق . تناول التمهيد أحوال المشرق الإسلامي السياسية والدينية قبل الغزو المغولي حيث انتشر التصوف والتشيع والاعتزال مع ما صاحب ذلك من ترف وفساد ، إضافة إلى التفكك والاختلاف بين المسلمين آنذاك.

أما الفصل الأول فتناول جهود العلماء في مقاومة الغزو المغولي الأول بقيادة جنكيز خان من حيث الصمود والتصدي ، وتحذير المسلمين من خطر المغول وقيامهم بمحاولات الإصلاح بين الحكام المسلمين ثم مشاركتهم في المعارك . وفي الفصل الثاني تم توضيح دور العلماء في التصدي للهجوم المغولي بقيادة هولاكو وقيامهم بالسفارات بين هولاكو وبعض الحكام المسلمين ومحاولتهم إقناع هولاكو بعدم دخول بغداد ثم دورهم في قيادة الأعمال الجهادية ضد الحكم المغولي . وفي الفصل الثالث تم بيان دور علماء مصر والشام في الجهاد ضد المغول من حيث إذكائهم للروح المعنوية والجهادية للمسلمين ، وشحذهم لهمم المسلمين في معركة عين جالوت ومعركة حمص ، ودورهم في نشر الإسلام في صفوف المغول ، وموقفهم من حملات قازان على بلاد الشام بعد إسلامه وأثر شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد المغول ، ثم معاهدة سلطان المماليك مع سلطان المغول .

واتضح من خلال البحث الأثر السيء للإنحراف عن عقيدة أهل السنة والجماعة وإهمال المسلمين للجهاد مع ركونهم إلى الترف والفساد مما ترتب عليه أن سلط الله عليهم قوما لا يعرفون الرحمة وهم المغول.

وظهر في البحث مواقف رائعة لعلماء المسلمين في شتى الميادين ، فمن توجيه للأمة إلى مشاركة في ميدان الجهاد ونشر للإسلام ومحافظة على الهوية الإسلامية مما أدى بالمسلمين إلى كسب الصراع والخروج من ذلك المأزق الخطير.

وتبين كذلك عظمة هذا الدين فحين يتوقع زواله ويتكالب عليه الأعداء ، يخرج مرة أخرى وبقوة تبهر الأعداء ، فقد تكفل الله بحفظ دينه.

اسم الطالب	المشرف على الرسالة	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
عبدالله بن فراج الشهري	د. محمد بن صامل السلمي	د. محمد بن صامل السلمي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين..وبعد:

لما كان التاريخ السياسي في معظمه تاريخ أسر ومعظم الحوادث التاريخية لا تخرج عن هذه الأسر، فقد حظيت الأسر الحاكمة بنصيب وافر من البحث والتقصي كما نال العلماء المسلمون عناية من المؤرخين في مجال عملهم العلمي، ولكن هناك مجال آخر وهو جانب الجهاد الذي كان للعلماء المسلمين دور بارز فيه، وهذا ما قصدت أن أوضحه وأعمل على إبرازه كنقطة أساسية في هذا البحث.

وقد كان من الطبيعي أن تمر الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها، فبالإضافة إلى الصراع العسكري فقد واجهت الأمة صراعا في ميدان الفكر والعلم والحضارة والاجتماع والتشريع.

وإن ما وقع على الأمة الإسلامية في فترة الغزو المغولي للبلاد الإسلامية كان كفيلا بالقضاء على عقيدتها الإسلامية أو تحريفها على الأقل. ولكن الأمة الإسلامية كسبت ذلك الصراع، وخرجت منه منتصرة على أعدائها، بل إن عدو الأمة الإسلامية آنذاك ممثلا في المغول قد ذاب في المجتمع الإسلامي بعد أن اعتنق العقيدة الاسلامية. ولعل مرد ذلك إلى أمرين:

الأمر الأول: يكمن في الإسلام نفسه فهو دين الفطرة، قال تعالى: ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾(١) وهو الدين الحق الذي رضيه الله للبشرية قال تعالى ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(٢) وهو الدين الذي تكفل الله بحفظه حيث يقول سبحانه: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾(٣).

الأمر الثاني: أن الله منح هذه الأمة رجالا أقوياء في كل عصر ينقلون تعاليم

(١) الروم، الآية رقم ٣٠.

(٢)آل عمران، الآية رقم ١٨.

(٣)الحجر، الآية رقم ٩.

الإسلام إلى واقع الحياة فيعيدون لهذه الأمة نشاطها وحيويتها، حيث يقومون بالتجديد والإصلاح، وإن الإسلام هو الذي صنع أولئك الرجال، فالعلماء هم للمجتمع الإسلامي بمنزلة الروح للجسد وبمنزلة القلب النابض بالحياة ، فبهم يعود للإسلام مجده، وبهم ترفع رايته، وبهم يتصدى لأعدائه. وإن مكانة العلماء عند الله رفيعة فهم ورثة الأنبياء وفضلهم على الناس عظيم، فهم حملة الدين، الذادون عن حياض الشرع المطهر، وهم حاملوا راية العلم، فبهم يستنير الجاهل ويقتدي العابد ، لذلك كان فضلهم على الناس كفضل القمر على سائر الكواكب ، وفي حقهم أنزل الله سبحانه قوله تعالى:

﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾(١) إذ هم مع الأمراء ولاة الأمر فتجب طاعتهم مقترنة بطاعة الله ورسوله.

وطبقة العلماء من أهم طبقات المجتمع الإسلامي فإن أثرهم الفكري يصبغ المجتمع بملامحه، فهم طبقة مؤثرة وفاعلة في المجتمع الإسلامي.

وقد اعتنى المؤرخون المسلمون بسير العلماء وتراجمهم فدونوا كتب التراجم والطبقات التي تحفل المكتبة الإسلامية بعدد كبير منها وما ذلك إلا لإحساسهم بأهمية هذا الجانب والفوائد الناتجة عنه.

إضافة إلى ذلك فإن السنن الربانية تقرز أن التغيير في حالة الأمة لا يحدث إلا إذا سبقه تغيير جماعي بالأنفس، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾(٢)، والتغيير لا ينحصر في الحكام فقط، بل يشمل كافة طوائف المجتمع ، والعلماء أبرز طوائف المجتمع الإسلامي التي تحدث التغيير فهم أطباؤه الذين يعرفون أمراضه الحقيقية التي تنخر في جسده من الداخل فتفرز فيه القابلية للتخلف والهزيمة، فيصفون من العلاج ما يناسب أمراض المجتمع ويؤدي إلى شفائه وصحته.

ومن هنا كانت أهمية البحث عن دور العلماء في المجتمع الإسلامي في وقت الغزو المغولي، وكيف انتقل المجتمع من حالة الاسترخاء والتبلد السلبي إلى المواجهة

---

(١) النساء، الآية رقم ٥٩

(٢) الرعد، الآية رقم ١١

الإيجابية، وبخاصة أن الغزو المغولي استمر في تدفقه ما يزيد عن قرن من الزمن. ابتداءاً من بداية الهجوم المغولي سنة ٦١٦هـ وحتى توقيع معاهدة الصلح بين المغول والمماليك سنة ٧٢٠هـ.

وإن التغيير الذي حدث للأمة الإسلامية إثر الصدمة القوية للغزو المغولي لهو جدير بالدراسة والبحث، وبخاصة أن أبرز عوامل ذلك التغيير هو قيام العلماء والفقهاء بتوضيح المفاهيم الدينية سواء في العقيدة والشريعة أو في القضايا السياسية و الاجتماعية. مما ترتب عليه بعث روح التضحية والفداء في نفوس المسلمين وقيام طوائف منهم بواجب الجهاد في كافة ميادينه الفكرية والعملية كما حثوا الحكام المسلمين المتخاذلين عن الجهاد إلى القيام بواجبهم الأمر الذي أوجب علينا أن نعترف بدورهم ومشاركتهم في حركة تغيير الأمة.

وقدكان لتلك الروح الجهادية التي بعثها علماء المسلمين وفقهاؤهم في نفوس الناس أثر واضح في الصمود أمام هجمات أعدائهم، ومكنتهم من المحافظة على شخصيتهم الإسلامية، وأن تخرج الأمة الإسلامية من أزمتها تلك وقد كسبت التحدي الذي واجهته من حملات المغول على العالم الإسلامي وهي محافظة على هويتها الإسلامية.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع فلم أجد من أفرده بالبحث والدراسة حسب علمي ولذلك وقع اختياري عليه ليكون موضوع رسالة الماجستير التي أتقدم بها إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم الدراسات العليا في التاريخ والحضارة الإسلامية.

وإن هناك رسالة ماجستير قامت بإعدادها الباحثة مريم محمد عوض بن لادن قدمت لجامعة أم القرى عام ١٤٠٣هـ، وهي بعنوان: " دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الإيلخانيين من ٦٦١هـ إلى ٧٢٨ هـ ". وهذا البحث إنما تعرض لشخصية واحدة من العلماء وهو شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد أخذت ترجمة الشيخ وحياته جزءاً كبيرا من البحث، فالبحث بدأ منذ ولادة شيخ الإسلام سنة ٦٦١هـ، مع أن الدور الجهادي لم يبدأ مع الولادة وإنما بدأ سنة ٦٩٩هـ، بعد انكسار المسلمين في موقعة وادي الخزندار،

ولقاء ابن تيمية لغازان، فهنا بدأ الدور وبدأ الجهاد، وبالتالي لم تتعرض الرسالة لغير ابن تيمية من العلماء ودورهم في جهاد المغول، وقد أفدت منها في المبحث الخاص بشيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد واجهتني صعوبة الحصول على معلومات وافية عن علماء المشرق الإسلامي الذين ذهبوا ضحية الهجوم المغولي الأول في عهد جنكيزخان، فقد ذهب تحت السيف أمم لا تحصى ولم يبق من آثارهم إلا الشتات القليل وبخاصة أن المغول في هجومهم كانوا يأتون على الأخضر واليابس فلم تسلم منهم المكتبات القائمة آنذاك بل أحرقت وأتلفت ، ومما زاد في الصعوبة تفرق المادة العلمية في مصادر متعددة استغرق جمعها والبحث عنها جهدا ووقتا كثيرا .

فقد قمت في سبيل ذلك بالبحث في كتب تاريخ الدولة الخوارزمية والدولة العباسية ودولة الأيوبيين ودولة المماليك إضافة إلى تاريخ المغول في الفترة الزمنية التي يتناولها البحث، كما قمت بمراجعة كتب الطبقات والتراجم في شتى المذاهب الإسلامية . وفي سبيل الإطلاع على المصادر والمراجع التي يمكن الإفادة منها في البحث فقد قمت برحلة علمية إلى كل من مصر وسوريا وتركيا، وتمكنت خلال ذلك الاطلاع على كثير من المصادر ومن جمع مادة هذا البحث ولله الحمد.

عرض لأهم المصادر التي أعتمد عليها البحث:

كتاب الكامل في التاريخ: لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير(٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٦-١٢٣٣م)، وقد عاش معظم حياته في مدينة الموصل، وهو أوسط إخوته الثلاثة الذين نبغوا في ميادين العلم، أما هو فقد كان حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، خبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم.

وقد ألف كتابه الكامل في التاريخ منذ بداية الخليقة وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨هـ وقد رتب كتابه في التاريخ الإسلامي على النظام الحولي، وهو من كتب التاريخ الإسلامي المعتبرة، فقد تحرى المؤلف الدقة في كتابه وابتعد عن الإسهاب والتكرار، وشمل تاريخ أقاليم العالم الإسلامي، وبرزت مواهب المؤلف في طريقة عرضه

للأحداث التاريخية، حيث كان يرجح بين الروايات ويفحص المصادر، ثم يذكر عدة حوادث آخر كل سنة، ووفيات أعيان الناس في تلك السنة.

وللأجزاء الأخيرة من كتاب الكامل أهمية خاصة لكونه يحوي أحداثا عاصرها المؤلف، وقد اعتمد البحث بصورة أساسية على ما كتبه ابن الأثير عن أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري، فقد أفاد البحث منه عند دراسة المشرق الإسلامي وحالته الدينية والسياسية قبيل الغزو المغولي، وكذلك أفاد منه البحث عند دراسة أحداث الغزو المغولي الأول بقيادة جنكيزخان وأبنائه في الفصل الأول من هذا البحث . وكان ابن الأثير فيما يرويه من تلك الأحداث معاصرا لها، دقيق الملاحظة، وقد ذكر معلومات قلما توجد في مصدر آخر ، ودوّن تحليلاته للأوضاع القائمة آنذاك[1].

وقد سجل أحداث الغزو المغولي الأول وهو مفعم بالأسى والحزن فذكر أنها المصيبة الكبرى التي عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل :"إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم ، وإلى الآن ، لم يبتلوا بمثلها ، لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا ما يدانيها"[2].

سيرة جلال الدين منكبرتي :

تأليف محمد بن أحمد بن علي النسوي الذي ولد بإحدى ضواحي نسا ودخل في خدمة السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه وتوفي ٦٣٩هـ/١٢٤١م وتأتي أهمية الكتاب من كون مؤلفه معاصرا لأحداث الغزو المغولي الأولى بقيادة جنكيزخان، حيث كان ملازما للسلطان جلال الدين منكبرتي واستطاع النجاة بنفسه من الهلاك من أيدي المغول ومن ثم كتب مؤلفه هذا. وإن كان الكتاب يدور حول شخصية جلال الدين منكبرتي إلا أنه أمدنا بمعلومات قيمة عن الدولة الخوارزمية عند الاجتياح المغولي لها ومواقف عدد من العلماء في الدولة الخوارزمية لم نجدها عند غيره من المؤرخين ولكن قلل من استمرار الاستفادةمن الكتاب في البحث أنه انتهى بوفاة السلطان جلال الدين سنة ٦٢٨هـ. والكتاب مصدر مهم في تاريخ الدولة الخوارزمية، وقد اعتمد فيه المؤلف

---

(١) انظر على سبيل المثال:جـ١٢ ص٣١٤،٣١٦،٤٣٥،٤٥٧،٤٩٦، ٤٩٧،٤٩٨،٥٠٠،٥٠١،٥٠٢.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص٣٥٨.

على الوحدة الموضوعية دون أن يتقيد بالترتيب الزمني للحوادث.

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان:

هذا الكتاب لمؤلفه شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي المشهور بسبط ابن الجوزي (٥٨١-٦٥٤هـ/١١٨٥-١٢٥٦م)، والكتاب مرتب ترتيبا حوليا، جمع فيه المؤلف بين كتب الطبقات والحوادث، فيبدأ السنة بذكر الحوادث التي وقعت فيها ثم يترجم للوفيات. وقد أفاد البحث من القسم الثاني من الجزء الثامن المطبوع بحيدر آباد الدكن ويتناول السنوات من (٦٤٨-٦٥٤هـ/١٢٥٠-١٢٥٦م) وتبرز أهميته لكون المؤرخ معاصرا لتلك الأحداث وإن كانت أخباره مقتضبة ، ولكن علاقته بالحكام واقترابه منهم جعل المؤلف يستوعب الواقع السياسي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية آنذاك، وقد حالت وفاته المبكرة دون أن نتابع معه بقية الفترة التاريخيةالتي يتناولها البحث، فلم يستفد منه البحث إلا في الفصل الأول.

تراجم رجال القرنين السادس والسابع:

هذا الكتاب ألفه عبد الرحمن بن إسماعيل الملقب بأبي شامة (٥٩٩- ٦٦٥هـ/ ١٢٠٣-١٢٦٧م) وقد اعتبره مؤلفه ذيلاً مكملا لكتاب قبله هو كتاب: "الروضتين في أخبار الدولتين" وهذا الكتاب كما يدل عليه عنوانه هو كتاب تراجم للأعلام والمشاهير، إلا أنه رتبه على السنوات ويبدأ السنة بذكر الحوادث التي وقعت فيها ثم يذكر الوفيات وهو يبدأ من سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، وينتهي عند سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م قبل وفاة المؤلف بوقت يسير، وهذا يعني أن المؤلف عاصر الأحداث التي أرخ لها، وبشكل خاص غزو المغول الثاني في عهد هولاكو، حيث كان أبو شامة موجودا بدمشق أثناء اجتياح المغول لبلاد الشام عام(٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وقد وصف أحداث هذا الغزو في كتابه، وقد أفاد البحث من كتابه في الفصل الثاني من البحث، وموقف علماء الشام من غزو هولاكو لبلاد الشام، ويلاحظ أن عناية الكتاب بتسجيل الأحداث التاريخية المنفردة كان أقل من اهتمام الكتاب بالتراجم.

تاريخ جهانكشاي:

مؤلفه علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجويني (٦٢٣-٦٨١هـ).

وهذا الكتاب يعتبر مصدراً مهماً في دراسة تاريخ المغول، وبالذات فترة هجومهم على العالم الإسلامي بقيادة هولاكو، حيث كان المؤلف شاهد عيان لتلك الأحداث، فقد كان مصاحبا للقائد المغولي هولاكو في هذه الحملة، ثم أصبح من كبار رجالات الدولة المغولية في إيران والعراق. فهو ممن سار في ركاب المغول، وبالتالي جاء الكتاب ليعبر عن شخصية مؤلفه، فقام بتبرير غزو المغول للبلاد الإسلامية بحجة أن ذلك لم يكن إلا تنفيذا لإرادة ا لله. وبالتالي فكان يرى أن من يقف في وجههم ويدافع عن بلاد المسلمين مخالفا للصواب ومعترضا على أمر ا لله. وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في جانب معرفة أحداث الغزو المغولي، وإن كان الكتاب قد أغفل دور العلماء الجهادي لتعارض ذلك مع غاية الكتاب ومنهجه في مدح وإطراء الحكام المغول.

وقد كتب الكتاب باللغة الفارسية ثم ترجم بعد ذلك إلى اللغة العربية فأمكن بذلك الاستفادة من الترجمة العربية التي قام بها محمد التنوخي طبع دار الملاح للطباعة والنشر.

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة:

تأليف عبد الرزاق بن أحمد بن محمد المعروف بابن الفوطي، ينتسب إلى معن بن زائدة الشيباني ولد في المحرم سنة ٦٤٢هـ وأسر عند دخول المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ، فاتصل بالنصير الطوسي فخدمه واشتغل عليه واهتم بالتاريخ والأخبار، وكانت وفاته سنة ٧٢٣هـ .

ويعتبر كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة مصدرا مهما فيما يتعلق بتاريخ العراق وهو يغطي الفترة من سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م إلى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م. وقد أمدنا بمعلومات موسعة عن الدولة العباسية في عهدها الأخير قبل سقوطها بيد المغول، وقد أفاد البحث منه في الفصلين الأول والثاني.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية: (ت: ٧٢٨هـ) جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

وهذا المجموع كتاب ضخم في ٣٦ مجلداً، وهو يحوي الأسئلة والفتاوى التي وجهت إلى شيخ الإسلام مع الأجوبة التي أجاب بها شيخ الإسلام، ولا شك أن هذا الكتاب يعد

موسوعة علمية شملت جميع الجوانب العلمية وما يحتاجه الناس من المسائل الدينية. وقد أفاد البحث بشكل أساسي من المجلد رقم ٢٨ المتعلق بالجهاد، فقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الجزء الحكم الشرعي في قتال التتار بعد إعلانهم الدخول في الإسلام واستمرارهم في شن الغارات على بلاد الشام، وكذلك أجاب عن عدد من الأسئلة التي وجهت إليه حول قتال المغول وأخذ أموالهم. وتمت الاستفادة في بعض المواطن من بعض الأجزاء الأخرى لمجموع الفتاوى، وتأتي أهمية هذا المصدر لكون مؤلفه عالما كبيرا من علماء الإسلام كان له دور ضخم في جهاد المغول، فهو شاهد عيان على الفترة التي عاصرها وهي حملات المغول في عهد غازان، ولأهمية الدور الذي قام به شيخ الإسلام فقد أفردت مبحثا عن دوره في جهاد المغول.

وقد أفاد البحث من **مؤلفات الإمام الذهبي** محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين أبي عبد الله (تـ ٧٤٨هـ) وأولها كتابه :

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" حيث كان الاعتماد على الأجزاء المطبوعة منه و التي تتحدث عن السنوات بين ٦٠٠هـ إلى سنة ٦٤٠هـ، مقسمة على أربعة مجلدات، والكتاب مرتب على الحوادث والطبقات، والطبقة عنده عشر سنوات،وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في دراسة التمهيد والفصل الأول.

وكذلك أفاد البحث من كتابه القيم **"سير أعلام النبلاء"** حيث كانت الأجزاء الأخيرة منه (ج٢١-٢٢-٢٣) هي محل الاستفادة،خاصة في الفصلين الأول والثاني من البحث، إذ توقف الكتاب في نهايته عند تراجم وفيات سنة٦٥٦هـ.

وأفاد البحث من كتاب ثالث للإمام الذهبي هو: **"العبر في خبر من غبر"** وقد كان الإمام الذهبي مهتما بتراجم العلماء واستقصاء المعلومات عنهم، وهو واسع المعرفة، ضليعا في علمه بالمصادر.

ومما زاد من أهمية مؤلفات الذهبي أنه اعتمد على مصادر كانت معاصرة للأحداث ولكنها فقدت وبقي ما نقله عنها في مؤلفاته. يضاف إلى ذلك تفسير الذهبي لكثير من الأحداث وتحليله لمجرياتها مما جعل لمؤلفاته أهمية خاصة، فهو يفحص

مصادرها، ولديه قدرة فائقة على نقد الإسناد و نقد النص، ثم يثبت بعد ذلـك ملاحظاته وآرائه فيما يتعلق بالموضع الذي يعرض له،وقد أفاد البحث منه في مختلف الفصول.

البداية والنهاية:

عماد الدين إسماعيل بن عمر بـن كثـير القرشـي (٧٠٠-٧٧٤هـ) وقـد بـدأ فـي كتابة تاريخه منذ بداية الخليفة إلى أن يصل إلى أحداث عصره، واستخدم فـي ذكـر الأحـداث نظام الحوليات، فيذكر في كل سنة أهم الأحداث التاريخية في العالم الإسلامي ثم يختم ذلك بذكر أشهر من توفي في تلك السنة من الأعلام المشهورين.

وقد أفاد البحث من تاريخ ابن كثير في الفصل الثـالث خاصـة مـا يتعلـق بحمـلات غازان على بلاد الشام ودور شيخ الإسلام ابن تيميـة فـي جهـاد المغـول، خاصـة أن ابـن كثير من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ومن محبيه، ولذلك جمع من أخباره ومواقفه فـي نصرة الإسلام ما لا يكاد يوجد في كتاب آخر من كتب التاريخ.

السلوك لمعرفة دول الملوك:

مؤلفه أحمد بن عبد القادر المقريزي(٧٦٦-٨٤٥هـ) وقـد تبـوأ صـدارة المؤرخيـن فـي النصف الأول من القرن التاسع الهجري.

وقد سار المقريزي في كتابه السلوك على نظام الحوليات فأورد حوادث كل سـنة على ترتيب تاريخي تقريباً، ثم يختمها بالوفيات، ويضيف إليها أحيانـا مـا قـد يفوتـه مـن أخبار أخرى، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخـرى، ولـم يسـتوقف القـارئ فـي وسـط السنين إلا عند حدوث عهد جديد.

وقد أورد مالم يورده غيره لرجوعه إلى مراجع إندثرت ووثائق لـم يبـق منهـا إلا مـا حفظه المقريزي في كتابه.

كما أفاد البحث من عدد آخر من كتب الطبقـات والـتراجم مثـل: كتـاب طبقـات الشافعية الكبرى لابن السبكي، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، والجواهر المضية فـي طبقات السادة الحنفية للقرشي، والديباج المذهّب في أعيان المذهب لابـن فرحـون فـي تراجم المالكية، وكذلك وفيات الأعيـان لابـن خلكـان، وفـوات الوفيـات لابـن شـاكر،

والوافي بالوفيات للصفدي، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، إلى غيرها من المصادر التي أثبتها في فهرس المصادر.

كما أفاد البحث من بعض الدراسات المعاصرة مثل كتاب المغول في التاريخ للصياد بجزئيه، والدولة الخوارزمية لعفاف صبرة، وجهاد الأيوبيين والمماليك لعبد الله بن سعيد الغامدي وغيرها مما أثبته في قائمة المصادر والمراجع.

خطة البحث:

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول مع الخاتمة والملاحق.

وقد ناقش التمهيد أحوال المشرق الإسلامي السياسية والدينية قبل الهجوم المغولي وتم خلال ذلك التعرض لتفكك الدولة السلجوقية ونتائجه وقيام الدولة الخوارزمية وأوضاعها السياسية وأحوال الخلافة العباسية في بغداد وانتشار التشيع والاعتزال والتصوف وأثر اليهود والنصارى في هجوم المغول على البلاد الإسلامية...

أما الفصل الأول فقد عالج دور العلماء المسلمين في الجهاد إبان غزوات المغول الأولى من سنة (٦١٦هـ-٦٤٢هـ) من خلال دورهم في الصمود أمام غزوات جنكيزخان وأبنائه في المشرق الإسلامي، فقد تتبعت فيه مواقف العلماء عند هجوم المغول ووقوفهم أمام هذا السيل الجارف وما ترتب على هذا الصمود من فقد كثير منهم لأرواحهم فنالوا الشهادة وهم صامدون في الدفاع عن الأمة الإسلامية .

كما ناقش الفصل كذلك الجهود التي بذلت من قبل علماء المسلمين في فض الخلافات السياسية بين حكام المسلمين وقيامهم بالتحذير من الخطر المغولي الداهم ووجوب أخذ أهبة الاستعداد للقاء العدو ثم الجهود التي بذلت من قبل العلماء أثناء المعارك الحربية مع المغول.

أما الفصل الثاني فقد أفرد لمناقشة دور العلماء في جهاد المغول زمن حملات هولاكو (٦٥٢ - ٦٥٨ هـ)، إذ انه بعد أن أزال المغول الدولة الخوارزمية توجهوا إلى العراق بقصد القضاء على الخلافة العباسية، وقد قمت بتوضيح مواقف العلماء من محاولات المغول باجتياح المنطقة الإسلامية وتخريبها في عهد هولاكو من حيث

محاولة اقناع هولاكو بعدم مهاجمة بغداد ، وقيام بعضهم بقيادة الأعمال الجهادية ضد المغول، وقيام طائفة اخرى بالسفارة بين هولاكو وبعض الحكام المسلمين،ثم الآثار التي نتجت عن سقوط بغداد بيد المغول.

أما الفصل الثالث فقد عالج أثر علماء مصر والشام في الجهاد ضد المغول من حيث إذكاء الروح المعنوية والجهادية لدى المسلمين عقب سقوط بغداد.

وكذا شحذهم لهمم المسلمين في معركة عين جالوت، ثم معركة حمص، ثم التعرض لما قام به العلماء من نشر الإسلام في صفوف المغول، مما نتج عنه إسلام بعض حكامهم وسلاطينهم. وناقش هذا الفصل أيضا حملات المغول في عهد غازان على بلاد الشام والمعارك التي دارت هناك وموقف العلماء من ذلك، ثم الأثر الفعال الذي قام به شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد المغول، وفي نهاية المطاف تم إيضاح المعاهدة التي حصلت بين المغول والمماليك والتي بموجبها كان الصلح هو النتيجة التي خرج بها علماء المسلمين بعد أن دخل المغول في الإسلام.

أما خاتمة هذه الدراسة فقد قمت بتلخيص أبرز النتائج التي توصل إليها البحث ، كما ألحقت بالبحث بعض الملاحق، يتلوها فهرس بالمصادر والمراجع، وآخر بموضوعات الرسالة.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي المشرف السابق على هذا البحث سعادة الدكتور مسفر بن سالم الغامدي والذي عاصر معي البحث منذ أن كان فكرة إلى أن قارب على الانتهاء كما أشكر المشرف الحالي فضيلة عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية الدكتور محمد بن صامل السلمي الذي أكمل معي الإشراف وكان لتوجيهاته وإرشاداته الأثر الفعال في إتمام الموضوع في المدة المحددة فقد بذل من وقته الشيء الكثير أسأل الله أن يثيبه على ذلك. وأشكر كذلك كل من قدم لي مساعدة في البحث من الأساتذة الفضلاء والإخوة الزملاء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

تمهيد

أحوال المشرق الإسلامي السياسية والدينية قبل الهجوم المغولي

١- تفكك الدولة السلجوقية ونتائجه

٢- الدولة الخوارزمية

٣- أحوال الخلافة العباسية

٤- انتشار التشيع والاعتزال

٥- انتشار التصوف وانحرافه عن جادة العقيدة الإسلامية

٦- أثر اليهود والنصارى في هجوم المغول على البلاد الإسلامية

تعتبر الفترة التي سبقت الغزو المغولي من أسوأ الفترات التي مرت بالعالم الإسلامي في مراحله التاريخية، فقد كان العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي يعاني من الضعف والانقسام، مفكك الأجزاء، وكلما أحس جزء بالقوة مدّ يده إلى الجزء المجاور له لالتهامه، فالصراعات بين القوى الإسلامية -مع الأسف- في تلك الفترة لا تكاد تنتهي، مما جعلها عائقا وسدا أمام محاولات الإصلاح وتوجيه العلماء للأمة الإسلامية، يضاف إلى ذلك انتشار الفساد والموبقات بين عامة الناس، كما يصف ذلك سبط ابن الجوزي عندما حدثت زلزلة عظيمة سنة ٥٩٧هـ امتدت من الشام إلى مصر، وهلك بسببها خلق عظيم فقال عقب ذلك: "وما ظلم الله عباده بإهلاك النسل والناسل ولكنهم تعاموا عن الحق وتمادوا في الباطل وأضاعوا الصلوات وعكفوا على الشهوات والشواغل ... وارتكبوا الفجور وشربوا الخمور وأكلوا الربا والرشا وأموال اليتامى"[1]. وهذا النص يوضح جانباً من الحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي قبيل الغزو المغولي. وستكون الدراسة في هذا التمهيد في النقاط التالية:

---

(١) مرآة الزمان، جـ٨ ص٤٧٩.

١- تفكك الدولة السلجوقية ونتائجه:

لقد بدأت عوامل الضعف تنخر في كيان الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري، فكانت وفاة السلطان السلجوقي ملك شاه في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م إيذانا بانتهاء عصر قوة ووحدة السلاجقة، وبداية لعصر جديد اتسم بالضعف والانقسام نتيجة لتنافس أفراد البيت السلجوقي على السلطة[١]. ونتج عن هذا الانقسام ظهور سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان، وكذلك ظهور سلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق[٢]. ثم أخذ التفكك يزيد، وأخذ القادة السلاجقة يكونون لهم دولاً وأتابكيات مستقلة عن الدولة السلجوقية ، ومن أبرز الدول التي أفادت من ضعف السلاجقة الدولة الخوارزمية، فعندما توفي السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه سنة ٥٥٢هـ انهار السلاجقة في المشرق، وتمكن حكام الدولة الخوارزمية إثر ذلك من الاستيلاء على جميع ممتلكات السلاجقة في خراسان[٣].

أما سلاجقة العراق فكانت نهايتهم عندما لقي السلطان السلجوقي طغرل مصرعه على يد الخوارزميين سنة ٥٩٠هـ[٤]. وبمقتل السلطان طغرل انتهت دولة السلاجقة، حيث دالت دولتهم على يد الخوارزميين[٥] الذين أصبحوا أكبر قوة في إيران والعراق[٦].

وقد كان لأمراء الجيش والأتابكة نفوذ كبير في دولة السلاجقة[٧] وبرز من بينهم شخصيات تمكنت من إقامة مناطق نفوذ خاصة بهم، ولذلك نتج عن تفكك دولة

---

(١) محمد مسفر الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، ص١٦٧.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص٥٤؛ عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٠٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١١ص٢٢٢؛ المقريزي، السلوك، جـ١ ق١ ص٣٩.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص١٠٨؛ الذهبي، دول الإسلام، جـ٢ ص١٠٢؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، جـ٩ ص٣٥.

(٥) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق١ ص٤٠؛ الفتح البنداري، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٧٦.

(٦) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص١٥٤.

(٧) عبد النعيم حسنين،المرجع السابق، ص١٣٦.

السلاجقة قيام عدد من الإمارات والأتابكيات المختلفة[١] إضافة إلى الدولة الخوارزمية، وبالتالي خلا المشرق الإسلامي من دولة موحدة تجمع الأقاليم الإسلامية تحت لواء واحد ، ودخلت هذه الدول والإمارات في تطاحن مع بعضها البعض.

وقد أدى فساد الحياة السياسية في أواخر عصر السلاجقة إلى فساد عقائد الناس وأخلاقهم، مما ساعد على ضعف البلاد الإسلامية، فضعفت عزائم المسلمين وانتشر بينهم التواكل و بدأوا مرحلة سبات عميق ظلوا يغطون فيه فترة طويلة[٢]. وقد شاع النزاع بين الفرق واشتد التعصب وضيق النظر بصورة واضحة[٣].

وكان من نتائج ذلك الوضع السيئ انصراف أولئك الزعماء عن متابعة الجهاد ونصرة الإسلام والمسلمين، ولذلك قال في وصفهم ابن الأثير:" فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته"[٤]. وعقّب على ذلك بأنه أشد خطرا من العدو على المسلمين[٥].

---

(١) من هذه الأتابكيات:

١- أتابكة لورستان الكبرى (بنو هزراسب) وحاضرتها أيذج.

٢- أتابكة لورستان الصغرى (بنورشيد) وحاضرتها خرماباذ.

٣- أتابكة شوانكاره (بنو فضلة).

٤- أتابكة فارس (بنو سلغر).

٥- أتابكة أذربيجان (بنو إيلدكز).

٦- أتابكة يزد .

٧- بنو سكمان.

٨- بنو أرتك.

٩- أتابكة إربل (بنو بكتكين).

١٠- بنو زنكي في الموصل وسنجار والجزيرة.

أنظر زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ص٣٤١-٣٥٤.

(٢) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٣) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٤) الكامل ، جـ١٢ ص٤٩٧.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص٤٩٧.

فكانت تلك الحالة التي عمت المشرق الإسلامي آنذاك إرهاصات بتوقع الخطر كما هي سنة الله الجارية وعقوبة شاملة للأمة إن لم تراجع نفسها وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾[1] فالعقوبة تعم إذا كثر الفساد وقل الصلاح.

(١) سورة الأنفال آية: ٢٥.

٣- الدولة الخوارزمية ووضعها السياسي قبيل الغزو المغولي و دورها في حماية المشرق الإسلامي

لقد كانت الدولة الخوارزمية إحدى الدول التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية، وقد اتخذت من إقليم خوارزم قاعدة لها، ومن هذا الإقليم انطلقت في توسعها وساعدها في قيامها بالتوسع الانهيار التدريجي الذي حل بالدولة السلجوقية[١].

و يرجع نسب ملوك الدولة الخوارزمية إلى نوشتكين الذي كان يعمل في البلاط السلجوقي في خدمة السلطان ملكشاه، ثم عُيِّن ولده قطب الدين محمد بن نوشتكين حاكماً من قبل السلطان السلجوقي على إقليم خوارزم وذلك في سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م[٢]، ثم تلقب "بخوارزم شاه" أي ملك خوارزم.

وبعد وفاة محمد بن نوشتكين خلفه ولده علاء الدين أتسز، وقد عمل علاء الدين أتسز على تقوية نفوذه فقام بمهاجمة الدولة السلجوقية معلنا بذلك التمرد والعصيان في سنة ٥٣٣هـ[٣]، وكانت الدولة السلجوقية تمر آنذاك بمرحلة من الضعف لم تتمكن خلالها من أن تحكم قبضتها على إقليم خوارزم[٤]، وبعد وفاة أتسز سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م خلفه في الحكم ابنه أيل أرسلان[٥]، وقد أفاد أيل أرسلان من وفاة السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م[٦]حيث وجد الفرصة سانحة لتوسيع رقعة الدولة الخوارزمية على حساب ممتلكات السلاجقة فتمكن من إدخال ممتلكات سلاجقة فارس وخراسان تحت حوزته، وعند وفاة أيل أرسلان سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م[٧] حدث خلاف بين ولديه علاء الدين

---

(١) انظر عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص٥.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠ ص٢٦٧-٢٦٨.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٦٧.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٦٧.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٢٠٩.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٢٢٢.

(٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٣٧٧.

تكش وسلطان شاه على السلطة[1]، وقد تمكن علاء الدين تكش من الاستيلاء على حكم الدولة الخوارزمية، أما سلطان شاه فقد انفصل بإقليم خراسان، واستمر هناك حتى توفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م، وعندئذ قام علاء الدين تكش بضم ممتلكات أخيه إلى ما كان بيده من قبل، وتمكن أيضا من ضم بلاد جديدة إلى مملكته وذلك عندما استنجد به الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ -٦٢٢هـ) للقضاء على السلاجقة، فقد لَبّى طلب الخليفة العباسي وتوجه على رأس جيش كبير واشتبك مع السلطان السلجوقي طغرل في معركة عنيفة سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣هـ أسفرت عن مقتل السلطان طغرل واستيلاء علاء الدين تكش على همذان عاصمة سلاجقة العراق[2]، كما استطاع أن يحتل أصفهان والري[3]. وأراد بعد ذلك أن يحتل المكانة التي كانت للسلاجقة في بغداد، ولذلك عزم على قصد بغداد بعد جمع جيوشه وحشدها، فوصل إلى دهستان[4]، ولكنه توفي هناك سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وعندئذ آل الملك من بعده إلى ولده علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦-٦١٧هـ/١١٩٩-١٢٢٠م) [5]، والذي حدث في عهده هجوم المغول على بلدان العالم الإسلامي سنة (٦١٦ هـ).

وقد ورث محمد خوارزم شاه عن والده دولة عريضة إضافة إلى الأعداء المحيطين بدولته، فكان عليه أن يواجه الصعاب التي خلفها أبوه، كما كان عليه أن يحافظ على ما ورثه عن والده من بلاد، وقد استطاع محمد خوارزم شاه أن يتغلب على

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١ ص٣٧٧.

(٢) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص١٠٨؛ الذهبي، دول الإسلام، جـ٢،ص١٠٢.

(٣) عفاف صبرة، المرجع السابق، ص٨٦.

(٤) بلد مشهور في طرف مازند رام قرب خوارزم وجرجان (انظر معجم البلدان ج٢ ص٤٩٢)

(٥) محمد علاء الدين خوارزم شاه بن تكش الخوارزمي ، وعند تملكه ناصب الخليفة العباسي العداء، وكان يريد تنصيب خليفة علوي ، وذلك لوجود ميول للتشيع لديه ، وكانت نهايته أن قهره التتار وشردوه في البلاد عند ظهورهم فمات في بعض جزائر البحر و مدة حكمه إحدى وعشرون سنة وشهورا انظر : أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص٨-١٧؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات،ج٢ ص٢٧٥؛ الذهبي ، دول الإسلام،ج٢ ص١٢٠؛ والعبر في خبر من غبر ، ج٣ ص١٧٢- ١٧٣؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢ص٢٠٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٣ ص١٤٢.

المتاعب والعقبات التي واجهته عند بداية حكمه[١]. ثم بدأ في توسيع رقعة الدولة وقد حاول الغوريون استغلال فرصة النزاع الذي حصل بين خوارزم شاه وبين ابن أخيه[٢] فقاموا بالاستيلاء على إقليم خراسان سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، ولكن علاء الدين خوارزم شاه تمكن من استرداد معظم مدن خراسان في نفس العام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م[٣].

واستمرت الحروب بين الفريقين فترة من الزمن ففي عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م وقعت بين الدولتين الخوارزمية والغورية حروب كثيرة[٤]، وكذلك في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وقعت بينهما حروب كثيرة[٥]، وأيضا في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م[٦]، وفي سنة ٦١١هـ/١٢١٤م استولى محمد خوارزم شاه على كرمان ومكران[٧]، وواصل حروبه مع الغوريين حتى تمكن من دخول غزنة عاصمة الغوريين حيث استولى عليها سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، وبهذا زالت الدولة الغورية على يد محمد خوارزم شاه[٨].

وقد وصلت الدولة الخوارزمية في عهد محمد خوارزم شاه إلى أقصى اتساعها، فقد تمكنت أيضا من ضم بلاد ما وراء النهر إليها[٩] بعد أن مكثت تلك المناطق تحت حكم دولة الخطا[١٠] منذ عام ٥٣٦هـ/١١٤١م، عندما هزموا جيش السلاجقة في عهد

---

(١) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص٣٣.

(٢) لقد قام نزاع بينه وبين ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش، الذي حاول الاستيلاء على خراسان إلا أن عمه علاء الدين محمد خوارزم شاه لم يمكنه من ذلك، حيث أرسل جيشا لمحاربته فالتجأ إلى السلطان الغوري غياث الدين. ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص١٥٧؛ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣،ص٣١.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص١٧٤.

(٤)ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢،ص١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧؛ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٣٦.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص١٨٥-١٨٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ٤١.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢،ص ٢٤٥-٢٤٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٥٠.

(٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٣٠٣.وكرمان ولاية مشهورة وناحية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ص ٤٥٤)

(٨) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٣٠٩-٣١٠.

(٩) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص١٣٧-١٣٨.

(١٠) الخطا اسم يطلق على بلاد متاخمة للصين (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٨٣)وهم قبائل اسيوية من الاتراك ، موطنها الاصلي في شمال الصين ، نزحت في النصف الاول من القرن السادس الهجري واستقروا غرب اقليم التركستان حيث كونوا دولة عرفت بإسم (القراخطائيين) ولم تلبث دولتهم

السلطان سنجر، وكانت سياسة حكام الدولة الخوارزمية السابقين تقوم على تجنب الصراع معهم وتتفادى الاحتكاك بهم، ولكن السلطان محمد خوارزم شاه اتخذ سياسة أخرى تجاه دولة الخطا بخلاف ما كان عليه أسلافه، فقام بعدة حملات عسكرية ضد الخطا هُزِمَ في بعضها[١] ولكنه انتصر في النهاية ، وتمكن من إزالة هذه الدولة من بلاد ما وراء النهر بعد حروب طاحنة في سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م[٢].

ومهما يكن من شيء فإن لتلك الحروب أثر بالغ في إنهاك الدولة الخوارزمية إضافة إلى أن دولة الخطا كانت تمثل سدا منيعا بين بلاد المسلمين وغيرهم من بلاد الكفار الآخرين ومنهم المغول؛ فعندما أزال محمد خوارزم شاه دولة الخطا، فإنه بذلك قد أطاح بسد منيع كان حائلا بينه وبين التتار، وكان عاجزا عن حماية تلك البلاد لسعتها وإنهاك جنده في الحروب المتواصلة .

وقد أغرته الانتصارات التي حققها في حكمه فزادت أطماعه، فأرسل إلى الخليفة الناصر لدين الله يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من ملوك السلاجقة، ولا يكون للخليفة إلا الخطبة، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك. فما كان من علاء الدين محمد خوارزم شاه إلا أن لجأ إلى علماء بلده يستفتيهم في بطلان إمامة الخليفة العباسي، واستحصل منهم على فتوى بشرعية عزل الخليفة وتنصيب إمام آخر من العلويين، بحجة أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من آل البيت أصحاب الحق[٣]. وبعد ذلك أمر الخطباء أن يسقطوا اسم الخليفة من الخطب[٤].

ولم يقف علاء الدين محمد خوارزم شاه في عدائه للخليفة العباسي عند هذا الحد، بل قام عام ٦١٤هـ/١٢١٧م بتجهيز جيش كبير قاده بنفسه وقصد به بغداد في نفس ذلك

=ان امتدت الى نهر سيحون الذي فصل بينهم وبين الخوارزمية المسلمين وقد كانوا يدينون بالبوذية. (انظر الصياد، المغول في التاريخ ، ج١ ص ٥، ٢٩)

(١) لقد وقع محمد خوارزم شاه أسيرا في إحدى معاركه مع الخطا، ولكنه استطاع الخلاص من الأسر عن طريق الحيلة وبمعونة أحد أمرائه. أنظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٢٦٧ وما بعدها؛ الصياد،المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

(٣) وهذا ما دفع بالبعض إلى الاعتقاد أن محمد خوارزم شاه كان شيعيا.

(٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي، جـ٢، ص٣٠.

العام ٦١٤هـ/١٢١٧م، ولكن حدث له في الطريق ما لم يكن في الحسبان حيث هبت عواصف ثلجية شديدة على الجيش قرب همذان، فأهلك البرد كثيرا من جنود ودواب وعتاد الجيش الخوارزمي، عند ذلك وجد محمد خوارزم شاه نفسه مضطرا إلى العودة إلى بلاده[١]، وبعد عودته إلى بلاده قدم سنة ٦١٥هـ تجار من بلاد التتار إلى بخارى، فقبض عليهم أحد نواب محمد خوارزم شاه، وأخذ أموالهم وأرسل إلى محمد خوارزم شاه يخبره أنهم من التتار في زي التجار وقصدهم التجسس على البلاد، ولذلك قام الخوارزميون بقتلهم ومصادرة أموالهم وعندما وصل خبر ذلك إلى جنكيز خان أرسل رسلا من عنده إلى محمد خوارزم شاه يلومه على فعلته تلك، فقام محمد خوارزم شاه بقتل رسل جنكيز خان، وعندها وجد محمد خوارزم شاه نفسه في مواجهة الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح بلاده سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[٢]، فجرت بكل قطرة بحرا من الدماء .

ومهما يكن فإن السلطان الخوارزمي لم يستطع الصمود أمام المغول، فبعد هزيمته هرب بعد أن استولى عليه الهلع والفزع ، وتوفي أثناء هربه في نفس العام ٦١٧هـ/١٢٢٠م[٣]، وعهد بالملك من بعده لابنه جلال الدين منكبرتي، وقد حمل جلال الدين منكبرتي راية المقاومة ضد المغول، ولكن الغزو المغولي كان قويا فلم يستطع جلال الدين الصمود أمام جحافل المغول وصدهم عن ما تبقى من ممتلكات الدولة الخوارزمية بالرغم مما أبداه من شجاعة و ثبات في ميادين القتال، فقد كان له مع المغول وقائع قاتل فيها ببسالة منقطعة النظير[٤]، ولكن انتهى به الأمر إلى القتل على يد رجل كردي أثناء هروبه أمام المغول، وكان ذلك في سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م، وقد كان مع بسالته سيء السيرة يقول عنه الذهبي:" لقد مقته الناس لقبح سيرته، ولم يترك له صديقا من الملوك بل عادى الكل، ثم اختلف عليه جيشه لما فسد عقله بحب مملوك،

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٣١٧-٣١٨.

(٢) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٣٦١-٣٦٣.

(٣) انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢ ص١٤٣.

(٤) انظر الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص١١٠.

فمات المملوك فأسرف في الحزن عليه، وأمر الناس بالنوح واللطم، ومـا دفنـه، بـل بقـي يستصحبه، ويصرخ عليه والويل لمن يقول: إنه ميت، فاستخف بـه الأمـراء وأنفـوا منـه، وطمعت فيه التتار وبمقتله انتهت الدولة الخوارزمية"[١].

ومهما يكن من شيء فإن السلطان محمد خوارزم شاه الـذي أمضـى فـي الحكـم قرابة إحدى وعشرين سنة (٥٩٦-٦١٧هـ/١١٩٩-١٢٢٠م) قد قضى فـترة طويلـة مـن حكمه في حروب مع الحكام والملوك المجاورين له، وكذلك فعل ابنه جلال الدين مـن بعده رغم الخطر المغولي المـاثل أمامـه، ونتيجـة لكثرة الحـروب التـي خاضتهـا الدولـة الخوارزمية مع غيرها من الدول الإسلامية الأخـرى فقـد استهلكت الكثير مـن الجهـود والإمكانيات ، إضافة إلى النفقات الباهضـة ممـا أدى إلـى استنزاف طاقـة وقـوة الدولـة الخوارزمية والعالم الإسلامي معا، فإن محمد خوارزم شاه كان قد استولى على البـلاد - في المشرق -وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلمـا انهـزم أمام المغول لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها[٢]. كما أن الدولة الخوارزمية قد ارتكبت خطئاً عندما استعان ملوكهم بكفار الترك على قتال المغول وكما هو معلوم فمن لم يقاتل عن دين متين وعقيدة أكيدة لا يؤمـن عنـد الحاجـة أن يخـذل مـن اعتمـد عليـه واستنصر به[٣]. وقد كـان الظلـم وسـفك الدمـاء شـائعا فـي حكـام الدولـة الخوارزميـة، واعتياد عسكرهـم على النهب والسلب والفساد والأذى، والرعية معهم في بلاء وويـل[٤]، والزنا فيهم -يعني الخوارزمية- فاشٍ، واللواط ليس بقبيح، والغدر خلق لا يزايلهم[٥].

ولقد كان لكل تلك الأمور مجتمعـة أثر سيئ علـى دور العلمـاء المسـلمين، فـإن تلـك التصرفات المخالفة للمبادئ الإسلامية قد أحرجت هؤلاء العلماء وجعلتهـم غير قـادرين عل القيام بواجبهم في حث المسلمين على الجهاد و التضحية[٦].

---

(١) الذهبي، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢ ص٣٦١.

(٣) انظر النسوي، سيرة جلال الدين، ص١٥٦.

(٤) الذهبي، دول الإسلام، جـ٢، ص١١٢،١٢١.

(٥) أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، طبقة٦٣، ص٢٨٤.

(٦) انظر إسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي ، ص٥٠-٥١.

وهنا ندرك سلفا نتيجة المعارك التي تعرض لها المشرق الإسلامي عند غزو المغول للبلدان الإسلامية .

ومع كل ماذكر عن الدولة الخوارزمية ، فإن جلال الدين منكبرتي قد بذل جهدا كبيرا في مقاومة المغول[١] مما ادى الى استمرار المقاومة الاسلامية للمغول في المشرق، فكان بذلك سدا مانعا أمام المغول في هجمتهم الأولى وحال دون استيلائهم على بقية البلدان الإسلامية، وبالتالي تأخر سقوط بغداد الى سنة ٦٥٦هـ.

---

(١) انظر الملحق رقم (١) .

٣- أحوال الخلافة العباسية بعد سقوط الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨هـ

لقد عاشت الخلافة العباسية ردحا من الزمن تحت النفوذ البويهي ثم السلجوقي من بعده، وكان الخليفة العباسي آنذاك مجردا من سلطانه حيث لا يملك من أمر الخلافة سوى الإسم. وبعد زوال النفوذ السلجوقي أخذ الخلفاء في محاولة استعادة سلطتهم، والذي يعنينا هنا هو الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) والذي عاصر أحداث الهجوم المغولي الأول على المشرق الإسلامي. وقد اتصف الخليفة الناصر لدين الله بالدهاء والفطنة والتيقظ، ولذلك نهض بأعباء الخلافة[١]. وقد حاول الخليفة الناصر الاستفادة من ضعف السلاجقة ليمد نفوذه إلى المشرق الإسلامي، وحاول الاستفادة من الدولة الخوارزمية في سبيل تحقيق آماله، ولكن أمله خاب عندما أدرك أن الخوارزميين لديهم أطماع في السيطرة على الخلافة العباسية ليحتلوا المكانة التي كانت للبويهيين والسلاجقة من قبل.

وقد ظهر التشيع في عهد الخليفة الناصر لدين الله بسبب بعض من استوزرهم من الرافضة[٢]، ولذلك ظهرت فتن كبيرة بين أهل السنة والرافضة ببغداد قتل فيها عدد كثير في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م[٣]. ولكن الفتن هدأت بعد مقتل الوزير الرافضي في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٤]، وكان الناصر موصوفا بالظلم وسفك الدماء[٥]. وكان يتشيع بخلاف آبائه[٦].

---

(١) الذهبي، دول الإسلام، جـ٢، ص١٢٦.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣، ص٧٦. وفي سنة ٦٠٢هـ استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني،(أبو شامة، تراجم، ص٥٢)، وكذلك ناب في الوزارة شرف الدين الناقد بن قنبر واسمه الحسن بن أبي طالب وكان قبيح السيرة واشتهر بالظلم والفسق (أبو شامة، ص٦٢-٦٣).

(٣)الذهبي، دول الإسلام، جـ٢ص٩٢.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٢٠٣.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣، ص٧٦؛ دول الإسلام، جـ٢، ص٩٣.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، ص٢٠٠.

وفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م وقعت فتن بين أهل بغداد قتل فيها جماعة وجرح آخرون. وكان سبب هذه الفتن خلاف وقع بين أهل بغداد على صيد السباع وصل إلى القتال بالسيوف، واشتد الأمر حتى نهبت بعض البيوت[١]. وعندما كثرت الفتن أمر الخليفة بقتل من يشتبه فيهم في إحداث تلك الفتن فقتل منهم جماعة فسكن الناس[٢].

وكان الخليفة الناصر لدين الله شديد الاهتمام بمصالح الملك، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته، فقد كان أصحاب أخباره يطالعونه بكل شيء من أمور الناس، وكان شديد التتبع لأخبار الملوك وأحوالهم، حتى ظن بعض الناس أنه كان يكاشف أو أن جنيا يأتيه بذلك، لشدة تتبعه للأخبار[٣]. وأصبح له هيبة لدى معاصريه من الملوك[٤]. ولكن قبح سيرته في الرعية وظلمه أدى إلى خراب العراق في أيامه، وتفرق أهله في البلاد، فأخذوا أملاكهم وأموالهم[٥]، وكان يفعل الشيء وضده، فقد عمل دورا للضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور ضيافة للحجاج، ثم أبطل ذلك، وألغى بعض المظالم، ثم جددها[٦].

ولا شك أن هذه التصرفات تؤدي إلى عدم استقرار الوضع السياسي للخلافة العباسية.

وكان للخليفة الناصر حيل لطيفة وخدع لا يفطن إليها أحد يستخدمها مع الملوك والحكام فربما أوقع صداقة بين ملوك متعادين، وأوقع عداوة بين ملوك متوادين ولا يفطنون[٧]. ولعل ذلك هو الذي دفع العجم إلى أن ينسبوا إليه مكاتبة التتار ليطمعهم في

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٢٠٣.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٢٠٤.

(٣) انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، ص١٩٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣، ص٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية جـ١٣، ص١١٥.وهذا يصور جانبا من حالة المجتمع وفكرهم في ذلك العصر.

(٤) انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣،ص٨٢.

(٥) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٤٠.

(٦) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٤٠.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، ص١٩٥.

الدولة الخوارزمية[١].

وكان الناصر حريصا على أن يستأثر بالسلطة. يوضح ذلك موقفه من ولي عهده وولده الظاهر حيث وضعه في السجن لخوفه منه ومكث ابنه في سجن حتى توفي الناصر فأخرج أرباب الدولة ابنه الظاهر من السجن وبايعوه بالخلافة[٢].

وبعد وفاة الخليفة الناصر في رمضان سنة ٦٢٢هـ تولى الخلافة إبنه أبا نصر محمد الملقب بالظاهر، وكان عمره عند مبايعته ثنتان وخمسون سنة، وكان عاقلا وقورا دينا عادلا محسنا، رد مظالم كثيرة، وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه، وسار في الناس سيرة حسنة[٣]. ولكن العمر لم يطل به بعد توليه الخلافة، فقد توفي في رجب سنة ٦٢٣هـ، فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما[٤]. ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحا كثيرا على يديه، وذلك لإقامته للعدل ورد المظالم وإحسانه إلى العلماء والفقراء وتوليته لذوي الديانة والأمانة [٥]. وقد بويع من بعده لابنه أبي جعفر منصور ولقب بالمستنصر[٦] (٦٢٣-٦٤٠هـ) فاستمر حكمه قرابة سبعة عشر عاما. وتولى بعده الخلافة إبنه المستعصم بالله(٦٤٠-٦٥٦هـ) [٧]، وفي عهده كان استيلاء المغول على بغداد[٨].

(١) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٤٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص١١٥.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٧٠.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص١٠٧.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص١١٢.

(٥) انظر: ابن كثير ، المصدر السابق، جـ١٣ ص١١٢-١١٣.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص١١٣.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٨٢ ،والمستعصم بالله: آخر خلفاء العباسيين عبد الله بن منصور ولد سنة ٦٠٩هـ و توفي٦٥٦هـ مقتولا شهيدا على يد التتار عند دخولهم بغداد. أنظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧ ص٢٣٠؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠ ص١٤٢؛ الاربلي خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٨٩ ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء ٤٢٧.

(٨) انظر صـ ١٠٧ من البحث.

وخلال فترات حكم هؤلاء الخلفاء العباسيين فإن الخطر المغولي لا يزال قائما منذ دخوله إلى المشرق الإسلامي وحتى تمكن من القضاء على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ.

ويلاحظ أن الخلافة العباسية لم تتخذ التدابير الكافية لمواجهة هذا الخطر الجاثم أمامها، فقد أهمل الخلفاء العباسيون الذين تولوا في هذه الفترة القيام بواجب الجهاد لصد الغزو المغولي واسترداد البلاد التي وقعت تحت الاحتلال المغولي.

بل نجد ازدياد انغماس الخلفاء العباسيين في البذخ والترف[١]، وركونهم في تسيير أمور البلاد إلى وزراء رافضة أمثال مؤيد الدين بن القمي[٢]، وابن الناقد[٣]، ثم ابن العلقمي[٤]. وقد كان لهؤلاء الوزراء أسوأ الأثرفي توجيه سياسة الخلافة العباسية آنذاك مع استتار الخلفاء العباسيين عن الظهور للناس[٥]، وهذا أدى إلى ابتعادهم عن قيامهم بمزاولة أمور الحكم، مما زاد في ضعف الخلافة العباسية، ويضاف إلى ذلك تشجيع الخلافة العباسية للانحرافات التي وقعت في عقائد الناس، كما حصل من الخليفة المستنصر عندما اهتم بتزيين مقبرة الإمام أحمد بن حنبل والبناء عليها لأجل الزوار الواردين عليها، وعند افتتاحها قام الشعراء بنظم القصائد من أجل ذلك[٦]، وكذلك قام الخليفة بزيارة المشاهد، وتوزيع الأموال فيها[٧]، وعمارتها[٨]، ونتيجة لذلك انتشرت

---

(١) انظر: ابن الفوطي، المصدر السابق، صـ١٢٧.

(٢) هومحمد بن محمد بن عبد الكريم القمي، أصله ومولده من قم، تولى الوزارة للناصر ثم اللظاهر ثم للمستنصر، توفي سنة ٦٢٩هـ.

ابن الطقطقي، الفخري، صـ٣٢٦-٣٢٨.

(٣) نصير الدين أبي الأزهر أحمد بن محمد الناقد وزير للمستنصر، وتوفي في عهد المستعصم سنة ٦٤٢هـ

انظر:ابن الطقطقي، المصدر السابق، صـ٣٣١-٣٣٢.

(٤) مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن العلقمي، وزر للمستعصم، توفي سنة ٦٥٦هـ.

أنظر: ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص٣٣٧-٣٣٩.

(٥) انظر ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٨٣.

(٦) أنظر في ذلك: ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٥٠-٥١.

(٧) أنظر في ذلك : ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٥٢.

(٨) أنظر في ذلك: ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٧٩، ١٢٠.

الخرافات والشعوذة بين عامة الناس[١]، وأصبح لبعض النـاس اعتقـاد فـي المجـانين كمـا حصل لهم مع حميد الأبله ويعرف بالأدغم(ت: ٦٤٢هـ) فقد كان مولهـا يفـر مـن النـاس ويصيح عليه الصغار (يا أدغم) فيصيح ويتأذى وهو مختل يعتقد فيه البغـاددة[٢]. يضـاف إلى ذلك فإن الفتن قد كثرت ولم تستطع الخلافة العباسية القضـاء عليهـا لضعفهـا فكـثر الاضطراب بين الناس[٣].

من خلال ذلك يتبين لنا أن الخلافة لم تكن أحسن حظـا مـن الدولـة الخوارزميـة التي سقطت على أيدي المغول، وبالتالي فإن سقوط الخلافة العباسية في بغداد كان أمـرا متوقعاً.

ونلاحظ هنا أن الخلافة العباسية لم تكن أحسن حالا من الدولـة الخوارزميـة مـن حيث انتشار المظالم وعدم استقرار الوضع السياسي بها.

---

(١) حول هذه الخرافات والشعوذات أنظر: ابن الفوطي، المصدر السابق، ص١١٢،١٣٩.

(٢) الذهبي، المختار في تاريخ ابن الجزري، ص١٩٦.

(٣) أنظر: ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٥٥، ٨٩، ١٢٢، ١٣٥، ١٥٢.

٤- انتشار التشيع والاعتزال

لقد حذر النبي ﷺ أمته من التفرق والاختلاف، ونهاها عن الابتداع في الدين وفي هذا يقول النبي ﷺ : "**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد**"[١] ويقول ﷺ: "**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**"[٢]. والحديث واضح كل الوضوح في التحذير من الاختلاف والتفرق في الدين كما سبق لليهود والنصارى من قبل،والتنبيه كذلك على مضاره، ومع كل هذا التحذير والتنبيه من النبي ﷺ فإن الأمة الإسلامية لم تلبث أن دبت فيها روح الفرقة والاختلاف، ونتج عن ذلك خروج فرق عديدة من ضمنها الشيعة والتي بدورها انقسمت إلى فرق كثيرة كان لبعضها أدوارا هامة في التاريخ كالإسماعيلية والجعفرية الإثناعشرية.

وقد كان للشيعة ظهور في المشرق الإسلامي فلم تتمكن دولة السلاجقة السنية من القضاء على مذهب الشيعة رغم جهودها في هذا المضمار، فتقع بين فترة وفترة فتن بين الشيعة والسنة تسفك فيها الدماء من الطرفين، ولعل أشد ما لقيه أهل السنة من الشيعة في المشرق الإسلامي ما كان من أمر فرقة الإسماعيلية، فمنذ أن تمكن قائدهم الحسن بن الصباح من إقامة دولة لهم مكونة من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة أصبح الإسماعيلية شوكة في نحر أهل السنة في المشرق، وبخاصة ما كان من الفداوية، الذين كانوا يُسْتَخدمون في اغتيال أعداء الإسماعيلية عن طريق الغدر، فتم عن طريقهم القضاء على عدد من الشخصيات المهمة. وقد خف ضررهم على المسلمين نسبيا في الفترة التي تصدر لزعامتهم فيها جلال الدين حسن٦٠٧-٦١٨هـ/١٢١٠-١٢٢١م،فقدحدث أن أعلن جلال الدين حسن عن رجوعه عن مذهبه الفاسد، وأظهر شعائر الإسلام من الصلاة والصيام[٣]،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ج٣ ص١٦٧.

(٢) رواه الامام احمد في مسنده ج٢ ص٣٣٢؛ وانظر:سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم:٢٠٣.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢ ص١٥٨.

وحفظ الحدود والمحرمات والقيام فيها بالزواجر الشرعية[١]. وأرسل يعلم بذلك الخليفة العباسي الناصر لدين الله وكذلك للسلطان الخوارزمي علاء الدين محمد خوارزم شاه. ولكن ذلك لم يدم، فسرعان ما عاد ابنه علاء الدين محمد إلى تعاليم أسلافه بما تحويه من انحرافات عن الإسلام، ومهما يكن فإن وجود الشيعة بفرقهم المختلفة في المشرق الإسلامي كان عامل هدم في وحدة البلاد، وعامل إثارة للفوضى وعدم الاستقرار ولذلك اعتبرهم شيخ الإسلام ابن تيمية من أعظم أسباب هجوم المغول على العالم الإسلامي[٢]، وذكر كذلك أنهم فرحوا بمجيء التتار وأعانوهم في الاستيلاء على بلاد المسلمين، وقتل المسلمين[٣]، فهم من أعظم من أعان التتار على المسلمين باليد واللسان، بالمؤازرة والولاية وغير ذلك[٤]. ونبه كذلك على دور ابن العلقمي في سقوط بغداد في يد التتار ، وغدره بالمسلمين آنذاك[٥].

وخلاصة القول أن هذه الطائفة كانت عاملاً فعالاً من عوامل إضعاف المسلمين، وعنصرا خطرا أدى إلى زيادة التفرقة والانقسام بين الدول الإسلامية وسار بها أخيرا إلى التدهور الكامل، الأمر الذي سهل على المغول مهمتهم عندما شرعوا في مهاجمة الدولة الخوارزمية[٦].

أما المعتزلة[٧] فإن سلطانهم زاد وقوي في ظل الدولة البويهية، بعد أن كاد أن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣ ص١٠٣.

(٢) انظر ابن تيمية ، مجموع الفتاوى، جـ٢٨ ص٤٠١، ٥٢٧.

(٣) ابن تيمية ، المصدر السابق، جـ٢٨،ص٥٢٧-٥٢٨.

(٤) ابن تيمية، المصدر السابق، جـ٢٨ ص٦٣٦.

(٥) ابن تيمية، المصدر السابق، جـ٢٨ ص٦٣٧.

(٦) الصياد، المغول في التاريخ ، ص٨٦.

(٧) المعتزلة: هم أرباب الكلام وأصحاب الجدل، ويقدمون العقل على النقل، وسموا معتزلة لإعتزالهم قول الأمة في دعواهم أن الفاسق من أمة الإسلام في منزلة بين المنزلتين لامؤمن ولاكافر ، والأصول التي هم عليها خمسة وهي العدل و التوحيد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أنظر في ذلك: الملطي، التنبيه و الرد على أهل الأهواء والبدع، ص٣٦.

يختفي في عهد الخليفة العباسي المتوكل، حيث فقدوا مكانتهم بعد ثبات إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في فتنة القول بخلق القرآن، ويعود السبب في عودة ظهور المعتزلة في عهد الدولة البويهية وتمكنهم إلى اعتناق الشيعة لمبادئ المعتزلة[1]، وبما أن الدولة البويهية كانت دولة شيعية فقد أفسحت المجال للمعتزلة نظرا لاتفاقهما في الأصول العقدية[2]، فترعرع فيها الاعتزال، بل كان من وزرائها من اعتنق مذهب المعتزلة[3].

وبعد زوال الدولة البويهية انزوى الاعتزال إلى إقليم خوارزم وما وراء النهر[4]، وكان من أشهر علماء هذا المذهب في خوارزم قبيل الغزو المغولي شيخ المعتزلة أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي الخوارزمي (توفي سنة ٦١٠هـ) قال عنه الذهبي: "كان داعية للاعتزال وله عدة تصانيف، حملوا عنه وبعد صيته"[5]. ويستنتج من ذلك أن له تلاميذاً حملوا عنه مذهب المعتزلة وله أتباع تأثروا بما كان يدعو إليه من الاعتزال.

ومن أصحاب هذا المذهب آنذاك أيضا، الشيخ المعمر أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن يوسف بن أزرنق التركي الكاشغري الزركشي (٥٥٤-٦٤٥هـ)، كان يذهب إلى الاعتزال، ويقال أنه يرى رأي الفلاسفة، ويتهاون بالأمور الدينية[6].

وقد غلب الاعتزال على أهل خوارزم واشتهروا بذلك[7]. واتخذوا من المناظرات

---

(١) أنظر عبد المجيد بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، ص١٠٥.

(٢) أنظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية، جـ١، ص٨٦.

(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ٤ ص٤٣. وحول علاقة الفكر الشيعي بالفكر المعتزلي أنظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى جـ٦ ص٥٥.

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء، جـ٢١، ص٤٣؛ السبكي، طبقات الشافعية، جـ٨ ص ٨٦ ، حيث أورد في ترجمة فخر الدين الرازي الخصومة التي نشبت بينه وبين المعتزلة في تلك البلاد، وتمكنوا من إخراجه من هناك.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢ ص٢٨.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٣ ص١٥٠.

(٧) ذكر ياقوت الحموي أنه التقى بالقاسم ابن الحسين وسأله عن مذهبه فقال:" حنفي ولكن لست خوارزميا لست خوارزميا -يكررها- إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأي أهلها. وعقب على ذلك بقوله: نفى عن نفسه أن يكون معتزليا رحمه الله.(أنظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء جـ١٦ ص٢٣٩.)

وسيلة لنشر الاعتزال بين الناس[١]، والمعتزلة تقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة إلا أن المعتزلي لا يجوز الكذب على رسول الله ﷺ، بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه[٢]. وبالتالي انحصر دورهم في أمرين:

الأول: محاولة التوفيق بين الشريعة والفلسفة[٣].

الثاني: الانشغال بالردود والمناظرات.

ونتيجة لذلك أصبح هنالك فراغ شديد في توجيه الناس وتربيتهم، وكان له نتيجة سلبية عند هجوم المغول على بلدان المشرق الإسلامي.

ومهما يكن فإن وجود الفرق من شيعة ومعتزلة وغيرهم لم ينتج سوى بلبلة فكرية وفوضى دينية وصدام بين الأفكار، وكان لذلك ثمار مرة منها:

١- تشتيت الجهود.

٢- زعزعة العقيدة .

٣- تفريق شمل الأمة.

---

(١) الجميلي، دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص٢٥٨.

(٢) الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة تحقيق سليمان دنيا، ص١٩٢؛ ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد ومن القائلين بالحلول والإتحاد، تحقيق موسى الدويش، ص٣٣٦.

(٣) ابن تيمية، المصدر السابق، ص ١٠٣.

٥- انتشار التصوف و انحرافه عن جادة العقيدة الإسلامية

هناك ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية في المشرق الإسلامي إبان الغزو المغولي وهي انتشار التصوف واتساع نطاقه.

والتصوف نزعة من النزعات البشرية، وطريقة في التعبد والسلوك ومنهج التلقي لا فرقة مستقلة كالمعتزلة والشيعة[١] ولهذا لم تكن الصوفية فرقة متميزة وإنما هي طريقة هلامية ليس لها شكل محدد وأنما هي منتشرة في معظم الفرق، فقد تجد من معتنقي أفكارها شيعة ،و معتزلة أو فقهاءاً ومحدثون متميزون ببدعهم مدعين الانتساب لأهل السنة[٢]. وطريقة التصوف في أصل نشأتها في العالم الإسلامي العكوف على نوع من العبادة والانقطاع له والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق بالخلوة وقد أصبح التصوف اسما خاصاً بفئة لها آداب مخصوصة ، واصطلاحات لفظية معينة تدور بينهم، فالصوفية جنحت بهذا عن مسلك السلف الصالح ، وهم متفاوتون في انحرافهم عن جادة العقيدة الإسلامية. وقد غلا بعضهم في تصوفه وانحرافه حتى قال بوحدة الوجود أو الحلول أو غير ذلك من الانحرافات الشنيعة. وقد ظهرت الحلولية مبكرة في المشرق الإسلامي فخرجت طائفة منهم في ما وراء النهر وأصبح لها وجود في تلك الناحية[٣].

وفي أوائل القرن السابع الهجري نجد التصوف قد انتشر في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وزامن ذلك وجود كبار الصوفية المنحرفين أمثال ابن عربي وابن سبعين وغيرهم وهذا يدل على انتشار التصوف آنذاك، وبالتالي فإن المشرق الإسلامي كغيره من المناطق الإسلامية كان له نصيب من ذلك الأثر الصوفي.

وما يَهمنا هنا هو الأثر السيئ الذي تركه التصوف على المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ويتمثل في التالي:

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ٤ ص١٤٩.

(٢) العبدة، الصوفية نشأتها وتطورها، ص١٥.

(٣) انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧٦،؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٥٤.

أولا: التصوف في عمومه يمثل ابتداعا في الدين، وانحرافا عن العقيدة الصحيحة، وذلك من أسباب تسليط التتار الكفار على بلاد المسلمين كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فبعد إشارته إلى شيوخ المتصوفة قال: "وكثيرا ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الإسلام"[١].

ثانيا: الفهم الخاطئ للتوكل، حيث لبس عليهم إبليس فخرج بعضهم عن أموالهم وتجردوا منها[٢]، فتركوا كسب الدنيا وأعرضوا عن التعبد وافترشوا فراش البطالة فلا همّ لأكثرهم إلا الأكل واللعب[٣]، وبغض النظر عن دوافع هذا الإعراض عن العمل والكسب فإنه في حد ذاته عامل ضعف للأمة إذ أن ذلك يؤثر سلبا على الناحية الاقتصادية حيث تنتشر البطالة ويصبح الفرد من هذا النوع عبئا على مجتمعه بدل أن يكون فردا منتجا. فإذا انتشر هذا النوع من الأفراد في مجتمع فإن ذلك علامة على قرب زواله حيث يقع فريسة بين يدي أعدائه. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن التوكل الشرعي الذي هو الأخذ بالأسباب يعتبر عند الصوفية من مقامات العامة عند الصوفية، أما الصوفية فلا يأخذون بالأسباب[٤]. ولايخفى خطأ ذلك، فالتوكل لا ينافي القيام بالأسباب. بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد[٥].أما الفهم الخاطئ لمفهوم التوكل عند الصوفية فهو من المزالق الخطرة التي جعلت من الصوفية طائفة اتكالية سلبية الأثر لعدم سعيها في تحصيل أسباب رفعة الأمة وعزها وقوتها كما أمر الله بذلك حيث قال سبحانه:﴿ **و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[٦] فكانت الصوفية بذلك معول هدم في صرح الأمة الإسلامية .

---

(١) انظر ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، جـ١، ص١٨٦؛ مجموع الفتاوى ج١٣ ص١٧٩-١٨٠

(٢) انظر ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٧٦.

(٣) أنظر ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٢١.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، جـ١٠، ص١٧١.

(٥) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ٢، ص١٢١,٧

(٦) سورة الأنفال، آية رقم: ٦٠.

ثالثا: الفهم الخاطئ لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، فالصوفية فضلا عن كونهم لا يأخذون بالأسباب فإنهم يستسلمون للأقدار على حسب فهمهم الخاطئ ولم يفرقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية. ولذلك رضوا وأحبوا كلما وقع من كفر وفسوق وعصيان[١]. مع أن العبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضى بها[٢].

ونتيجة لهذا المعتقد الخاطئ فإن الصوفية في عمومهم اعتبروا غزو المغول للبلاد الإسلامية قضاء وقدر يجب الرضى به وعدم مدافعته ورده، ولذلك حكى أحد شيوخ الصوفية عن نفسه عندما بلغه ما حصل من المغول من قتل ونهب وفتك وأسر قال: فأنكرت ذلك بقلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت تلك الليلة في المنام رجل في يده كتاب فأخذته منه فإذا فيه:

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم في حركات الفلك

ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

فاستغفرت الله تعالى وأمسكت[٣].

فهذه الفئة من الصوفية لم ينكروا ما حدث من أفعال التتار بالمسلمين حتى بالقلب. بل يرى بعضهم أن الجهاد نقص لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء[٤].

رابعا: الصوفية تربية إذلال وعبودية للشيخ، وهم يرون أن المريد بين يدي شيخه يجب أن يكون كالميت بين يدي غاسله، وبهذا يلزم طاعة الشيخ وعدم الاعتراض عليه فمن اعترض فقد انطرد[٥]. ومن نشأ وتربى على هذه المفاهيم فلن يجد في نفسه قوة

---

(١) ابن تيمية، المصدر السابق، جـ١٠، ص٦٨٤.

(٢) ابن القيم، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٧.

(٣) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص١٧٣.

(٤) ابن تيميه، المصدر السابق، جـ١٠، ص٥١٠.

(٥) العبدة، المرجع السابق، ص١١.

وعزة وكرامة تدفعه للجهاد في سبيل اللــه والـذود عـن دينـه. فـإن تربيـة الصوفيـة بعيـدة بطبيعتها عن فكرة الجهاد والقتال فهي تعتمد على الرياضات الروحية ليصل أحدهــم إلـى مرحلة الفناء[١]. ولذلك نجد شيخ الإسلام يقول عن الصوفية: "وأما الجهاد في سبيل الله فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم، حتى نجد في عوام المؤمنين مـن الحـب للأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحـارم اللـه وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله، وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ما لا يوجد فيهم، بل يوجد ضد ذلك"[٢].

وموقف الصوفية السلبي من الجهاد هو في الغالب، وإلا فقد يوجد خاصة مـن المعتدليـن من له مشاركة في دفع الظالمين، ولكن الأكثرية هم مع المطاع المتغلب[٣].

(١) العبدة، المصدر السابق، ص٩٥.

(٢) ابن تيمية، الاستقامة، جـ١، ص٢٦٨.

(٣) العبدة، المرجع السابق، ص٩٥. وسيرد معنا فـي البحـث ذكـر لمـن شـارك في مقاومـة الغـزو المغولـي مـن الصوفية.

٦- أثر اليهود والنصارى في هجوم المغول على البلاد الإسلامية :

إن عداوة اليهود والنصارى للإسلام وأهله أمر قرره الله وأكده في كتابه حيث يقول سبحانه: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[1]، ومن هذا المنطلق فإن كيد اليهود والنصارى للمسلمين لاينقطع، فما فتئوا على مدار التاريخ يبذلون قصارى جهدهم في النيل من المسلمين، ولذلك أمرنا الله سبحانه باتخاذ التدابير الواقية من كيدهم فقال تعالى: ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**﴾[2]، وقال تعالى :﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾[3].

وعند البحث عن أثر اليهود في غزو المغول لبلاد العالم الإسلامي، لا نكاد نجد أي معلومات تسعفنا ببيان دورهم ولعل ذلك يعود إلى سببين:

السبب الأول: السرية والغموض الذي يلازم تحركات اليهود، وإجادتهم لهذا الجانب عبر تاريخهم الطويل.

السبب الثاني: لم يكن لليهود وجود كبير ومؤثر آنذاك، وبخاصة أن دولة يهود الخزر قد اضمحلت قبل خروج المغول[4].

ومع ذلك فعند تتبع الحوادث التاريخية نجد أن من اليهود من عمل لدى المغول وتولى منصب الوزارة لديهم[5].

---

(١) سورة البقرة آية رقم: ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران آية رقم: ١٢٠.

(٣)سورة هود آية رقم: ١١٣.

(٤) انظر : د. م. دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، صـ٣٤٢.
فقد أوضح المؤلف أن دولة الخزر انتهت عند ظهور السلاجقة ، وللتأكيد حول تهودهم انظر صـ١٣٩-١٧٧.

(٥) تولى الوزارة للمغول الإيلخانيين في عهد أرغون بن أبغا شخص يهودي يدعى سعد الدولة ابن الصغى، وقد توفي أرغون سنة ٦٩٠هـ فاتهمت المغول الوزير اليهودي بأنه سم له ولذلك قاموا بإعدامه (أنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٤٣). ويلاحظ أن هذا اليهودي قد أحضر جماعة من اليهود من أهل تفليس إلى بغداد، ورتبهم ولاة على تركات المسلمين، فأقاموا كثيرا من المظالم حيث لم يورثوا ذوي الأرحام. (أنظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢١٦).

أما النصارى فقد كانت علاقتهم بالمغول أوضح فقد كان جنكيزخان يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم[١]. ولعل جنكيزخان أراد في سياسته تلك الاستفادة من العناصر المخالفة للمسلمين ليحصل منهم على المعلومات الكافية وليدلوه على خفايا المسلمين ومواطنهم لمعرفتهم المسبقة بتلك المواطن[٢].

ومع ذلك فلا يمكن القول أن غزوات المغول كانت بتأثير النصارى، ولكن يمكن القول أن النصارى حاولوا الاستفادة من ظهور قوة المغول للقضاء على المسلمين، ولذلك بدأت بعثات التبشير النصرانية تقوم بدورها في أوساط المغول، فقد أرسل البابا إثنين من الكهنة إلى البلاط المغولي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م[٣].

وكان الغرض من تلك البعثات إضافة إلى نشر المسيحية إيجاد نوع من التحالف مع المغول ثم القيام بعد ذلك بحملة صليبية ضد المسلمين، والقضاء على دينهم بصورة نهائية[٤]. وقد نجحت تلك الوفود في بعض مساعيها فقد اعتنق اثنان من الوزراء المغول الديانة النصرانية[٥].

وقد زادت مكانة النصارى بعد ذلك في البلاط المغولي[٦]. وتبع ذلك فيما بعد توجه ملك الأرمن إلى البلاط المغولي سنة ٦٥٠هـ [٧]،وأعقب ذلك قيام المغول بحملة جديدة على البلدان الإسلامية بقيادة هولاكو، مما جعل بعض المعاصرين يؤكد بأن الغزو المغولي اتخذ طابع حملة صليبية[٨]. ويشير الإمام الذهبي إلى أن قوات نصرانية قد شاركت في الغزو المغولي[٩].

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٠٢.

(٢) العزاوى، العراق بين احتلالين، ص١٠٠.

(٣) براون، تاريخ الأدب في إيران، ص٥٧٤.

(٤) سعد حذيفة، سقوط الدولة العباسية، ص٣١٨.

(٥) براون، المرجع السابق، ص٥٧٤.

(٦) أنظر: رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، م٢ ج ١ ص١٨٨؛ بارتولد، تركستان، ص٦٧٨.

(٧) ابن العبري، مختصر الدول، ص٤٥٩؛ سعد حذيفة، سقوط الدولة العباسية، ص٣٢٠-٣٢١.

(٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٧٠-١٠٧١.

(٩) الذهبي، دول الإسلام، جـ٢، ص١٦٠؛ العبر، جـ٣، ص٢٧٧. فقد أكد على مشاركة الكرج في الإستيلاء على بغداد، وهذا يبين عدم صحة ما ذكره سعد حذيفة من أن مؤرخينا المسلمين قد مروا على هذه الحقيقة في

وكنتيجة لما سبق فقد انعقدت الصداقة بين الصليبيين وهولاكو[1]، ولكن الله سبحانه أنجى المسلمين من ذلك المنعطف الخطير في تاريخهم.

وإضافة إلى ذلك فإن النصارى في البلدان الإسلامية فرحوا بمجيء التتار، يدل على ذلك ما فعله نصارى دمشق من ذهابهم إلى هولاكو وحصولهم على أمان من جهته، وعادوا يحملون صليبا على رؤوسهم ويقولون: "ظهر الدين الصحيح، دين المسيح. ويذمون دين الإسلام، وتمادوا في ذلك فأخذوا أواني فيها الخمر ويرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويبيتوا النية إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها"[2].

فهذه الوقائع تدل على فرح الطائفتين – اليهود والنصارى- بالغزو المغولي ومعونتهم لهم وامدادهم بأنواع المدد المادي والمعنوي والتخطيط والتنسيق معهم في هذا الاتجاه.

=صمت مطبق(أنظر: سقوط الدولة العباسية، ص٣٢٢). ومما يزيد في توضيح الوجود النصراني أن زوجة هولاكو "دوقوز خان" كانت نصرانية الديانة وكانت بصحبته في حملته العسكرية تلك، ولها عنده مكانة كبيرة (انظر: ابن العبري، مختصر الدول، ص٤٦١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٦٢) وأيضا القائد المغولي إيل سيان كان يدين بالنصرانية(أنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٣٢).

(١) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٦١.

(٢) أنظر: الذهبي، العبر، جـ٣، ص٢٨٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٢٣٢-٢٣٣.

الفصل الأول :

دور العلماء المسلمين في الجهاد إبان غزوات المغول الأولى (٦١٦-٦٤٣هـ)

- دور العلماء في محاولة الصمود أمام غزوات جنكيزخان وأبنائه في المشرق.
- دور العلماء في فض الخلافات السياسية بين الحكام المسلمين.
- تحذير العلماء من خطر الغزو المغولي.
- آثار جهود العلماء في سير المعارك.

يرجع المغول (التتار) في أصلهم إلى بلاد الصين في منطقة طمغاج، "أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئا، فإنهم يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب والخنازير، ولايعرفون نكاحا، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لايعرف أباه"(١)

وقد استطاع أحد ملوكهم وهو جنكيزخان أن يوحد كلمتهم ويخضع جميع البلاد إلى ما وراء النهر تحت سلطانه، وجعل لهم قانونا يرجعون إليه يسمى الياسق، وذلك في أواخر القرن السادس الهجري(٢). وقد تزامن ذلك مع وجود الدولة الخوارزمية، حيث أصبح المغول مجاورين لها من المشرق. وكما مر بنا في التمهيد فإن بداية الغزو المغولي للبلاد الإسلامية كانت إثر قتل الخوارزميين للتجار الذين قدموا من عند المغول آنذاك، وأعقب ذلك قيام المغول بهجومهم على المشرق الإسلامي بقيادة جنكيزخان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وواصل أبناؤه من بعده في إرسال الجيوش لغزو المشرق الإسلامي في غزواتهم الأولى التي استولوا فيها على المنطقة من بخارى وسمرقند حتى أطراف العراق، وكان ذلك خلال فترة وجيزة،

ففي عام ٦١٨ هـ تقدم المغول نحو إربل(٣)،فانزعج الناس ، وأمر الخليفة الناصر بالقنوت في الصلاة و قام بتحصين البلد(٤).

و بعودة جنكيزخان إلى منغوليا عام ٦٢٠هـ ثم وفاته عام٦٢٤هـ هدأت تلك الغزوات(٥) .

---

(١) انظر ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج١٢ ص٣٦٠ .

(٢) انظر: ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص١٢٧.

(٣) إربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عظيم، وهي على تل عال، وهي تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص١٣٧-١٣٨.

(٤) سوسن محمد نصر، بنو أيوب مع الخوارزمية و المغول و المماليك في شمال الشام و الجزيرة . بحث من المجلة التارخية التي تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التارخية، المجلد ٣٠-٣١ عام ١٩٨٣-١٩٨٤ ، ص: ٨٠ .

(٥) الديار بكري ، تاريخ الخميس ، ج٢، ص ٣٦٩؛ الغياثي ، التاريخ الغياثي ص ٤٢٠.

وبعد فترة من الزمن وبالتحديد سنة٦٣٤هـ غزا التتار إربل وحاصروها ثـم رحلـوا عنها بعد أن أعطواما لاً[١].

ثم أعقب ذلك في السنة التي تلتها سنة ٦٣٥ هجرية غـزوة مغولية للعـراق وصلت إلى تخوم بغداد فخرج إليهم جيش الخلافة و استطاعوا هزيمة المغول[٢].
و لكن المغول رجعوا في آخر السنة نفسها (٦٣٥هـ) وكسروا جيوش بغداد[٣].
و في سنة ٦٤٢ هـ أغار المغول على بلد بغداد و لم يتمكنوا من منازلتها[٤]
وتنتهى هذه المرحلة بحوادث سنة ٦٤٣هـ وسوف نتناول بالدراسة في هـذا الفصل دور العلماء في الجهاد خلال تلك الفترة من خلال المباحث الآتية .

---

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٣٧.

(٢) ابن العبري، المصدر السابق، ص ٤٣٨؛ تاريخ الزمان، ص٢٨٣.

(٣) ابن العبري، المصدر السابق، ٤٣٨؛ تاريخ الزمان، ص٢٨٤.

(٤) ابن العبري، المصدر السابق، ٤٤٦؛ تاريخ الزمان، ص٢٨٥.

المبحث الأول :

دور العلماء في محاولة الصمود أمام غزوات جنكيز خان وأبنائه في المشرق:

كانت الفترة التي احتاح فيها المغول الدولة الخوارزمية، فترة قصيرة جدا، بالنسبة إلى عظم المساحة التي أخضعوها ، فقد وصل المغول إلى حدود الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦ هـ/١٢١٩م، و عاد جنكيز خان إلى منغوليا بعد إخضاع المدن الخوارزمية للسيطرة المغولية سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣م[١].

فالضربات كانت سريعة وقوية، اكتسحت المدن الإسلامية في المشرق ، وزعزعت أمن المجتمع الإسلامي، وفتكت به ، والأحداث كانت متلاحقة، فأخذ بناء الدولة الخوارزمية ينهار بشكل كبير، والموج المغولي كان يتدفق بغزارة وقوة.

وكان للعلماء اليد البيضاء في دعوة الأمة للصمود أمام جحافل المغول رغم تنحية السلطان الخوارزمي محمد خوارزم شاه[٢] (٥٩٦-٦١٧هـ/١١٩٩-١٢٢٠م) لعدد منهم عن مسرح الأحداث وتوجيه الأمة، ينقل النسوي ما حل برئيس الحنفية ببخارى وخطيبها برهان الدين البخاري المعروف بصدر جهان[٣]، فقد أبعده السلطان الخوارزمي من بخارى وسَيَّره إلى خوارزم،" فأقام بخوارزم مسلوب المراد ممنوعا من الإصدار والإيراد، إلى أن قتل عند إجفال تركان

(١) حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية ، ص١٣٥.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) محمد بن أحمد المعروف بصدر جهان ، كان إماما ، عديم النظير في البحث ، له مشاركة في العلوم . أنظر ترجمته عند محمد عبد الحي اللكنوى ، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، ص١٧٧.

خاتون عن خوارزم"[١].

يدل النص السابق على أن فئة من العلماء والفقهاء قد وقعوا تحت طائلة الإقامة الجبرية، مما حال دون قيامهم بالدور المرتقب منهم أمام ذلك الحدث الضخم وهو الغزو المغولي .

ويؤكد هذه الحقيقة أن السلطان محمد خوارزم شاه قام بنفي ثلاثة من علماء سمرقند[٢]، هم جلال الدين[٣]، وابنه شمس الدين[٤]، وأخوه أوحد الدين[٥]. و قد وصفهم النسوي بقوله:" كانوا سادات الأرض ، آدابا بارعة وأقداما لأعلام العلوم فارعة"[٦].

وكانت نهاية أوحد الدين بنسا[٧]، حيث مات بها غريبا منفيا .وأما جلال الدين فكانت إقامته بمازندران[٨] إلى أن عدم خبره عند خروج

---

(١) النسوي ، سيرة جلال الدين ، ص٦٩.

وتركان خاتون هي والدة السلطان محمد خوارزم شاه ، وقد كانت قوية الشخصية ، ذات نفوذ في دولة ولدها محمد خوارزم شاه . انظر النسوي، المصدر السابق، ص٦٩.

(٢) سمرقند : من أجمل مدن إقليم الصغد ، على نحو من ١٥٠ ميلا شرق بخارى وتقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصغد على نشز من الأرض وعلى المدينة سور حوله خندق عظيم ولها قلعة مرتفعة عن الأرض تحف بها البساتين والأشجار ، انظر كي لسترنج ، بلدان الخلافة ، ص٥٠٦ .

وقال عنهاياقوت:"بلدمعروف مشهورفيماوراء النهر،وهو قصبة االصغد"معجم البلدان ، ج٣ ص٢٤٦ .

(٣،٤،٥) لم أجد لواحد منهم ترجمة فيما بين يدي من مصادر متداولة عن هذه الفترة التاريخية .

(٦) النسوي ، سيرة جلال الدين ص:٧٠ .

(٧) نسا: مدينة بخراسان، قيل في سبب تسميتها بهذا الإسم أن المسلمين لما وردوا خراسان قصدوها فبلغ أهلها فهربوا ولم يتخلف بها غير النساء فلما أتاها المسلمون لم يروا بها رجالا فقالوا: هؤلاء نساء، والنساء لا يقاتلن، فننسأ أمرها الآن إلى أن يعود رجالهن، فتركوها ومضوا فسموا بذلك نساء، انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٢٨١-٢٨٢.

(٨) مازندران : هي منطقة الجبال العالية الممتدة حذاء الساحل الجنوبي لبحر قزوين . أنظر كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠٩.

المغول[1].

فالسياسة التي اتبعها السلطان محمد خوارزم شاه مع العلماء حدّت من دورهم عند هجوم المغول ، فقد كانوا بين طريد منفي، أو واقع تحت الإقامة الجبرية كما رأينا في النصوص السابقة. و بالتالي لم تكن الظروف التي ألزموا بها لتسمح لهم بأن يؤدوا دورهم كما ينبغي في إنقاذ البلاد من الهاوية والدمار.

وكما هو معلوم فإن الأمة أحوج ما تكون إلى علمائها و مفكريها و ذوي الرأي فيها وقت المحن والشدائد، لكي يرسموا لها الطريق الصحيح للخلاص مما هي فيه.

و بالرغم من تحجيم دور العلماء فعند تتبعنا للأحداث نجد الصفحات المشرقة التي سطروها في صمودهم و دفاعهم عن دينهم و بلادهم وأعراضهم، مما جعلهم نماذج يقتدى بها.

ذكر ابن الأثير أن المغول حاصروا بخارى ثلاثة أيام فلم يكن للعسكر الذين بها بالتتار طاقة و لاقبل، فخرجوا من البلد ليلاً، و هربوا نحو خراسان[2]. مخالفين بذلك قول الله عزّ وجل :﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار و من يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصير**﴾[3].

ومن المؤكد أن الجيش لم يقدم على هذا العمل الشنيع إلا لضعف الإيمان في نفوس أفراده مع حب الدنيا و شهواتها و يضاف إلى ذلك قلة التذكير وانهيار الروح المعنوية .

---

(١) النسوي ، المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٦٥ ؛ الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص٩٧؛ إبن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٥٨.

(٣) سورة الأنفال ، آية رقم ١٥، ١٦ .

وكانت النتيجة أن أصبح الناس وليس عندهم من المقاتلة أحد. عندها ضعفت نفوس أهل البلد وكانت الصدمة شديدة .

فلم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى القاضي بدر الدين ابن قاضي خان(١)، وطلبوا منه أن يخرج إلى المغول ويطلب منهم الأمان للناس(٢)، فقام بالمهمة التي طلبها منه الأهالي بثبات و رباطه جأش، وتم بالفعل الحصول على الأمان من المغول للأهالي(٣).

ولكن المغول نقضوا العهد الذي أعطوه لأهل بخارى ، فغدروا بهم، وأعملوا السيوف في الرقاب، وارتكبوا من الفساد الشيء العظيم، والناس ينظرون ولا يملكون الدفع عن أنفسهم(٤).

وفي هذا الموقف صمد رجال باعوا أنفسهم لله ، وأبوا أن يروا الهوان، ويعيشوا الذل ، فاختاروا الشهادة وما عند الله في الدار الآخرة(٥).

وكان على رأس الصامدين أمام المغول، العلماء الذين اتقدت جذوة الإيمان في قلوبهم وكانوا نماذج واقعية للصمود أمام هجمات المغول.

---

(١) من أسرة عريقة فوالده حسن بن منصور الملقب بقاضي خان، كان إماما كبيرا من أهل الاجتهاد، محمد عبدالحي اللكنوي، الفوائد البهية،ص٦٤.

(٢) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص٣٦٥ ؛ ابن ايبك، الدر المطلوب ص٢٤١ ؛الذهبي، المصدر السابق، ص٩٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٠٧؛ أرمينيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ص١٧٠ .

(٣) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص٣٦٥؛ ابن ايبك، المصدر السابق، ص٢٤١؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،ج٢،ص١٩٧.

(٤) ابن ايبك، المصدر السابق، ص٢٤١ ؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٧ ص٣٠٩؛ الذهبي، المصدر السابق، ص٩٧؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص١٩٧.

(٥) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٦٧ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام الطبقة ٦٢ ص٤٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ ص٩٠ .

ومـن هـؤلاء العلمـاء ، الفقيـه الإمـام ركـن الديـن إمـام زاده[١]، وولـده ، وكذلك القاضي بدر الدين خان[٢]، فعندمـا رأوا مـا يفعـل بـالحُرُمِ صمدوا أمام المغول. وقد ذكر ابن الأثير عنهم أنهم :" ممن إختاروا أن يقتلوا ولا يروا ما نزل بالمسلمين "[٣].

وكان من نتيجة صمودهم ومقاومتهم حتى نالوا الشهادة في سبيل اللـه أن سرى نبض الجهاد والصمود في عدد من أهل بخارى كـانوا بالقلعـة[٤].وصمـدوا أمام جحافل المغول فبذلوا جهدهم، ومانعوا اثنـى عشـر يومـاً. و رمـوا بكـل مـا عندهم من سهام وحجارة ونار، ثم قاتلوا فقتلوا عن آخرهم رحمة الله عليهم[٥].

ولو سارت الأمة على هذا المنهج الذي رسمه ثلة من العلماء ، وكان هـذا موقف كل مسلم في الدفاع عن نفسـه ، ودينـه ، وعرضـه ، لاستطاعت البلدان الإسلامية الصمود أمام الغزو المغولي، إذ الجهاد هو حياة الأمـة وبـه عزهـا، فإن قتل أحدهم مات على عزة وكرامة مع أجر الشهادة، وإن عاش كان سعيدا حميدا يؤكد هذه الحقيقة قول اللـه سبحانه وتعـالى :﴿ **ولا تحسـبن الذيـن قتلـوا فـي سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[٦].

---

(١) محمد بن أبي بكر الواعظ ركن الإسلام المعروف بإمام زاده، كان إماما فـاضلا يفتـي ببخـارى، صاحب بيان وفصاحة، وكان يعظ الناس،انظر اللكنوي، المرجع السابق، ص١٦١.

(٢) سبقت الإشارة إليه .

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٦٨ ؛ انظر الذهبي، تاريخ الإسـلام ، الطبقـة ٦٢، ص٤٠؛ الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري،ص٩٨.

(٤) كان بقلعة بخارى أربعمائـة فـارس مـن المسـلمين. انظـر الاصبهـاني، البسـتان الجـامع ق١٨٢أ؛ الذهبي ،تاريخ الإسلام الطبقة ٦٢ ص٤٠؛ النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٣٠٩ .

(٥) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٦٨ ؛ أبوا الفداء ، المختصر فـي أخبـار البشـر، ج٣ ص١٢٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٢ ص٤٠ ؛ النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٣٠٩ ؛ ابن إيبك، المصدر السابق، ص٢٤١ ؛ براون، المرجع السابق، ص٥٥٨ ؛ العزاوي، المرجـع السـابق، ج١ ص١١٥ ؛ الباز العريني، المغول، ص١٢٥ .

(٦) سورة آل عمران ، آية رقم ١٦٩.

وقوله تعالى: ﴿**هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون**﴾[١] فالأمة التي لديها الإستعداد للجهاد والتضحية حري بها أن تبقى عزيزة كريمة.

وعندما نتتبع سير الأحداث نجد أن المغول واصلوا هجومهم حيث وصلوا إلى نيسابور[٢] وبدأوا في الهجوم على هذه المدينة عام ٦١٨ هـ/١٢٢١م، فبدأ تركيز الهجوم أولا على شرق المدينة، ثم قاموا بتطويقها بآلاتهم وجنودهم[٣]، وكان لعلماء وفقهاء نيسابور أثر في تهيئة أهل البلد للثبات والتصدي للزحف المغولي المدمر، فيذكر الجويني قيام سكان نيسابور بحمل الحجارة من مسافات بعيدة إلى داخل المدينة ، وكذلك قاموا بتخزين المحاصيل والحبوب، ودفعوا إلى أعلى السور ثلاثة آلاف آلة قاذفة للحجارة وثلاثمائة منجنيق وعرادة ،وعبوا النفط، وأعدوا الأسلحة[٤].وقد كان على رأس المجاهدين من أهل نيسابور فقيه خراسان ومفتيها القاسم بن عبد الله بن عمر بن أحمد شهاب الدين الصفار(٥٣٣-٦١٨هـ)، وكان فقيها كبيرا، إماما نبيلا، محدثا عالي الإسناد، من وجوه نيسابور وسراة أهلها، مواظبا على نشر العلم. شارك بنفسه في الجهاد والقتال ، و صمد أمام هجمات المغول على نيسابور، فكان ممن استشهد عند دخول المغول إلى المدينة[٥].

---

(١) سورة التوبة ، آية رقم٥٢.

(٢) نيسابور : مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء، و هي من أكبر مدن خراسان و تنسب إلى الملك سابور الثاني الخرساني الذي جدد بنائها في المائة الرابعة للميلاد؛ انظر ياقوت ، معجم البلدان ج٥ ص٣٣١ ؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة، ص٤٢٤ .

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ج١ص١٦٩ .

(٤) انظرالجويني، المصدر السابق، ج١ ص١٦٩-١٧٠ .

(٥) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، جـ٣، ص٦٦-٦٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢،ص١٠٩-١١٠؛ الإعلام بوفيات الأعلام، ص ٢٥٤؛ السبكي، طبقات الشافعية ج٨ ص٣٥٣؛

وممن شارك في الصمود حتى نال الشهادة الشيخ إبراهيم بن علي السلمي من فقهاء الشافعية، فكان استشهاده عند الغزو المغولي لنيسابور سنة ٦١٨ هـ[١].

وكذلك الإمام نظام الدين الحصيري، من أكابر علماء الحنفية في زمنه في المشرق، واسمه أحمد بن عبد السيد الحصيري البخاري[٢]، الذي دافع المغول وقاتل إلى جانب أهل نيسابور حتى نال الشهادة، وهو والد الإمام القاضي جمال الدين محمود الحصيري[٣].

ومما سبق يتبين أن أكابر علماء وفقهاء نيسابور، قد شاركوا بأنفسهم وقدموا أرواحهم ونفوسهم في سبيل الله والذود عن الإسلام، فقتلوا مقبلين غير مدبرين، وكان لمقتلهم في ساحة الجهاد الأثرالكبير على نفوس أهل نيسابور، الذين كادت أن تنهار الروح المعنوية لديهم، حيث كانت قوة المغول أكثر منهم بكثير[٤].

وعندما رأى أهل نيسابور أن القوى غير متكافئة، ولا جيش لديهم يقاوم المغول، عند ذلك لم يملكوا إلا أن يتوجهوا إلى أحد العلماء الذين نجوا وسلموا من المعارك وهو قاضي قضاة خراسان ركن الدين علي بن إبراهيم

=ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٦ ص٢٥٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥ ص٨١ – ٨٢. وهو من شيوخ ابن الصلاح والضياء المقدسي.

(١) إبراهيم بن علي السلمي ، فقيه شافعي ، قدم خراسان وقرأعلى الفخر الرازي ، وصنف كتبا كثيرة في الطب والفلسفة، وشرح الكليات بكمالها من كتاب القانون، وكانت وفاته على يد التتار عند دخولهم نيسابور عام ٦١٨هـ .

انظر في ذلك :المقريزي، المقفى الكبير ج١ ص٢٠٨ – ٢٠٩؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٨ص١٢١؛ ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية ج٢ ص٦٣؛ ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء ج٢ ص٣٠؛ إسماعيل باشا، هدية العارفين ج١ ص١١؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين ج١ ص٦٧ .

(٢) محمد عبدالحي اللكنوي، الفوائد البهية،ص٤٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤ ص٢٥٨، وذكر أن مقتله سنة ٦١٦هـ عند دخول المغول، وهذا خطأ حيث كان دخول المغول لنيسابور سنة ٦١٨هـ.

(٣) ستَرِد ترجمته فيما بعد .

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص١١٨ .

المغيثي[١].فقاموا بإرساله إلى الجيش المغولي المحاصر لنيسابور، وقد عرض على المغول مطالب أهالي نيسابور حقنا لما بقي من دمائهم وهي: الأمان ودفع شيء من المال مقابل ذلك للمغول، ولكن المغول لم يجيبوه إلى شيء منها، كما لم يسمح له بالإنصراف، ثم هاجم المغول المدينة، وغدروا بالقاضي[٢].

ونستنتج من هذا أن منع المغول للقاضي من الرجوع إلى نيسابور بعد رفضهم لمطالبه ومقترحاته، دليل على معرفتهم بالدور الكبير الذي يقوم به العلماء في الجهاد والتأثير على المسلمين وتذكيرهم بما أعدا الله للمجاهدين في سبيله الذابين عن دينهم وأعراضهم وأنفسهم. وأن للعلماء دورا في التحذير من الذل والاستكانة التي جنح إليها كثير من المسلمين الذين انهارت معنوياتهم سريعا أمام المغول .

ولهذا حرص القائد المغولي - تولي بن جنكيزخان - أن يبقى القاضي لديه حتى ينتهي من أمر نيسابور لكي لا يجد مقاومة من أهلها. وكان له ما أراد، فسرعان ما تهاوت المدينة بعد مقتل علمائها .

ويؤكد على أهمية دور العلماء في الجهاد ضد المغول دور فقيه خوارزم وعالمها شهاب الدين أحمد بن عمر أبو الجناب الخيوقي الملقب بنجم الدين الكبرا[٣] وقد كانت له مكانة وهيبة، وقد وصف النسوي مكانته قائلا :" فكنتَ

---

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر متداولة عن هذه الفترة التاريخية .

(٢) انظر الجويني، تاريخ جهانكشاي ج١ ص١٧٠، عفاف صبره ، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٢٠٤

(٣) شهاب الدين الخيوقي ، نسبة إلى خيوق من قرى خراسان :إسمه أحمد بن عمر أبوالجناب شيخ خوارزم شافعي المذهب، إمام في السنة، صنف تفسيرا في اثنتى عشرة مجلدة، استوطن خوارزم إلى أن قصدها التتار في ربيع الأول سنة ٦١٨ هـ ، فخرج فيمن خرج لقتالهم ونال الشهادة في القتال .

انظر: السبكي، المصدر السابق، ج٨ ص٢٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٢ ص٣٥٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٢٢ ص١١١؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٥ ص٧٣؛ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ ص٦٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧ ص٢٦٣؛ ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ ص٧٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤ ص٤٠؛ اليماني، غربال الزمان في وفيات الأعيان، ص٥٠١.

ترى ملوك الأرض ووزرائها وذوي المراتب العلية من أمرائها وقوفا على بابه، وهو يدرس الأئمة على جاري عادته"[١]. وقد كان نجم الدين الكبرا قمة من قمم الجهاد والصمود .

تروي لنا المصادر أن التتار توجهوا إلى خوارزم بأعظم سرايا جيشهم، وذلك لكبر وعظم البلد، وأخذ المغول أهبتهم للحصار، فقد كانوا يعرفون جيدا أهمية موقع خوارزم، وكثرة عدد سكان هذا الإقليم، وشجاعة أهله، و لذلك فقد بلغت القوات المغولية التي توجهت إلى خوارزم مائة ألف جندي[٢].

وكان السلطان خوارزم شاه يكاتب أهل خوارزم وهو بالجزيرة قائلا لهم: "عليكم بالمسالمة والطريق الأوفق ، ودفع الشر بالوجه الأوفق "[٣].

وما ذلك القول منه إلا نتيجة لانهيار معنويته لعظم ما رأى من بأس وشدة التتار[٤].

ومما لا شك فيه أن عبارته السابقة كان لها أثر سيء على الروح المعنوية لأهل خوارزم.

وبالرغم من ذلك نجد مواقف رائعة لشيخ خوارزم نجم الدين الكبرا ، والذي وصف بأنه " لا يخاف في الله لومة لائم "[٥].فقد كانت له مواقف مشرفة

= ويلاحظ أن النسوي ذكر أن إسمه شهاب الدين أبو سعد بن عمران. انظر، سيرة جلال الدين ص١٠٩. ولم يوافقه على ذلك أحد من المصادر الأخرى .

(١) سيرة جلال الدين، ص٩٠ .

(٢) انظر الصياد، المرجع السابق ص١٢٥، عفاف صبرة، المرجع السابق، ص١٩٨ .

(٣) النسوي ، المصدر السابق، ص١٧٢ .

(٤) لقد جانبت الصواب عفاف صبرة في كتابها التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ، حيث ذكرت أن الذي أرسل التحذير والنصح بالتسليم لأهل خوارزم هو جلال الدين منكبرتي وليس والده خوارزم شاه.انظر عفاف صبرة، المصدر السابق، ص١٩٩. والصواب ما أثبته من أن الذي أرسل التحذير هو السلطان محمد خوارزم شاه إستنادا على رواية النسوي، انظر النسوي، المصدر السابق، ص١٧٢ .

(٥) السبكي، المصدر السابق، ج٨ ص٢٦ .

في الصمود أمام المغول .فعندما رأى المغول يهاجمون البلد ثم يقتحمونه نادى بأصحابه :" الصلاة جامعة .ثم قال : قوموا نقاتل في سبيل ا لله . وأمر بعضا من تلاميذه بالتوجه إلى أماكن وقرى سماها لهم وحددها، وأمرهم بالخروج من خوارزم قبل المعركة [١]، وذلك ليقوموا بواجب البلاغ والدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس.

أما هو فقد حمل على العدو بنفسه ، وشاركه في ذلك طلابه الباقون وخواصه، وأخذ في الوقت نفسه يحث الناس على الصمود. فحاربوا حتى أعضل الأمر.وعند قتاله أخذ يرمي المغول بكل ما يستطيع في محاربتهم حتى أخذ يقذفهم بالحجارة بعد فراغ جعبته من السهام.

وظل صامدا أمام المغول حتى نال الشهادة إثر سهم أصابه في صدره مقبلا غير مدبر،وقتل معه ثمانون من خواصه وأتباعه بعد أن قاتلوا معه وجاهدوا في سبيل ا لله أعظم جهاد حتى أكرمهم ا لله معه بالشهادة فقتلوا مقبلين غير مدبرين على باب خوارزم[٢].

ومات نجم الدين الكبرا ولفظ أنفاسه وهو قابض على ضفيرة واحد من المغول، فلم يستطيعوا تخليصها منه، فاضطروا إلى قطعها[٣].

---

(١) انظر اليافعي، المصدر السابق، ج٤ ص٤٤؛ العيني، عقد الجمان،جـ١ص٩١؛ براون، المصدر السابق، ص٦٢٧؛ الصياد، المصدر السابق، ص١٢٧؛ رجب عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول ص٨٧.

ومن أبرز تلاميذه الذين أرسلهم: سعد الدين الحموي الذي أرسله إلى خراسان وكمال الدين السرباقي الذي أرسله إلى تركستان ونظام الدين الجندي الذي أرسله إلى بلاد القفجاق وسيف الدين الباخرزي الذي أرسله إلى بخارى. وأيضا رضي الدين علي وقد كان لهؤلاء دور كبير في نشر الإسلام بين صفوف المغول. انظر العيني، المرجع السابق، ج١ ص٩١؛ الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان و بلغار وملوك التتار، ج١ ص٤٠٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٢٢ ص١١١؛ النويري ، المصدر السابق، ج٢٧ ص٣٣٠؛ براون، المرجع السابق، ص٢٢٨،الصياد، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٣) براون، المرجع السابق، ص٦٢٨؛ الصياد، المرجع السابق، ص١٢٨ .

وكان لجهاد نجم الدين الكبرا وصموده ثم استشهاده هو وتلامذته صدى عظيماً في نفوس أهل خوارزم، وبخاصة أنها وصفت بأن " أهلها علماء وفقهاء ليس لهم نظير في القرب من الخير، وملازمة أسباب الشرائع "[١].

وقد سطر أهل خوارزم أعظم الملاحم في الصمود أمام المغول ومقاومتهم، حيث كان دفاعهم عند جرجانية[٢] عاصمة الإقليم من أشهر الوقائع التي وقعت بين المسلمين والمغول، وظهر أثناء ذلك بطوله وثبات سكان المدينة، حيث أنزلوا بالمغول خسائر جسيمة، فكلما امتلك المغول محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليها [٣].

وقد أرسل أهل خوارزم الفقيه علاء الدين الخياطي[٤]محتسب خوارزم إلى المغول ليستعطف القائد المغولي عليهم حيث لم يبق مع أهل خوارزم إلا ثلاث محال تراكمت الناس فيها .

وعند وصوله إلى المغول أمر القائد المغولي باحترامه وأن تنصب له خيمة، ثم أحضره فأدى رسالته ، فكان من جملة ما قال : إننا قد شاهدنا من هيبة الخان، وقد آن أن نشاهد من مرحمته . فاستشاط القائد المغولي غضبا وقال :

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ج٢ ص٣٩٨.

(٢) الجرجانية : قصبة إقليم خوارزم ، وأكبر مدنه . وأصبحت تعرف بوجه عام بمدينة خوارزم . وفي سنة ٦١٧هـ قام المغول بإغراقها ، فغمرت المياه المدينة كلها ، ولم يبقى إلا معالمها .

انظر في ذلك ، ياقوت الحموي؛ المصدر السابق، ج٢ ص١٢٢؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة ص٤٩١.

(٣) النويري، المصدر السابق، ج٢٧،ص٣٣١.

(٤) واسمه علاء الدين سديد بن محمد الخياطي ممن جمع فضيلتي العلم والعمل ، وقد تولى مهام حسبة خوارزم ، فلم تأخذه في الله لومة لائم ، وكان عارفا بالفقه والحديث، عالما بأمور الناس . انظر النسوي، المصدر السابق، ص١٧٢ .

وانظر في ترجمته: ابن الفوطي، مجمع الآداب ومعجم الألقاب، ج٤ ق٢ ص١٠١٨-١٠١٩؛ النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٣٣١؛ القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ج٤ ص١٩٨؛ نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص٢٣٩ .

ماذا رأوا من هيبتي وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال، فأنا الذي شاهدت هيبتهم ثم قام بقتل محتسب خوارزم ومن معه[١].

و في كلام القائد المغولي ووصفه لشدة قتال أهل خوارزم دليل على شجاعة واستبسال أهل البلد، الذي يغلب على أهله العلم والفقه ،وقد ضربوا أروع الأمثلة في الصمود أمام هجوم المغول.

واستمر صمود أهل البلد وظل الرجال والنساء والصبيان يقاتلون حتى ملك المغول البلد جميعه ، وقتلوا كل من فيه ، ثم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء ، وغرق البلد جميعه وبقي موضعه ماء[٢].

والمؤرخ النسوي عند عرضه لاستيلاء المغول على خوارزم لم يشر إلى الإمام نجم الدين الكبرا . ولكنه يذكر مواقفه ودوره في الصمود في مدينة نسا. فقد ذكر أن نجم الدين الكبرا قام بتثبيت أهل نسا وحثهم على بناء القلعة والمرابطة في سبيل الله، بدلاً من الهرب و الفرار الذي لجأ إليه كثير من سكان المدن في المشرق الإسلامي .

و لكن المغول لم يمهلوهم حيث ساقوا إليهم و حاصروا نسا حتى استولوا عليها .

وعند ذلك تم إحضار الإمام نجم الدين الكبرا و ابنه السيد الفاضل تاج الدين و هما مكتوفي اليدين، فقتلا شهيدين[٣].

وبالتأمل في رواية النسوي هذه نجدها مناقضة لما سبق من ذكر الأحداث التي حصلت في خوارزم و مشاركة نجم الدين الكبرا فيها واستشهاده هناك[٤].

---

(١) النسوي، المصدر السابق ص١٧٢، النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٣٣١ .

(٢) ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٢؛ كي لسترنج، المرجع السابق، ص ٤٩١؛ الصياد، المرجع السابق، ص ١٢٨؛ الباز العريني، المرجع السابق، ص ١٣١؛ عفاف صبرة، المرجع السابق، ص١٩٩.

(٣) انظر المصدر السابق، ص:١١٥ .

(٤) انظر ص: ٥٣ من البحث.

والنسوي في روايته هذه شذ عن بقية المصادر التي ذكرت موقف نجم الدين الكبرا في خوارزم و لم تذكر عن موقفه في نسا شيئاً.

ومما يؤكد شذوذ هذا الرواية وضعفها أن النسوي لم يكن شاهداً للأحداث ولم يلتحق بخدمة الأسرة الخوارزمية إلا بعد عوذة جلال الدين من الهند[١].

ولكن ظلال هذه الرواية تؤكد الدور الذي قام به نجم الدين الكبرا في الجهاد ضد المغول حتى تنازعه أهل البلدان.

وممن قتل على يد المغول عند هجومهم على البلاد الإسلامية، مسند خراسان حافظ الدين أبو روح عبد المعز بن محمد بن أبي الفضل الساعدي الخراساني الهروي (٥٢٢-٦١٨هـ)، حيث قتله المغول في ربيع الأول سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بهراة من خراسان[٢].

وكذلك عبد الرحيم بن النفيس بن هبة الله السلمي، الحديثي ثم البغدادي أبو نصر الفقيه المحدث. ولد ببغداد سنة ٥٧٠هـ.

قرأ القرآن وسمع الحديث وطلب بنفسه، وأمعن وبالغ وارتحل في الطلب إلى الشام والجزيرة، وديار مصر والعراق وخراسان، وما وراء النهر، وخوارزم.

وكان حاد الخاطر، جيد القريحة، فقيها متأدبا شاعرا، قتل شهيدا في فتنة التتار بخراسان رحمه الله تعالى وذلك سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[٣].

وعلى كل حال فإننا نلمس بوضوح قلة العلماء الذين لهم مواقف مشرقة في هذه الفترة مما أضعف دور أهل المشرق في الصمود والجهاد، ولعل من أسباب ذلك إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه الاضطراب الذي حدث في الدولة الخوارزمية،

---

(١) أنظر في ذلك : سعد حذيفة ، أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي ص:٢٢٦.

(٢) الذهبي، السير،جـ٢٢، ص١١٤-١١٥؛ الإعلام بوفيات الأعلام، صـ٢٥٤؛ العبر، جـ٥ ص٧٤؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥ ص٨١.

(٣) المنذري، المصدر السابق، جـ٣ ص٦٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة٦٢، ص٣٦٤-٣٦٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، ص١٤٨؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، جـ٢، ص١٢٨؛ ابن العماد،المصدر السابق، جـ٥ ص٨٠.

ومفاجأة المغول لهم بالغزو، وقد كـان لانتشـار الاعـتزال والتصـوف بيـن علمـاء الدولة الخوارزمية وكذا التعصب المذهبي أثـر سـلبي علـى مواقفهـم مـن الجهـاد والصمود.

المبحث الثاني :

دور العلماء في فض الخلافات السياسية بين الحكام المسلمين .

لقد كانت مواقف العلماء في ميادين متعددة اتخذت وسائل كثيرة محاولة منهم للسيطرة على الوضع ولمّ الشتات وإعادة الوحدةإلى الأمة لتقف أمام عدوها صفا واحداً، وإدراكا منهم لأهمية ذلك الأمر فكان منهم طائفة اهتمت بموضوع رأب الصدع وإصلاح ذات البين بين الحكام المسلمين ، فإن الخلافات و الفرقة شر يدمر مقدرات الأمة، و ينشر جوا من الرعب وعدم الإستقرار، فيكون معول هدم يقوض بنيان الأمة. وقد كانت الخلافات -مع الأسف- تعصف بالمسلمين عند الإجتياح المغولي المدمر و بشكل واضح لكل دارس لهذه الفترة[(١)].

و لخطر الخلاف فقد حذّر الله تعالى منه و بين أنه من أعظم أسباب الهزيمة فقال سبحانه :﴿ **و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم** ﴾[(٢)]. فنهى عن التنازع لكي لا يكون هناك خلاف يؤدي إلى التخاذل و الفشل[(٣)]، و النزاع والخلاف ينشأ عن تعدد جهات القيادة والتوجيه وحين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء و الأفكار[(٤)].

و نتيجة لإدراك العلماء لهذا الخطر الناجم عن الخلاف و الفرقة، فقد قاموا بدور عظيم في فض الخلافات السياسية بين حكام المسلمين و محاولة الإصلاح و التوفيق بينهم ، ليكونوا صفا واحدا يجابهوا أعداء المسلمين يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[(٥)].فوحدة الصف من عوامل النجاح والفوز

---

(١) أنظر على سبيل المثال : علي عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤٧-١٧٣. حيث قام المؤلف بعرض الخلافات بين الأيوبيين بشكل تفصيلي .

(٢) سورة الأنفال الآية :٤٦.

(٣)أنظر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم:ج٣،ص٣٣٠.

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج٣،ص١٥٢٨.

(٥) سورة الصف آية:٤.

والإنتصار على العدو،و قد نجحت بعض مساعي العلماء و أخفق كثير منها لشدة التهافت على الشهوات و الرياسات من قبل الحكام.

وعند تتبع هذه المواقف نجد شهاب الدين السهروردي[١](المتوفى سنة ٦٣٠هـ) قد قام بمحاولة مهمة في الإصلاح حيث حاول الإصلاح بين خوارزم شاه، و الخليفة العباسي، حيث وصل خوارزم شاه إلى همذان قاصدا بغداد ليتملكها و يقيم خليفة علوياً بدلا من الخليفة العباسي .

وقد توجه شهاب الدين السهروردي إلى خوارزم شاه و ذكر فضل بني العباس، و أطنب في وصف الخليفة العباسي، بقصد تقريب القلوب، ولكن خوارزم شاه رد عليه قائلاً: "هذا الذي تصفه ما هو في بغداد، بل أنا أجيء وأقيم خليفة هكذا"، و رده بلا جواب[٢].

ورغم فشل محاولة السهروردي الإصلاحية بين السلطان الخوارزمي و الخليفة العباسي. إلا أنها تدل على جهود العلماء في الدعوة إلى إصلاح ذات البين وصيانة الأمة من الفساد، و مهما يكن من شيء فإن شهاب الدين السهروردي قد بذل جهده في الإصلاح و قام بالمحاولة ، و لكن تعنت خوارزم شاه منع من إتمام الصلح والإتفاق ، فقد كان مصراً على دخول بغداد لولا لطف الله حيث نزل على جيش خوارزم شاه – الذي كان مقيما بهمذان- ثلج عظيم سنة (٦١٤ هـ)، أهلك الخيل، وقلت الأقوات على خوارزم شاه وجيشه فاضطر إلى الرجوع[٣].

---

(١) هو: شهاب الدين عمر بن محمد البكري البغدادي الصوفي، توفي سنة ٦٣٠هـ. أنظر ترجمته في المصادر التالية: ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج٩، ص١٤٥؛ السبكي، المصدر السابق، ج٨ ص٣٣٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج:٢،ص:٢٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ج١٣،ص١٤٩؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢،ص٢٣٢-٢٣٤. وللمزيد من المعلومات راجع أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص:٢٨٩.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣ ص١٦٠؛ أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٠١ .

(٣) الذهبي، العبر، ج٣ ص١٦٠؛ أبوشامة، المصدر السابق، ص ١٠١ .

و مما لا شك فيه أن الخلاف الذي وقع بين الدولة الخوارزمية و الخلافة العباسية من الأسباب التي أغرت المغول بالتوغل والإستيلاء على المشرق الإسلامي.

و نأتي الآن إلى عالم صرف أعواما من عمره، و قطع مسافات شاسعة متنقلاً بين الحكام المسلمين للإصلاح بينهم، و إنهاء خلافاتهم، وهو سفير الخلافة محي الدين يوسف بن الجوزي(٥٨٠-٦٥٦ هـ) الذي ينتمي إلى أسرة عريقة معروفة بالعلم، فقد ولي الحسبة في بغداد، ثم ولي الوعظ و الإفتاء و التدريس، ثم أستاذ دار الإفتاء، ثم أستاذ دار الخلافة[١].

و في سبيل توحيد الصف الإسلامي و إنهاء الخلافات توجه محي الدين بن الجوزي مرسلاً من الخليفة العباسي إلى جلال الدين منكبرتي و هو على خلاط[٢]، فلما قدم عليه وجد المصحف بين يديه و هو يقرأ فيه و يبكي[٣].

و لكن هذا المنظر لم يخدع محي الدين فيرده عن قول الحق والصدع به، بل استغل ذلك الموقف ليوجه إليه هذا السؤال: تقرأ في المصحف وتبكي وأنت تفعل بالمسلمين ما تفعل، قد قتلت عشرين ألف مسلم وسبيت نسائهم وفعلت وفعلت؟

فما كان من جلال الدين إلا أن اعتذر بكثرة جيشه وعدم سيطرته عليهم، وتنصل من اللوم وألقى به على أتباعه[٤].

ولا يهمنا موقف جلال الدين بقدر ما يهمنا الدور الذي قام به محي الدين ابن الجوزي في فض الخلافات بين حكام المسلمين، وهو دور لا تنقصه الصراحة والوضوح والجرأة كما رأينا وذلك في سبيل الوصول إلى حل يخرج الأمة

---

(١) انظر في ترجمته ابن رجب ، ذيل طبقات الحنابلة ، ج٢ ص٢٥٧-٢٦١.

(٢) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة و هي قصبة أرمينية الوسط. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج٢ ص٢٨٠ .

(٣) أنظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ص٦٧٠.

(٤) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٦٧٠ .

الإسلامية من دوامة الخلافات والنزاعات لتقف بالتالي صفا واحدا أمام عدوها من المغول والذي أخذ يهاجم أطرافها ويستولي عليها بلدا تلو بلد.

ومهما يكن من أمر فعندما يئس محي الدين بن الجوزي من جانب جلال الدين توجه إلى الملك المعظم[١] والذي عقد حلفا مع جلال الدين الخوارزمي، ونجد أن إبن الجوزي يوجه إليه النصح قائلا: "المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي- يعني جلال الدين -إلى إخوتك ونصلح بينكم"[٢].

ومع أن محاولته هذه لم يكتب لها النجاح رغم حرصه ومساعيه في سبيل ذلك إلا أن إخفاقه لم يدفعه إلى اليأس من الإصلاح، مع زيادة تردي الأوضاع في البلاد الإسلامية سوءاً.

فنجده مرة أخرى يؤدي مهمة في المصالحة بين حكام المسلمين و فض النزاعات بينهم، حيث بعثه الخليفة المستنصر[٣] ليصلح بين الملك الكامل وصاحب الموصل و إربل[٤].

---

(١) هو الملك الأيوبي عيسى بن العادل وكان فقيها فاضلا، ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفي سنة ٦٢٤هـ.انظر في ترجمة المصادر التالية :

سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٦٤٤؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص٩٩؛ تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٣ ص١٨٥-١٨٩؛ العبر، ج٣ ص١٩٤؛ القرشي، الجواهر المضية، ج٢ ص٦٨٢؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٥.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٣ ص١٣.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن أحمد الخليفة العباسي الملقب بالمستنصر بويع بالخلافة يوم وفاة والده الظاهر سنة ٦٢٣هـ، وتوفي سنة٦٣٩ هـ. انظر إبن دقماق، الجوهر الثمين، ص١٧٤. وانظر كذلك في ترجمته: سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ص٧٣٩؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص١١٠؛ القرماني، أخبار الدول ص١٨٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٢٤.

(٤) إربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عظيم، وهي على تل عال، وهي تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص١٣٧-١٣٨؛ أبي الفضائل، التاريخ المنصوري، ص٢٤٢؛ وصاحب الموصل وإربل هو بدر الدين لؤلؤ.

وقد وصل الشيخ محي الدين بن الجوزي إلى الملك الكامل[١] سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وأخذ في إزالة الخلاف، والإصلاح بينهم، وتكللت جهوده هذه المرة بالنجاح حيث تمت المصالحة وأنهي الخلاف[٢].

وهذه النتيجة تعتبر تقدما إيجابيا في طريق الوفاق، وتسديد خلل الوحدة الإسلامية.

ومن ثم يسير في هذا الطريق بعزم مؤكد و خطى ثابتة، مؤمنا بدوره ورسالته. ففي عام٦٣٤هـ/١٢٣٦م وقع خلاف بين ملوك بني أيوب بالديار المصرية والممالك الشامية[٣]، فأصبحت أطماع كل منهم في أملاك الآخر مدعاة للقلق والإضطراب في وقت كان يجب فيه عليهم توحيد القوى، إضافة إلى وجوب الاستعداد المبكر و بناء جبهة إسلامية موحدة، لاسيما و أن النذر بخطر التتار بدأت تظهر للعيان[٤]، و على إثر ذلك الخلاف الذي نشأ بين ملوك بني أيوب بعث الخليفة العباسي المستنصر محي الدين بن الجوزي ليصلح بينهم[٥].

و إن اختيار الخليفة العباسي لابن الجوزي ما هو إلا نتيجة للصفات التي يتمتع بها، و كذلك اهتمامه بشؤون المسلمين لإصلاحها يضاف إلى ذلك التقدير والإحترام الذي يحظى به عند المسلمين عامة لثقتهم بإخلاصه .

و عند قيام ابن الجوزي بمهمة التوفيق و الإصلاح بين حكام بني أيوب

---

(١) الملك الكامل: هو محمد بن أبي بكر العادل الأيوبي تسلطن سنة٦١٥هـ وتوفي سنة ٦٣٥هـ، انظر: إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ ص٧٩؛ الصفدي، المصدر السابق، ج١ ص١٩٣؛ اليافعي، المصدر السابق، ج٤ ص٩٠-٩٢؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص١٠٥؛ القرماني، المصدر السابق، ص١٩٥؛ الملطي، نزهة الأساطين، ص٥٨-٥٩؛ ابن العميد، المصدر السابق،ص٢٢.

(٢) انظر أبي الفضائل، المصدر السابق، ص٢٤٢.

(٣) القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج٢ ص٧٩.

(٤) علي عودة، المرجع السابق، ص١٢٦.

(٥) القلقشندي، المصدر السابق، ج٢ ص٧٩.

توفي الأشرف صاحب دمشق[١]، و تملكها بعده أخوه الصالح إسماعيل،و عارضه في ذلك الملك الكامل الذي توجه بجيشه إلى دمشق و حاصرها عام٦٣٥هـ/١٢٣٧م، ولما اشتد الحصار على الملك الصالح من الكامل أذعن بتسليم دمشق للكامل فعوضه الكامل عنها بتسليمه بعلبك و البقاع، و بهذا تم الصلح بين الأخوين، و كان القائم بذلك الصلح و المتوسط بينهما في تقرير قواعد الصلح محي الدين ابن الجوزي[٢].

و بعد وفاة الملك الكامل وقع نزاع شديد بين ولديه الملك الصالح أيوب، و المالك العادل[٣]، فأخذ محي الدين ابن الجوزي في الإصلاح بين الأخوين عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، و معه في هذه المرة ولده شرف الدين[٤]، وكان شابا فاضلا ذكيا وهو الذي قام بالتردد في الصلح بين الأخوين، فيذهب إلى مصر ليجتمع بالملك العادل، ثم يعود إلى الملك الصالح، ووالده مقيم بنابلس عند الملك الصالح.

وتقارب ما بين الأخوين وأوشك الصلح أن ينتظم بينهما لولا ما قام به عمهما الملك الصالح إسماعيل من الإستيلاء على دمشق[٥]، وقام الناصر داود باعتقال الصالح أيوب بقلعة الكرك[٦]، وبهذا ذهبت جهود محي الدين بن الجوزي وولده هدراً.

---

(١) القلقشندي، المصدر السابق، ج٢ ص٨٠ .

(٢) انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥ص٢١٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥ ص ٢١٦ ،

والصالح نجم الدين هو : أيوب بن محمد بن أبي بكر ، تسلطن سنة ٦٣٩هـ و توفي سنة ٦٤٧هـ .

أنظر بن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣ ص٢٢٧؛ الملطي، نزهة الأساطين، ص٦١.

(٤) هو : عبد الله بن يوسف محي الدين ، من أسرة شهيرة بالعلم. و توفي عند وصول التتار بغداد كما سيرد معنا و قد كان محتسبا على بغداد ، وصف بأنه كان من نبلاء الرجال، فصيحا ، كثير التلاوة. أنظر ترجمته عند الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٢٣/ ص٣٧٤

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥ ص٢١٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٢٩٠.

ونلاحظ هنا وجود إبن محي الدين وهو شرف الدين يساعد والده في هذا الأمر الشاق، وكأنه باستصحابه لولده يريد أن يربي الجيل الذي بعده من أبنائه وتلامذته على أن يقوموا بدورهم يحدوهم الأمل في تحقيق ما عجز عنه الجيل الذي سبق، فلعل الحال أن يتغير، وأن تحل الوحدة والوفاق محل الخلاف والشقاق .

وبالرغم مما حدث فإننا نجد محي الدين بن الجوزي لا يكل ولا يمل رغم الصعاب والعقبات التي واجهته، فبعد استيلاء الصالح إسماعيل على دمشق وبالتالي زيادة نفوذه، يقع الخلاف بينه وبين الملك العادل وكذلك الناصر داود[١].

وهنا يتوجه ابن الجوزي إلى دمشق ويحاول الإصلاح، ولكن لم ينتظم في ذلك الصلح أمر، لأن الملك الناصر لم يكن يرضيه إلا أن ترد إليه دمشق[٢]، ثم تغير مجرى الأحداث لصالح نجم الدين الصالح أيوب حيث أطلق سراحه وتربع على عرش مصر، فما كان من محي الدين بن الجوزي إلا أن يعود إلى الديار المصرية ليوفق الأمر بين الملوك[٣].

ومهما يكن من أمر فإن الصراع استمر بين ملوك الأيوبيين ليسوق دولة بني أيوب إلى نهايتها .

أما الإمام محي الدين بن الجوزي فقد بذل ما في وسعه، واستفرغ طاقته في الإصلاح والتوفيق ولكن أمر الله كان مفعولا و قدره نافذاً.

وبالتالي يعود ابن الجوزي إلى بغداد بعد أن أدى الأمانة ونصح الأمة ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ومهما يكن فإن ابن الجوزي وإن لم يصل إلى النتائج المرجوة إلا أنه استفرغ الجهد، وماذا عسى ابن الجوزي أن يصنع إذا كان حكام المسلمين

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥ ص٢٤٦.

(٢) انظر المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٢٩٢؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج٥ص٢٤٨.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥ص٢٦٥.

آنذاك قد جبلوا على النزاع وصار سمة لهم وبه يعرفون.

وعلى كل حال فقد ساهم العلماء في الإصلاح بين الحكام بقدر استطاعتهم ، سواء كان ذلك مبادرة منهم ، أو كان انتدابا من المسلمين كما حصل عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، عندما وقع نزاع بين صاحب حمص وصاحب حماه، فأرسل الحلبيون للتوفيق، بينهما الصاحب كمال الدين بن العديم الحلبي (٥٧٦-٦٦٦هـ)وهو أحد العلماء المشهورين ومن فقهاء الأحناف[١].

وقد قام ابن العديم بالدور المناط به فتوجه إلى الملك المظفر والملك المجاهد، فأبى كل واحد منهما أن يجيب صاحبه إلى مايريد .

وبالرغم من الدور الذي قام به العلماء في الإصلاح والتوفيق وفض النزاعات إلا أنه لاتكاد تهدأ فتنة إلا وتقوم أخرى في شتى الممالك الإسلامية، ففي عام (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) حاصر الكامل دمشق وجرت بين عسكر الكامل وعسكر الناصر داود وقعات وصف أبو شامة ضحاياها بقوله:" قتل فيها خلق كثير"[٢]. فأنفذ الناصر إلى عمه الكامل جماعة من الكبراء:

الدولعي، خطيب دمشق(توفي سنة ٦٣٥)[٣]،

---

(١) انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣ص٢٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧ ص٢٠٩؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١ ص٥١٠.

وابن العديم: هو كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم، ولد بحلب سنة ٥٨٦هـ، سمع الحديث وحدث بالكثير ببلاد متعددة، درس وأفتى وصنف، كان إماما عالما فاضلا، أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين، من بيت رئاسة وعلم، توفي سنة ٦٦٠هـ.

انظر في ترجمته: ياقوت الحموي، معجم الأدباء ،ج٤ ص٤٣٣؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١ ص٤٩٥؛ ابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٤٨ ؛ اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١٤٧؛ الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٤ ص٤٤٤ .

(٢) تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص١٥٥ .

(٣) الدولعي : هو جمال الدين محمد بن أبي الفضل خطيب دمشق واستمر في هذا المنصب مع التدريس إلى أن مات سنة ٦٣٥هـ. انظر في ترجمته: أبو شامة، المصدر السابق، ص١٦٦؛ الذهبي،

والقاضي شمس الدين الخويي[1] قاضي قضاة بالشام(٥٨٣-٦٣٧هـ)، والقاضي شمس الدين ابن الشيرازي الشافعي[2] (٥٤٩ - ٦٣٥هـ)، والشيخ جمال الدين الحصيري[3] (٥٤٦-٦٣٦هـ).

ومازال الأمر يتردد بينهم حتى كان إنتظام الصلح. وتم الإتفاق وزال النزاع، حيث تملك الكامل دمشق ورضي الناصر بالكرك ونابلس وبعض الفور والبلقاء[4].

وإذا تتبعنا الأحداث في بغداد مقر الخلافة، نجد أن هناك خلافا حصل وحركة تمرد وعصيان لدى بعض العساكر من المماليك، رغم وجود طلائع النذر بالغزو المغولي، ففي هذا الوقت العصيب خرج المماليك الظاهرية

= السير، ج٢٣ ص٢٤؛ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ ص١١١ - ١١٢؛ ابن شاكر الكبتي، فوات الوفيات، ج٧ ص٢٠١ .

(١) شمس الدين الخويي: هو أحمد بن خليل بن سعادة الشافعي قاضي القضاة بالشام، ولد سنة ٥٨٣هـ بخوى من أذربيجان وتوفي سنة ٦٣٧هـ بالشام، كان فقيها، إماما، مناضلا، أستاذا في الطب والحكمة، دينا كثير الصلاة والصيام، ذا همه عاليه حفظ القرآن على كبر. انظر في ترجمته : سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٧٣٠ ؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٨؛ السبكي، المصدر السابق، ج٨ ص١٦؛ إبن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ ص٨٧-٨٩ ؛ إبن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج٢ ص١٧١.

(٢) شمس الدين الشيرازي: هو محمد بن هبة الله الشيرازي ثم الدمشقي الشافعي/ ولد سنة ٥٤٩هـ وتوفي سنة ٦٣٥هـ، وكان دينا جليلا، قاضي الأحكام، عديم المحاباه، ساكنا وقورا،أمضى أكثر وقته في نشر العلم. انظر في ترجمته:

سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٧٠٩؛الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣ ص٣١ .

(٣) جمال الدين الحصيري: هو محمود بن أحمد بن عبد السيد البخاري، كان كثير الصدقة غزير الدمعة، ولد سنة ٥٤٦هـ، وتوفي سنة ٦٣٦هـ. انظر في ترجمته :

ابن خلكان، المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٨؛ القرشي، المصدر السابق، ج٢ ص٤٣١؛ ابن قطلوبغا، المصدر السابق، ص٩٦؛ اللكنوي، المصدر السابق، ص٢٠٥ .

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣ ص٢٨-٢٩.

والمستنصرية ومضوا إلى ظاهر البلد مظهرين العصيان لشرف الدين إقبال الشرابي[١]، وأقاموا هناك مظهرين للرحيل، وبقوا على ذلك أياما، عند ذلك خرج إليهم الشيخ السبتي الزاهد، وعرفهم ما في ذلك من الإثم ومخالفة الشرع. فاعتذروا وسألوه الشفاعة لهم، وأن يحضر لهم خاتم الأمان ليدخلوا البلد .

فتوجه الشيخ السبتي إلى الشرابي وبين له الأمر فتم إنهاء الخلاف، ورجعوا إلى بغداد ودخلوها، والشيخ راكب حماره بين أيديهم، وحضروا عند الشرابي معتذرين فقبل عذرهم[٢].

ولا يهمنا هنا أسباب الخلاف بقدر ما يهمنا بروز دور أهل العلم والفقه في المحافظة على وحدة الدولة وتنبيه الناس عموما، والعسكر خصوصا إلى حرمة الخروج عن طاعة ولي الأمر، لورود الأمر النبوي بالسمع والطاعة ما لم يكن كفرا بواحا .

وهنا نلاحظ أن هذا العالم لم يزل بمن شقوا عصا الطاعة حتى ردهم ردا جميلا إلى حظيرة الدولة والوحدة بعد أن بين لهم الحكم الشرعي في ذلك وأن الخروج على ولي الأمر إثم ومخالفة للشرع .

ورغم أن جهود العلماء مستمرة في الإصلاح والحفاظ على كيان الأمة ووحدتها، فإن الفتن بين حكام المسلمين مع الأسف مستمرة على أشدها، لتدق مسامير نعشهم .

فما أن حل عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حتى نشبت فتنة جديدة في بلاد الشام، بين أهل حلب الذين استولوا على حمص، وبين السلطان الصالح نجم الدين أيوب

---

(١)إقبال الشرابي: جمال الدولة شرف الدين أبو الفضائل الحبشي المستنصري الشرابي، كان مقدم جيوش العراق، فيه دين وخشوع، وله محاسن وجود، هزم التتار سنة ٦٤٣هـ. توفي سنة ٦٥٣هـ. أنظر الذهبي، السير، جـ٢٣، ص٣٧٠؛ تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٣، ص٢٨-٢٩ .

(٢) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٨٦-٨٧ .

والذي جهز جيشا من دمشق لمنع حمص[١].

وهذا يحدث والمغول يجوبون بلاد المشرق، ويعدون العدة لمواصلة مسيرهم نحو ما تبقى من بلاد المسلمين، فبدلا من توحيد الجهود والإستعداد المبكر، يحدث هذا النزاع وينشب هذا القتال.

و هنا انبرى عالم من علماء المسلمين و هو الفقيه المحدث نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسين البادرائي[٢] الشافعي(٥٩٤-٦٥٥هـ) و الذي قدم من بغداد موفدا من الخليفة المستعصم بالله[٣] ليصلح بين الحلبيين و السلطان ، فأصلح بين الفريقين، و رد كلا من الفئتين إلىمستقرها، و رحل العسكر عن حمص بعدما أوشك على أخذها، و جعل الله على يده الخير و التوفيق بينهم، فحقن بهذا دماءا أوشكت أن تذهب هدرا، بعد أن تهيأوا للقتال و استعدوا للمحاربة، فأخمد الله على يديه هذه الفتنة حيث قام بفض النزاع بينهم[٤].

و بالتالي تبدأ سلسلة من جهود هذا العالم في هذا الميدان المهم وهو فض الخلافات السياسية بين حكام المسلمين، ومحاولة توحيد الصف الإسلامي

---

(١) انظر سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٧٧٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ ص١٨٦؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٢ ص٢٣١؛ الطباخ، المرجع السابق، ج٢ ص٢١٨؛ الصدقي، تاريخ دول الإسلام، ج٢ ص٢٥١ .

(٢) البادرائي: نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن، ولد سنة ٥٩٤هـ و توفي ستة ٦٥٥هـ، حدث بحلب و دمشق و بغداد و مصر و ولي القضاء ببغداد على كره منه، عافاه الله من كائنة التتار فتوفي قبلها، كان فقيها عالما دينا متواضعا، دمث الأخلاق جليل القدر وافر الحرمة .

أنظر: اليافعي، جامع التواريخ، ق١٣٨ ب؛ السبكي، المصدر السابق، ج٨،ص١٥٩؛ الصفدي، المصدر السابق، ج١٧ ص٥٨٠؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠ ص١١٥؛ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ ص١٣٢؛ ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ ص٢٦٩.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) أنظر سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ص٧٧٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ ص١٨٦؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٢٣١.

لمقاومة الأخطار الخارجية المحدقة بالمسلمين آنذاك من طرفي البلاد، فكما أن المغول ضربوا بأطنابهم في المشرق الإسلامي، فإن بقايا الصليبيين ما تزال جذورها ضاربة بسواحل الشام مع محاولة الوثوب لو وجودوا إلى ذلك سبيلاً .

ومهما يكن من شيء فإن الفقيه البادرائي قام بدور آخر في محاولة الإصلاح بين الأيوبيين في الشام و المماليك في مصر. فقد نشب النزاع بينهم في ذات الوقت الذي أصبح المغول فيه يهددون البلدان الإسلامية بشكل أكبر من ذي قبل ففي عام ٦٥٠هـ، وصلت التتار إلى الجزيرة و ديار بكر و ميافارفين وإلى رأس العين و سروج و غيرها.[١] و في هذا الجو الحالك المدلهم بالظلام وقعت الفتنة بين الأيوبيين في الشام يتزعمهم الناصر يوسف وبين الملك المعز صاحب مصر، و حصلت مناوشات بين الطرفين و كان لها ضحايا. عندها قدم الشيخ نجم الدين البادرائي مبعوثا من الخليفة العباسي المستعصم بالله للإصلاح و التوفيق بينهم عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، و لكنه لم يستطع أن يصل إلى إقرار الصلح بين الطرفين إلا عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م[٢] و إن كانت بعض المصادر قد ذكرت حصول الإتفاق والصلح عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م.[٣]

وقد جلى هذه المسألة ابن أيبك المؤرخ عندما بين أن البادرائي قدم عام٦٥٠هـ/١٢٥٢م، وحاول الصلح ولكن لم يتم الصلح لأن الناصر اشترط أن تكون السكة والخطبة له بمصر، فامتنع المعز من ذلك. وقالت المماليك

---

(١) ابن أيبك الدواداردي، كنز الدرر، ج٨ ص٢٢.

(٢) انظر:ابن الغوطي، المصدر السابق، ص١٥٥؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨ ص٧٨٩؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧ص١٠؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٢ص٢٨٥؛ ابن كثير، المصدر السابق،ج١٣ ص١٩٦. و قد شذ ابن العميد فذكر أن الصلح وقع عام ٦٤٩هـ. انظر ابن العميد، المصدر السابق، ص٤٢. وكذلك بيبرس المنصوري حيث ذكر أن الصلح حصل عام ٦٤٨هـ. انظر بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص٣١.

(٣) انظر ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق،ج٢٠ ص٦٦؛ العيني، المصدر السابق، ج١ ص٦٩-٧٠؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص١١٩.

البحرية: "نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من أيدي الفرنج، ولا صلح بيننا إلا أن يكون لنا من غزة إلى العقبة".[١] وامتنع الناصر من قبول شرطهم، وبالتالي لم يتم الصلح ذلك العام وإنما تم في العام الذي يليه سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م.

وبعد أن ضرست الحرب الجانبين، ووصل الأمر إلى حد خطير بل وصل منتهى الخطورة عندما أقدم الجيش المصري على الإتصال بالفرنج وطلب منهم مساعدتهم ومساندتهم ضد الشاميين، ووعدوا الفرنج بأن يسلموا إليهم بيت المقدس[٢]، ولكن الله سلم ولطف فتمكن الشيخ نجم الدين البادرائي من فض النزاع والإصلاح بينهم.

وهنا نلاحظ الاستعداد عند بعض أطراف النزاع للإقدام على تسليم بيت المقدس للنصارى لولا تدخل علماء المسلمين وإنقاذ الموقف.

ومهما يكن من أمر فإن الفتنة وقعت ثانيا بين الملك المعز وبين الملك الناصر يوسف وذلك عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، ولكن نجم الدين البادرائي واصل جهوده في الإصلاح وإنهاء الخلافات مستعينا هذه المرة بجماعة من أعيان الفقهاء[٣]، وتقرر الصلح على أن يكون للمعز ما كان للصالح نجم الدين أيوب من الساحل بالشام مع ملك مصر، وتكون بلاد الشام للملك الناصر وحد ما بينهما بئر القاضي[٤]، واشترط على الملك الناصر أن لا يأوي عنده أحدا من البحرية.[٥]

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ ص١٩٦؛ العيني، المصدر السابق، ج١ ص٨٠-٨١ ؛ ابن أيبك، المصدر السابق، جـ٨، ص٢٢.

(٢) انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ ص١٩٦؛العينى، المصدر السابق، ج١، ص٨٠-٨١.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٢ ص٣٩٨.

(٤) بئر القاضي: من مراكز البريد بين مصر وغزة. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧ ص٣٧٨ .

(٥) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٢ ص٣٩٨؛ العيني، المصدر السابق، ج١ ص١٢٢؛ التكريتي،

ويضيف اليونيني أن الخليفة أرسل إلى الشيخ نجم الدين البادرائي وهو بدمشق يحثه على بذل الجهد في الإصلاح وأن يثني عزم الملك الناصر عن قصد مصر وأن يحث الملك الناصر والملك المعز صاحب مصر على الإتفاق على قتال التتار[١].

وقد بذل الشيخ نجم الدين البادرائي جهده في تحقيق تلك المهمة ونبّه كلا الطرفين إلى خطورة المغول ووجوب الإتفاق للوقوف أمامهم .

ونلاحظ أيضا أن هناك جمع من أهل العلم قد ساندوا الشيخ نجم الدين البادرائي في مهمته هذه، فقد استقبلوه وساندوه في القيام بالصلح، فقد تولى عقد الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري[٢]. فبرز في هذا تكاتف الجميع للوصول لحل لهذا النزاع، فتم بذلك الصلح .

وقد عاد بعد ذلك نجم الدين البادرئي إلى بغداد وندب إلى القضاء وهو مريض فاعتذر عن قبول القضاء، ولكن لم يقبل اعتذاره وألزم بـه، فمكث أياما يسيرة، وتوفي قبل دخول التتار إلى بغداد[٣].

وقد يقول قائل إن كلا من محي الدين بن الجوزي و نجم الدين البادرئي كانا مجرد رسولين أو سفيرين للخلافة العباسية وقد فعلا ما فعلا بناءا على طلب الخليفة.

ولكن يجب على صاحب هذا القول أن يتنبه إلى أمرين :

الأول: أن هذه الأعمال التي قاموا بها هي جهد لهم وعمل تحملوا هم مشاقه، فمن حقهم أن ينسب إليهم.

= الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص٣١٤.

(١) اليونيني، المصدر السابق، ج١ ص١٢ .

(٢) المقريزي ، المصدر السابق، ج١ ق٢ ص٣٩٨.و بدر الدين السنجاري: باشر القضاء بمصر مرارا، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٣هـ، كان جوادا كريما.

(ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ص٢٦٠.)

(٣) ابن الفوطي ، المصدر السابق، ص١٥٥، المقريزي، المقفى الكبير، ج٤ ص١١٣.

ثانيا: أنهم قاموا بهذا العمل عن قناعة منهم وإدراك كامل لتبعاتـه وأهميتـه، ومـن أجل هذا تحملوا مشـاق السـفر، وبخاصـة أن هـذا الجهـد استغرق سـنوات مـن عمرهم.

ومع هذا وذاك فإن الخلافة العباسية كانت قد دخلت منـذ زمـن فـي طـور من الضعف الشديد لا تملك معه الأمر والنهي على الممالك الإسـلامية، وبالتـالي فإن تصدي هؤلاء العلماء لقيامهم بهذا الدور كان نابعا من قناعتهم بأهمية ذلـك، وأنه واجب ملقى على عواتقهم، يجب أن يبذلوا وسعهم في القيام به.

وعلى كل حال فلا يغض من أهميـة الـدور الـذي قـاموا بـه فـي الإصـلاح والتوفيق بين حكام المسلمين وفض النزاعات كونه تكليفا من الخلافة. فقد قاموا بالأمانة التي أنيطت بهم ولم يخذلوا أمتهم بل سعوا بجهودهم للم شعثها وتوحيد جهودها، وتجنيبها حروباً استنزافية تستنزف طاقتهـا البشـرية ومواردهـا الماديـة وتهدرها في حروب داخلية ليس هناك مصلحة من ورائها بـل ينتـج عنهـا تصـدع الجبهة الإسلامية. وتكون بهذا هشة متخلخلة طعمة لكل طـامع، ولا تقـوى علـى الصمود أمام ذلك الخطر الذي اكتسح المشـرق الإسـلامي، وبـدأ فـي اسـتعداده لمواصلة عمله التدمـيري و الإسـتيلاء علـى البلـدان الإسـلامية الأخـرى. فكـانت المحاولات التي قام بها العلماء لتوحيد الصف هي الحـل الصحيـح لـو اسـتجيب لهم للتصدي لهذا الطوفان، ولقد استفرغوا جهدهم في هذا السبيل فنصحوا الأمة وأدوا الأمانة -رحمة الله عليهم أجمعين- .

المبحث الثالث

تحذير العلماء من خطر الغزو المغولي :

لقد قام علماء المسلمين وفقهاؤهم بواجبهم في التحذير من الخطر المغولي القادم وأعلنوها صيحة مدوية في مسامع الأمة الإسلامية ، تحذيرا وإنذارا من خطر المغول.

ولكن الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية جعلت الناس فئاتاً وأشتاتاً أمام هذه النذر والتحذيرات.

فمنهم من كان في سكرة الغفلة لا يأبه بتلك النذر ولا تلك التحذيرات، همه الإستماتة في سبيل الحياة والبقاء ولو كانت حياة ذل ومهانة ، ينهل من كأس الشهوات أقصى ما يستطيع .

ومنهم من سمع النداء والتحذير وأدرك فحواه ولكنه كان عاجزا كل العجز عن القيام بواجبه تشده ثقلة الحياة إلى الأرض.

والكل يصح عليه قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وتدل الأخبار على أن العلماء كانوا يتابعون منذ اللحظة الأولى أخبار الغزو، ويبدون الرأي وينصحون للحكام في اتخاذ القرار المناسب لدفع هذا الخطر وصده، فهاهو عالم خوارزم وفقيهها شهاب الدين الخيوقي[1] يبدي رأيه لخوارزم شاه، بأن تُرفع راية الجهاد، ويكون النفير عاماً،و أن يرسل إلى أطراف البلاد بهذا الأمر، وتُجمع العساكر، فإن حدثاً كهذا يجب على كافة المسلمين مد يد العون والمساعدة فيه، والجهاد في هذه الحالة يصبح واجبا بالمال والنفس، وأشار أيضا بالتمركز على ضفاف نهر سيحون، وذلك للمرابطة حتى يقدم العدو وقد أنهكه طول الطريق، وعساكر المسلمين مستريحون متهيئون للقتال، وبالتالي يتم الإجهاز على جيش المغول.

---

(١) سبقت ترجمته، ص: ٥١

ولكن السلطان محمد خوارزم شاه لم يعمل بمشورة هذا الفقيه، بل قام بتفريق عسكره على مختلف مدن الدولة الخوارزمية، مما سهل للمغول الإنسياب في البلدان الإسلامية وأخذ كل مدينة على حدة[١].

ومما لا شك فيه أن شهاب الدين الخيوقي قد اقترح الحل الصحيح لهذه الأزمة التي أحاطت بالدولة الخوارزمية ، فقد أوضح للسلطان محمد خوارزم شاه أن السبيل للخروج من هذه الأزمة هو الجهاد والمرابطة في سبيل الله، وإعلان النفير العام لعموم أفراد الأمة الإسلامية ، لكي تتجه الهمم والطاقات نحو هدف واحد هو مواجهة العدو، وبالتالي فتح باب التطوع للجهاد لكي يشارك فيه كل قادر غيور على دينه ، إضافة إلى ما أشار به من طلب النصرة من حكام المسلمين في الأطراف والمناطق المجاورة.

وعلى كل حال فإن عالم خوارزم وفقيهها الخيوقي قام بدوره في التحذير من الغزو المغولي عن طريق تحذير السلطان محمد خوارزم شاه.

و لكن سياسة الدولة الخوارزمية سارت في اتجاه مغاير لذلك التحذير، فقد أخذ محمد خوارزم شاه في التقهقر والفرار من منطقة إلى أخرى حتى وافاه أجله المحتوم .

وزاد الطين بلة ما فعلته تركان خاتون والدة السلطان من قتل ما يقارب عشرين ملكا من الملوك الذين كانوا في الأسر، ممن كان إبنها قد أخذ بلادهم وقام بأسرهم[٢]، وإن القضاء على هؤلاء الملوك والأمراء والأعيان جعل من المشرق الإسلامي ساحة مكشوفة أمام المغول، و أخلاها من القيادات التي توجه الأمة.

ولم يستفد جلال الدين منكبرتي – بعد توليه السلطنة مكان والده – من تجارب الماضي ، فبدل أن يوحد الصفوف ويجعل كل طاقته وهمه المرابطة

---

(١) انظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٦٢-٣٦٣؛ الأصبهاني، البستان الجامع ق١٨٠أ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٢ ص٣٨؛ المختار من تاريخ ابن الجزري،ص٩٥؛ ابن إيبك الدواداري، المصدر السابق، ص٢٣٩؛ عفاف صبرة، المرجع السابق، ص١٨٥ .

(٢) الذهبي، دول الإسلام ج٢ ص١١٩ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري، ص٩١.

في سبيل الله وتعزيز الجهاد ومواصلته ، وتحرير الأرض الإسلامية التي استولى عليها المغول ، نجده يشن الغارات على المناطق الإسلامية المجاورة، وما أعماله بخلاط إلا دليل على هذا الشأن، بل إن الفتن لتعصف به وبأهل بيته ، فيدخل في خلاف لاينتهي مع إخوته وآل بيته ، إضافة إلى ما وصفه به النسوي من الطغيان والكبرياء والخيلاء[1].

و قد استمر المغول في ملاحقة جلال الدين منكبرتي وهو ينتقل من مكان إلى آخر، حتى كانت نهايته على يد رجل تركماني في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م.

وبوفاة جلال الدين انتهت الدولة الخوارزمية[2]،ولم تستفد هذه الدولة من تحذير ولارأي أهل العلم .

وإذا ما نظرنا إلى العلماء في بقية أرجاء العالم الإسلامي نجدهم قد نبهوا المسلمين إلى خطورة الهجمات المغولية وضرورة التصدي لها وأخذ الأهبة والإستعداد للمواجهة.

وفي مقدمة أولئك العلماء الشيخ العلامة عز الدين علي ابن أبي الكرم المعروف بابن الأثير[3]، والذي عاصر الهجمات المغولية الأولى في عهد جنكيز خان وقام برصد تحركات الجيوش المغولية في البلدان الإسلامية ، وتتبع

---

(١) انظر، مسيرة جلال الدين ، ص٣٨٤-٢٨٦.

(٢) انظر النسوي ، المصدر السابق، ص٣٨٢؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٧٧؛ سعد حذيفة، أوضاع الدرولة الإسلامية في المشرق الإسلامي ص٣٥٤-٣٦١ .

(٣) هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، العلامة عز الدين أبو الحسن الشيباني، الجزري، المؤرخ، الحافظ، المعروف بابن الأثير، ولد سنة ٥٥٥هـ، إشتغل وسمع في بلاد متعددة، وكان إماما نسابه، مؤرخا. صنف التاريخ المشهور بالكامل واختصر الأنساب لأبي سعد السمعاني، وصنف كتابا حافلا في معرفة الصحابة وسماه أسد الغابة في معرفة الصحابة. وكان بيته بالموصل مجمع الفضلاء وهو صاحب فضائل وتواضع وكرم أخلاق، توفي سنة ٦٣٠هـ.

انظر ترجمته في: ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣ ص١٣٣؛ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ ص١٠١-١٠٢؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٢٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ ص١٣٩.

أخبارهم، وأودع ذلك كله في كتابه الكبير الموسوم بالكامل في التاريخ، وهو بهذا العمل قام بنقل صورة ما يجري من أحداث في المشرق الإسلامي، مع التنبيه إلى مواطن الخلل والإنحراف وعوامل الفساد التي نخرت في جسم الأمة الإسلامية.

فعلى سبيل المثال عند حديثه عن صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان[١] قال : " فلم يخرج إليهم ، ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق ، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب، وحمل الجميع إليهم "[٢].

وفي موضع آخر يقول: " وكانت زوجة أوزبك هي الحاكمة في بلاد زوجها ، وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب"[٣].

وبعد أن ذكر ما وقع للمسلمين من ذل وهوان عقب على ذلك بقوله: "فكنا كلما سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى ، نحن والمسلمون ، في أن ييسر للإسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ، ويأخذ بثأرهم ، فإن أوزبك صاحب أذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه، لا يفيق من سكره ، وإن أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض . وهذا ما لم يسمع بأن أحدا من الملوك فعله، لا يهتدي لمصلحة ، ولا يغضب لنفسه بحيث أن بلاده مأخوذة ، وعساكره طماعة، ورعيته قد قهرها"[٤].

---

(١) هو مظفر الدين أوزبك بن محمد بهلوان بن شمس الدين ايلدكز حكم أذربيجان في سنة ٦٠٧هـ-٦٢٢هـ (١٢١٠م-١٢٢٥م) ، حيث استولى جلال الدين خوارزم شاه على أذربيجان سنة ٦٢٢هـ .وبذلك انقرضت أسرة ايلدكز : انظر ستانلي لين بول ، الدول الإسلامية القسم الأول ص٣٦٦ .

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٧٤.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٤٣٣.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ ص٤٣٥.

وعند حديثه عن أرزن الروم[1] نجد قوله: " إن صاحبها قد لبس خلعه ملك الكرج ، ورفع على رأسه علما في أعلاه صليب ، وتنصر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج"[2].

وقد قام بالتحذير من السياسة التي اتبعها حكام المسلمين في ذلك العصر حيث يقول:" فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ،ولا في نصرة الدين ،بل كل منهم مقبل على هواه ولعبه وظلم رعيته ،وهذا أخوف عندي من العدو،قال الله تعالى:﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾"[3].

وبعد اجتياح المغول للمشرق الإسلامي يقول بكل حسرة و ألم :" ولم يمنعهم أحد، ولا وقف في وجوههم واقف ، وملوك الإسلام منجحرون في الأثقاب "[4].

وقد أبان ابن الأثير بشكل واضح إنهيار الروح المعنوية عند المسلمين في ذلك العصر فقال في حوادث سنة ٦٢٨هـ : " ولقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها ، من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه في نفوس الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني أن إنسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتري فأحضر سيفا وقتله به "[5].

---

(١) أرزن الروم: بلدة من بلاد أرمينية، أهلها أرمن، ولها سلطان مستقل بها مقيم فيها، وإحسان صاحبها إلى رعيته بالعدل فيهم ظاهر، إلا أن الفسق وشرب الخمور وارتكاب المحظور فيها شائع ولاينكره منكر، ولايستوحش منه مبصر. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ١ ص١٥٠).

(٢) ابن الأثير المصدر السابق ، ج١٢ ص٤٥١.

(٣) ابن الأثير المصدر السابق ، ج١٢ ص٤٩٧. والآية من سورة الأنفال رقم ٢٥.

(٤،٥) ابن الأثير المصدر السابق ، ج١٢ ص٥٠٠-٥٠٢ .

ويتابع ابن الأثير تصويره للخور والضعف الذي أصاب الأمــة ، معتمـدا فـي ذلـك على شهود العيان ، فينقل عن أحدهم قوله: " كنت أنا ومعـي سبعة عشر رجـلا في طريق فجاءنا فارس من التتر ، وقال لنا[١]: حتى يكتف بعضنا بعضـا ، فشـرع أصحابي يفعلون ما أمرهم ، فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا: نخاف. فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا، فوالله مـا جسر أحد أن يفعل ، فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا"[٢].

لقد أدرك إبن الأثيرعلة الأمة الإسلامية الأساسية ، وهي حـب الدنيـا وكراهـة الموت، والتخاذل عن الجهاد ، حكاما و أفرادا.

وقـد كـان شـديد التتبع لأحـداث الغـزو المغولـي و تسـطيرها فـي سـفره الضخم،الكامل في التاريخ، وبذلك ينقل صورة ما يجري إلى بقيـة أرجـاء العـالم الإسلامي، وقد تم تداول الكتاب ، بما فيه من إنذار وتحذير.

ومما يدل على انتشار كتاب ابن الأثير، بما فيه من معلومات دقيقة عن الغـزو المغولي ، قول النسوي:" وجدته لم يفته من معظمات الأمور جليل، ولـم يتجـاوز الصحة إلا قليل "[٣]. ثم أعقب ذلك بقوله: "لله در مقيم بديار الشام، دعته همته إلى ضبط ما حدث من الوقائع بأعالي بلاد الصين وأعماق ديار الهنـد"[٤]. وعلـى هذا فإن ابن الأثير بكتاباته التاريخية كان نذيرا للأمة الإسلامية جمعـاء، فقدكـان يرصد الأحـداث ويدونهـا، وفـي نفسـه لوعـة الحـزن والأسـى لمـا يحـل بالعـالم الإسلامي .

فكان – رحمة الله عليه – يتابع سير المعارك ليرصد أخبار هؤلاء الغزاة ليعتبر بذلك المسلمون في العراق والشام ومصر وغيرها من بلاد المسلمين .

---

(١) هكذا النص في ابن الأثير، وربما حصل فيه تصحيف والمعنى: أمرنا أن يكتف بعضنا بعضا.

(٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج١٢ ص٥٠١ .

(٣) سيرة جلال الدين، ص٣٤ .

(٤) النسوي، المصدر السابق ، ص٣٥ .

فنجده بعد أن نقل في تاريخه أحداث استيلاء المغول على بخارى ،ووصفه بشدة ما قاسى أهلها منهم يقول: " هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارى وأسروه معهم إلى سمرقند ثم نجا منهم و وصل إلينا "[١].

وفي هذا دليلٌ على دقة معلومات ابن الأثير حيث سجل أقوال شهود العيان، كما يدل على اهتمامه البالغ بالأحداث التي تعصف بالمشرق الإسلامي وقد لجأ إلى المشافهة للتوثيق والإستدلال على مواطن الخلل والثغرات التي أصيب المسلمون من قبلها.

وإذا ما نظرنا إلى الخلافة العباسية في العراق فإننا نجد خطباء مساجد بغداد قد قاموا بدورهم في التحذير من المغول وخطرهم ، حيث حثوا الناس على الجهاد كما ذكر ذلك ابن الفوطي ، و رشيد الدين الهمذاني[٢].

وإضافة إلى ذلك فقد خرجت فتاوي للفقهاء بتقديم الجهاد على فريضة الحج ، وأن الجهاد في تلك الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية أثناء الغزو المغولي أولى من الحج إلى بيت الله .

وقام الفقهاء بحث الناس في فتاويهم تلك بالتدرب على رمي السهام وتعلم قواعد استعمال السلاح[٣].

وكان لهذه الفتاوى صدىً قوياً في بعض بلدان العالم الإسلامي ، فلم يخرج الحجاج من بغداد عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[٤]. وذلك من أثر فتوى الفقهاء السابقة ، وتحذيرهم للأمة الإسلامية من خطر المغول الذي يتربص بهم .

و بهذا يتبين لنا دور العلماء في تحذير الأمة، فقد رأينا تنبيههم للحكام ونصحهم لهم كما فعل شهاب الدين الخيوقي ، ثم هناك منهم من خطب في

---

(١) ابن الأثير ، المصدر السابق، ج١٢ ص٣٧٠ .

(٢) انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة ص٥٩، رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ ق٢ ص١٩١-١٩٢.

(٣) انظر ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٥٤، رشيد الدين، المرجع السابق، ق٢ ص١٩١.

(٤) انظر ابن الفوطي، المصدر السابق، ص٦٤.

الناس وحذرهم كما فعل خطباء بغداد ، بالإضافة إلى من حذّر عن طريق التـأليف والكتابة كما فعل ابن الأثير . وكذلـك الفتـاوي التـي أصدرهـا العلمـاء والفقهـاء ينبهون فيها الأمة إلى ضرورة الجهـاد وأن ذلـك أولـى مـن الحـج ، مـع دعوتهـم الناس للتدرب على استعمال السلاح .

و هكذا كان أثر العلماء ودورهم في التحذير من هذا الخطـر الـذي أخـذ يجتاح الأمة . كل حسب الوسيلة التي استطاع من خلالها القيام بواجب التحذيـر و الانذار.

المبحث الرابع

آثار جهود العلماء في سير المعارك

رأينا فيما مضى ما قام به العلماء والفقهاء المسلمون من جهد في التحذير من الخطر الداهم للمغول، وكذلك رأينا ما بذلوه من جهود مضنية من فض النزاعات والخلافات السياسية بين الحكام المسلمين. وأيضا رأينا صمودهم أمام موجة الإجتياح المغولي ومحاولة رفع معنويات الأمة .

ونتلمس الآن آثار جهودهم في سير المعارك التي نشبت بين المسلمين والمغول في المشرق الإسلامي .

فقد أورد ابن الأثير[١] أحداث معركة ضارية عند همذان[٢]. كان لأحد الفقهاء دور كبير في تهيئة الناس للجهاد وحثهم عليه ، وبث روح التضحية والفداء فيهم .

فقد ذكر أنه في عام ٦١٧ هـ/١٢٢٠م عاد التتار إلى همذان، بعد أن مروا بها قبل ذلك، وهم يلاحقون خوارزم شاه، ووضعوا لهم شحنة[٣] في البلد، وأخذوا منهم مالا، وثيابا، فلما لم يظفروا بخوارزم شاه، رجعوا على همذان، فطلبوا من أهلها المال والعتاد، وكانوا قد استنفذوا ما معهم في المرة الأولى، فاجتمع أهل البلد للتشاور في أمرهم عند رئيسهم. وأخذ الجميع في تداول الرأي والتشاور فيما عساهم يفعلون، فكان قول أهل همذان: إن هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم، و قد هلكنا من أخذهم أموالنا، و ما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان.

أما رئيسهم فكان رأيه مصانعت المغول بالأموال لضعفهم، و عدم قدرتهم على مواجهة المغول .

---

(١) الكامل في التاريخ، ج ١٢ص٣٨٠.

(٢) قال عنها الذهبي : أنها دار السنة . انظر الذهبي ، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق قاسم علي سعد ص١٩٦.

(٣) الشحنة: صاحب الشحنة هو متولي رئاسة الشرطة ويقال للوظيفة الشحنة أو الشحنكية. (أنظر ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١ ص٧ حاشية٥) والمراد هنا مجموعة من العسكر.

و لم يقبل أهل البلد رأي رئيسهم، و كان بحضرتهم أحد الفقهاء فقام إلى جمع كلمة المسلمين، بعد اختلاف الآراء، و حرضهم على جهاد الكفار، و أشار عليهم بإخراج شحنة التتار من البلد و الامتناع به و التحصن به، و قتال التتار إن قدموا لأخذ البلد.

و نفذ أهالي البلد ما أشار به عليهم هذا الفقيه، من طرد الشحنة وإخراجهم من البلد فما كان من التتار إلا أن تقدموا إليهم و أحكموا حصار البلد، و ساند التتار في حصارهم قلة الأقوات بل تعذرها، لخراب البلاد من حولهم، و مقتل الكثير من أهلها وهروب من سلم من القتل، عند ذلك خرج أهل همذان، و الفقيه في أوائلهم، و قتلوا من التتار خلقا كثيرا، وجرح الفقيه عدة جراحات، ثم انفصل القتال ذلك اليوم.

و في اليوم الثاني خرجوا للقتال، فاقتتلوا أشد من القتال الأول، و قتل من التتار أشد من الأول، و جرح الفقيه أيضا عدة جراحات، و هو صابر.

و في اليوم الثالث، أرادوا الخروج للقتال فلم يطق الفقيه الركوب من كثرة جراحاته. و بحثوا عن الرئيس فلم يجدوه، لأنه هرب من البلد إلى إحدى القلاع الحصينة عبر سرداب صنعه إلى ظاهر البلد. و بقي الناس حيارى لا يدرون ما يصنعون، إلا أنهم اتفقوا على القتال حتى يموتوا، فأقاموا في البلد و لم يخرجوا منه.

و في نفس الوقت عزم التتار على الرحيل لكثرة من قتل منهم، و لكن عندما لم يخرج إليهم أحد من البلد، استدلوا بذلك على ضعفهم ، فقصدوهم عازمين على استئصالهم، ودخلوا البلد بالسيف، و قاتلهم الناس في الدروب، و لشدة الزحام بطل السلاح فاستخدموا السكاكين، و قتل من الفريقين ما لا يحصى. ثم استظهر التتار عليهم، وألقوا النار في البلد فأحرقوها(١).

من خلال أحداث هذه الوقائع، نرى بوضوح دور فقيه همذان في تهيئة الناس أولا للجهاد، ثم خروجه بنفسه إلى القتال و مشاركته في ميدان المعركة وصبره على جراحه، و خروجه لليوم الثاني و هو مصاب ليرفع من معنويات الأهالي،و بالتالي

---

(١) أنظر في سير أحداث هذه المعركة : ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ص٣٨٠-٣٨١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام الطبقة ٦٢ص٤٣-٤٢٠٤؛ المختار من تاريخ ابن الجزري، ص١٠٢-١٠٣، السير، ج٢٢ص٢٣٨.

يواصلون القتال ضد المغول .

و مع عجزه عن الركوب لكثرة الجراح التي أصابته، و كذلك تخاذل رئيس البلدعن الاستمرار في الجهاد، و هروبه، فإن ذلك لم يفت في عضد الأهالي، و ما زالت روح الجهاد تسري فيهم، و هذا يرجع إلى مواصلة الفقيه - بعد إصابته بالجراح - للنصح و الحث على الجهاد، و وصايته لأهل البلد أن يواصلوا الجهاد، و الدفاع عن بلدهم.

و بالفعل، فقد واصل أهل همذان الجهاد حتى آخر رمق فيهم.

و يصف المؤرخون، ثبات و صمود أهل همذان بأنهم صبروا صبر الكرام على الموت، و الجوع و العطش و السهر و ضرب السيوف[١].

و تذكر بعض المصادر دورًا هامًا لأحد علماء همذان و هو المحدث محمد بن محمود الهمذاني الواعظ المعروف بابن الحمامي، و كان من أئمة الحديث و حفاظه، مع معرفة بفقه الحديث، له دين و عبادة و زهد، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، صاحب سنة و اتباع[٢]. حيث خرج و معه ولده عبيد الله إلى قتال التتار عند حصارهم لهمذان، فقتلا شهيدين، مقبلين غير مدبرين[٣].

و لا يخفى ما في ذلك من الأهمية فكونه قاتل بنفسه حتى قتل ،و يشاركه ولده في الجهاد،فإن لذلك أثره الكبير في الناس، عندما يرون ذلك العالم الواعظ يعظ فوق منبره، ثم عند القتال يكون في أول الصفوف و يقدم على القتال غير هياب و لا وجل، و معه أقرباؤه و أهل بيته، فإن ذلك و لا شك يرفع من معنوية الناس في القتال، حيث يرون الأمثلة الواقعية حية أمامهم، و ليس مجرد مواعظ و خطب ليس لها رصيد من الواقع.

و بعد أن فرغ التتار من همذان ساروا إلى أذربيجان و كان يحكمها أوزبك بن البهلوان الذي كان منصرفا إلى ملذاته و شهواته ، منهمكا في شرب الخمر[٤].

---

(١) ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٢) أنظر ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٢٢،ص١٦١.

(٣) الذهبي، المصدر السابق، ج٢٢،ص١٦١، الذهبي، تاريخ الإسلام طبقة ٦٢، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٤) إبن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص٣٧٤ .

و عندما أدرك حاكم أذربيجان قصد التتار إلى هذا البلد ، و عزمهم على الاستيلاء عليها، هرب من البلد و فارقها و ترك أهلها ليلاقوا مصيرهم البائس غير مكترث بهم، وقام بإرسال أهله إلى خوى[١]، أما هو فقد قصد نقجوان[٢].

و هو بهذا الفعل قد خذل أمته في أحلك الظروف، و أحوج ما تكون لمن يوحد صفوفها، و ينقذها من الخطر المحدق بها، لكن من عاش تلك الحياة التي نشأ عليها، لا يظن به ثبات و لا ينتظر منه موقفا مشرفا.

أما أهل تبريز فقد جمع كلمة أهلها و حصن البلد ، و قام بالأمر في هذا الظرف الخطير و الموقف الصعب، أحد أهل العلم و هو شمس الدين الطغرائي[٣].

فقد قام برفع الروح المعنوية للأهالي بتقوية نفوسهم، و حذرهم عاقبة التخاذل والتواني، و عندما اقترب المغول من تبريز ، تناهى إلى مسمعهم ما عليه أهل البلد من اجتماع الكلمة على القتال ، و كذلك ما قاموا به من تحصينات للمدينة، عندها تذكر المغول الخسائر الجسيمة التي ألحقها بهم أهل همذان ، عندما اتخذوا من الجهاد شعارا لهم و كان العلماء هم حملته والمنادون به.

و أدرك المغول أنه ليس من مصلحتهم قتال أهل تبريز و هم على تلك الحال من وحدة الصف و الاستعداد للجهاد، و عند ذلك أخذت الرسل تتردد بين المغول وأهل تبريز ، حتى استقر الحال ، على أن يدفع أهل تبريز للمغول قدرا معلوما من المال والأمتعة ، و عندها رحل المغول إثر ذلك[٤]،و لم يتوقف دور الطغر ائي وأثره عند هذا الحد، بل قام بأمر البلد، فجنبه و يلات الحرب الأهلية، والفتن الداخلية، و التي كادت تعصف بالبلاد، بعد فقدان الحاكم، وبخاصة أن الاستقرار والأمن في المناطق كان معدوما ، مع هذا الزحف المغولى الجارف .

---

(١) خوى: بلدة مشهورة من أعمال أذربيجان ينسب إليها الثياب الخوية (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢ ص٤٠٨).

(٢) نقجوان: بلدة من نواحي أران وهو نخجوان. (انظر ياقوت، المصدر السابق، ج٥ ص٢٩٨).

(٣) لم أجد له ترجمة في المصادر المتداولة في هذه الفترة التاريخية.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ـ ص ٣٨٢، الذهبي، المصدر السابق، الطبقة ـ ٦٢ ـ ص٤٣ .

يذكر النسوى أن فتنة كادت تعصف بالبلد أراد اشعالها طائفة من جهلة العوام، اذ هموا بقتل أتباع الخوارزمية تشفيا من الأحقاد السابقة بينهم ، و تقربا من التتار .

و العجب أن وزير السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى قد واطأ هؤلاء العوام على فعلتهم ، و لكن الطغرائي منعهم من هذه الفعلة أشد المنع ، و حذرهم من استباحةالأموال و نهاهم عن هذا الجرم[1].

ونلمح هنا جانبا مهما من جوانب حياة العلماء وقت الأزمات و هو نصحهم وصدقهم للأمة، فهم أنصح الناس لها وأقومهم بحالها.

و نلاحظ أن الطغرائي و قد أطاعه أهل تبريز، و أسلموا له مقاليد الأمور ، فلم يستأثر بالأمور، فالعلماء حقا من أزهد الناس في السلطة و بهرجها . لذلك نجد الطغرائي يقوم بتسليم السلطة إلى وزير السلطان الخوارزمي ، مقدما مصلحة الأمة و وحدتها على الأغراض الشخصية والمصالح الخاصة.

وعندما تطلب الأمر وقفة جادة رأيناه يتخذ القرار السليم و يمنع الناس من الوقوع في الخطر ، و إشعال فتيل الفتنة وإراقة الدماء ، و إزهاق الأرواح .

يشهد لذلك موقفه من الفتنة التي وقعت إثر قتل العامة أحد الخوارزمية لشيء في نفوسهم على الخوارزمية ، فقد قام بحسم الأمر ، عندما خرج بنفسه ، و أمر بقطع رأسين من رؤس الذين شاركوا في هذه الفتنة ، مع كونهما من بلده ، و نادى بأن هذا جزاء من يهتك ستر الحشمة ، و يخرج على السلطان راعى الأمة[2]، و موقفه هذا حقن الدماء التي كانت مهدرة في سائر بلاد المشرق الإسلامي .

والطغرائي يرى بهذا أن وحدة البلاد ، ودخولها تحت طاعة الحاكم المسلم هي من أهم الأمور للتمكن من الصمود أمام جحافل المغول .

لذلك كانت كتبه لا تنقطع عن السلطان جلال الدين الخوارزمي ، على اختلاف أحواله. وهذا يوضح مقصده، من حيث التمسك بوحدة البلاد ، وطاعة السلطان، والبعد كل البعد عن الفتن ، مؤكدا ذلك بمواقفه وسيرته ، ومع كل ذلك فقد حيكت عليه

---

(١) النسوي ، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

(٢) النسوي ، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

مؤامرة، تولى كبرها وزير السلطان جلال الدين الخوارزمي ، حيث ادعى وافترى على شمس الدين الطغرائي وابن أخيه[1] بأنهما قد تآمرا على الفتك به، والعصيان على السلطان ، وذلك في رسالة قدمها إلى السلطان من مقامه بتبريز .

وعندما وصلت الرسالة إلى السلطان جلال الدين الخوارزمي توجه إلى تبريز ليرى الأمر عن قرب، فقام الوزير بإحضار من يشهد بين يدي السلطان على الطغرائي وابن أخيه بما سبق وأن نسبه إليهما من الإعداد للغدر والخيانة وشق عصى الطاعة .

وبدون تثبت من الأمر ، أصدر السلطان جلال الدين أمره باعتقالهما ، وأعقب ذلك قرارا متسرعاً أهوجاً بقتل إبن أخي الطغرائي. و طولب الطغرائي فوق هذا بمبلغ يزيد على مائة ألف دينار، ولم يستطع الطغرائي دفع شيء منها ، ثم حمل محتاطا عليه من تبريز إلى مراغة[2].

ومع هذا فإن وزير السلطان الذي حاك هذه المؤامرة الدنيئة لم يقنع إلا بقتل الطغرائي، وأخذ يحتال الحيل في سبيل ذلك، ولكن نائب مراغة الذي ساءته تلك المعاملة لهذا الشيخ صاحب الأعمال الجليلة في خدمة الأمة، عمل على إبطال شر الوزير، فقام بتهريب الطغرائي إلى بغداد[3].

وكان الدافع للوزير في عداوته للطغرائي أن الطغرائي كان يمنع خواص الوزير ونوابه من الظلم ولا يمكنهم من أذى الرعية. ولذلك دبر الوزير هذه المؤامرة للتخلص من الطغرائي، لينفرد هو وأعوانه بالرعية، يفعلون بهم ما يشاؤون مستغلين الأحداث التي تمر بها البلاد لتكون ستارا لما يقومون به من أعمال[4].

---

(١) ذكر النسوي أن إبن أخي الطغرائي كان قاضيا بتبريز وأسماه : قوام الدين الخداري(انظر: سيرة جلال الدين، ص٢٠٨).

(٢) النسوي ، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

ومراغة: مدينة كبيرة مشهورة، وهي قصبة بلاد أذربيجان، وهي كثيرة السكان، غزيرة الأنهار، كثيرة الزراعة، وتبعد عن تبريز سبعين ميلاً، (انظر: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٦٣؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٩٨).

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص٢٠٣ .

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

وتبين للسلطان بعد ذلك كذب الوزير وإفترائه ، وعلم براءة الطغرائي ، فأمنه وأعاده إلى تبريز، ورد عليه أملاكه[١].

ويذكر النسوي أن الطغرائي بقي على ولائه للسلطان ، وأهل تبريز من ورائه سامعين مطيعين ، وكان هذا دأبه حتى جاء أجله وتوفي[٢] سنة٦٢٨هـ/١٢٣٠م.وبعدها قام نائب الدولة بتبريز وعوام البلد بتسليم البلد إلى التتار كسائر البلدان المحيطة بهم ، وذلك عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م [٣].

بينما يذكر ابن الأثير أن التتار في عام ٦٢٨ هـ/١٢٣٠م نزلوا بالقرب من تبريز، وأرسلوا إلى أهلها، يدعونهم إلى الطاعة، ويتهددونهم، إن إمتنعوا عليهم، فأرسلوا الكثير من المال و التحف، و بذلوا الطاعة، فطلب منهم التتار أن يحضر مقدموهم عندهم.

فخرج إليهم قاضي البلد، ونائب الدولة و جماعة من أعيان البلد. و تخلف عنهم شمس الدين الطغرائي، وكان مرجع الجميع. و ذلك بعد مقتل جلال الدين منكبرتي.

و عند حضورهم عند التتار سأل مقدم التتار عن امتناع الطغرائي من الحضور، فقالوا: إنه رجل منقطع، ماله بالملوك تعلق، و نحن الأصل، فسكت[٣]و لعل هذا حصل في أواخر أيام الطغرائي أي قرب وفاته ، و دخول المغول الى تبريز إنما كان بعد وفاة الطغرائي ، كما بين ذلك النسوي[٤].

و مهما يكن فإن ما قام به الطغرائي عمل رائع، حيث استطاع تهيئة أهل تبريز للصمود و الثبات أمام جحافل المغول، و عمل على تجنيب البلد الفتن و القلاقل، وعمل على وحدة الدولة الخوارزمية في أذربيجان لتبقى سدًا أمام المغول، وبالتالي استطاع حماية هذه المدينة من غارات المغول التخريبية، و تأجيل سقوط تبريز أمام ذلك المد الكاسح أزيد من عشر سنوات، حتى كانت نهاية المدينة و نهاية الطغرائي في وقت واحد .

---

(١) أنظر النسوي، المصدر السابق، ص٢٠٤؛ النويري ، المصدر السابق، ج ٢٧ ص٢٧٢.

(٢) النسوي، المصدر السابق، ص٣٥٩.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

(٤) إبن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ - ص ٥٠٢ - ٥٠٣؛ النويري، المصدر السابق، ج ٢٧ ص٣٤٢ .

(٥) النسوي، المصدر السابق، ص٣٥٩ .

و بعد انتهاء المد الأول للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان، والذي يعتبر نقطة البداية للسيطرة المغولية على العالم الإسلامي، عاد جنكيز خان الى وطنه، قبل أن يكمل سيطرته على أراضي الدولة الخوارزمية، إلا أن سيادة المغول أضحت متوطدة وراسخة في إقليم ما وراء النهر[١].و في عام ٦٢٤ هـ/١٢٢٦م، ورد الخبر الى السلطان جلال الدين بأن التتار قد تأهبوا لشن غارة جديدة ، فرأى السلطان بأن يلتقيهم بأصبهان ، لوجود العدة والعتاد ، و إرتفاع معنويات أهلها ، فتوجه إليها . فقام على عرض الجند و الإستعداد للقتال قاضي أصبهان[٢]و معه رؤساء اصبهان ، ووزعت عليهم عدة القتال[٣].

فكان قاضي أصبهان يتابع سير المعركة، و يرفع من الروح المعنوية للمقاتلين، حاثا لهم على القتال في سبيل الله، و مبينا لهم فضل الجهاد و الشهادة[٤]و قام بإستنفار العامة[٥]. وبعد انتهاء المعركة أحضروا مجموعة من الأسرى، وسلموا قسما منهم إلى القاضي، حيث تم قتلهم علانية أمام الناس في شوارع المدينة، والبقية ضربت رقابهم بين يدي السلطان الخوارزمي جلال الدين في صحن الدار[٦].

وما قام به قاضي البلد من المشاركة في التعبئة العسكرية أولا، ثم استنفار العامة للجهاد، وتهيئة المقاتلين للمعركة، ثم متابعة سير المعركة حتى نهايتها،و ما أقدم عليه كذلك من ضرب رقاب المغول أمام الناس إنما يقصد من ورائه كسر حاجز الخوف والرعب الذي دب في قلوب الناس من المغول، فيريد بذلك أن يرفع من معنوية أهل أصبهان، لكي يستطيعوا المواجهة وقتل المغول دون هيبة تأخذ بمجامع القلوب.

وقد كانت العلاقة بين السلطان جلال الدين وأخوه غياث الدين يشوبها كدر، ولذلك بعد أن نشبت المعركة ترك غياث الدين القتال ، وانهزم بأصحابه .

---

(١) العبري،تاريخ الزمان، ص٢٧٢؛ ب.يا.فلاديميرستوف، حياة جنكيز خان، الترجمة العربية ص٢٠٠ .

(٢) وردت تسميته عند إبن خلدون: ركن الدين مسعود بن صاعد. العبر ، ج٩ ص٢٦٢ .

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص٢٣٢ .

(٤) إبن أيبك، المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٥ .

(٥) إبن خلدون، المصدر السابق، ج ٩ ص ٢٨٠ .

(٦) إبن إيبك، المصدر السابق، ص٢٨٥ .

ولهذا كانت معركة أصبهان غير حاسمة ، إذ انتهت دون أن يعرف المنهزم من المنتصر، واختفى السلطان بعد المعركة[١]، فانهزمت الخوارزمية من أصبهان فهمت عامة أهل أصبهان بمد أيديهم إلى نساء الخوارزمية وإلى أموالهم لكي ينتهبوها . فمنعهم القاضي من ذلك ، فسد باب الفتنة واختلال الأمن في أصبهان[٢].

وبالتالي فإن هذا كان عاملا من عوامل صمود أصبهان، وبقائها خارج السيطرة المغولية فترة من الزمن.

و لم يكن قاضي أصبهان وحده الذي يتابع سير المعارك، ويرفع من معنوية المقاتلين ، وبالتالي صمود أهل أصبهان عدة سنوات، بل ساعده في القيام بتلك الأمور عدد من العلماء والفقهاء استمروا في الكفاح والصمود وقاموا بتوجيه العامة، وقيادة الأعمال الجهادية إلى أن جاء عام٦٣٢هـ/١٢٣٤م، حيث استطاع المغول الإستيلاء على أصبهان وإعمال السيف في رقاب فقهائها وعلمائها، وقد أشارت المصادر إلى أسماء بعضهم وأبانت عن استشهادهم في دفاعهم عن أصبهان و منهم: مسند أصبهان أبو الوفاء محمود بن إبراهيم بن منده، حيث قتل عند دخول التتار إلى أصبهان بالسيف[٣]، وكذلك محدث أصبهان الحافظ ظهير الدين عبد الأعلى إبن القطان، وكان عمره عند الواقعة بضعا وستين سنة[٤]،وأيضا أبو الفتوح الوثابي، كان رواية للحديث، راح تحت السيف و له ثمان وسبعون سنة[٥]، ومن رواة الحديث الذين استشهدوا في واقعة أصبهان وجيه الدين محمد بن أبي غالب الملقب بشعرانة[٦]، واستشهد كذلك مفتي الشافعية محمد بن عبد الواحد

---

(١) أنظر في تفاصيل المعركة ، سعد حذيفة، أوضاع الدول الإسلامية في المشرق ، ص٣٤٥ ، وقد ذكر أن المعركة وقعت عام٦٢٥هـ ، وانظر في تخلي غياث الدين عن أخيه جلال الدين: النسوي ، المصدر السابق، ص٣٥٦ .

(٢) إبن إيبك، المصدر السابق، ص٢٨٦ .

(٣)المنذري، المصدر السابق، جـ٣ ص٤٠٠؛ الديار بكري ، تاريخ الخميس ، ج٢ ص٣٧١ ؛ الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، ص٢٦٢؛ السير، جـ٢٢ص٢٨٢.

(٤،٥) الذهبي، العبر في خبر من غبر ، ج٣ ص٢١٥ .

(٦) الذهبي ،المصدر السابق ، ج٣ ص٢١٤، السير، جـ٢٢ ص٣٧٩.

تحركات هذا العالم بدقة، إلى أن وقعت في يد الجواسيس رسالة كتبها إلى قاضي سرخس، فقاموا بتسليمها إلى مجير الملك ، والذي بمجرد قراءته الرسالة، أصدر أمره للجنود فقطعوه يالسكاكين إربا إربا[1]، و لا غرابة أن يعلق الجويني على ذلك بأنه عاقبة للنفاق. فالجويني كتب تاريخه في دولة المغول الإيلخانيين في العراق و التي كان هو أحد رجالاتها. وبالتالي فلم تكن له الحرية التامة ليكتب بنزاهة، فقد كان لسانا ناطقا للمغول. و إلا فمتى كان دفع العدو المحتل لبلاد المسلمين و السعي لإخراجه من البلاد نفاقا ؟

و لم يكن مصير قاضي سرخس الذي وجهت إليه تلك الرسالة ، بأحسن حظا من الفقيه الحارثي ، بل لقد أوعز المغول إلى ولده ليقتل أباه.

و نفذ ذلك الولد العاق طلب المغول و قتل والده و أعطوه مكافأةعلى ذلك الوسام الملكي لجنكيزخان[2].

و نختم هذا المبحث ببيان أثر العلماء في المعارك التي وقعت سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م إبان ثورة أبي الكرم التارابي واسمه محمود صانع الغربال[3] وقد ناصره أحد علماء بخارى وهو شمس الدين المحبوبي[4]. وتتلخص أحداثها في أن التارابي جمع حوله الأتباع وقال لأصحابه : إني قادر على كسر التتار بمن يتبعني بقوة الله تعالى من غير سلاح.

و تبعه طائفة من الناس، فخطب فيهم خطبة الجمعة، و عقب الصلاة ألف جيشا أخذ يغير و ينهب، و قتلوا شحنة البلد و من معه، فقوي أمره، و تبعه خلق كثير، عندها جاءت فرقة عسكرية من المغول للقضاء عليه مع أتباعه، فخرج إليهم و ليس معه هو

---

(١) أنظر في ذلك، الجويني، المصدر السابق ، ج١، ص١٥٣-١٥٤.

(٢) الجويني ، المصدر السابق، ج١ ص١٥٥، و أضاف أن المغول أخذوا من قاضي سرخس الوسام الملكي الذي أعطاه إياه جنكيزخان، و أعطوه لولده بهلوان أبي بكر ديوانه حتى يقتل أباه .

(٣) أنظر ترجمته عند الذهبي، تاريخ الإسلام الطبقة ٦٤ ص٢٨.

(٤) أنظر ترجمته، اللكنوي،المصدر السابق ص٣٧٦ ؛ القرشي ، الجواهر المضيئة في تراجم السادة الحنفية،تحقيق :د.الحلو، ج١ ص١٩٦.

وأتباعه إلا القليل من السلاح فقتل المغول منهم الكثير[١].

ونلاحظ هنا عدم أخذ العدة و العمل بالأسباب ،وفي هذا محظـور شـرعا ، فهـو يخالف نص القرآن الذى يأمرنا بأخذ العـدة والإستعداد للقـاء العـدو وهـو قولـه تعـالى: **﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن ربـاط الخيـل ترهبـون بـه عـدو الله وعدوكم ﴾**[٢]، ولقاء العدو بلا سلاح ولا عتاد أو أدنى استعداد هو إلقـاء بـالنفس إلى التهلكـة، وقـد حـذر اللـه مـن ذلـك بقولـه تعـالى: **﴿ولا تلقـوا بـأيديكم إلى التهلكة﴾**[٣].

وعلى هذا فما أقدم عليه التارابي من القتال بلا استعداد ولا سـلاح هـو انحـراف عن الجادة. وهو مـن جملـة بـدع وجهـالات كـانت لـدى التـارابي، وإن انتشـار البـدع والجهل بين أتباعه ليعكس لنا صورة المجتمع الذي قتل علمـاؤه، فـاختفى العلـم أو كـاد بذهاب حملته من العلماء ، وعندما خلا المجتمع منهم انطمست جوانب كثيرة من العلم والدين، واتخذ الناس لهم رؤسا جهالا، وذلك من الآثار السيئة المترتبة على قلـة العلمـاء وندرتهم ...

---

(١) أنظر في أحداث معاركها بتفصيل، الجويني، المصدر السـابق، ج١،ص١٢١-١٢٥؛ ابـن الفوطـي، المصـدر السابق، ص٦٧، الذهبي تاريخ الإسلام الطبقة ٦٤ ص٢٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية رقم: ٦٠.

(٣) سورة البقرة الآية رقم: ١٩٥.

الفصل الثاني :

دور العلماء المسلمين في جهاد المغول

زمن حملات هولاكو

- قيام بعض العلماء بالسفارات بين هولاكو و بعض حكام المسلمين.
- محاولات بعض العلماء إقناع هولاكو بعدم دخول بغداد.
- أثر سقوط بغداد .
- قيادة العلماء للأعمال الجهادية في المدن الإسلامية ضد الحكم المغولي.

لقد اكتسح المغول بلاد العالم الإسلامي من الشرق، وساروا في البلاد الإسلامية يقتلون ويأسرون ويحرقون ويدمرون، وكانوا يفعلون تلك الأمور على نحو لم تعهد له البشرية مثيلا في تاريخها.

ورأينا في الفصل السابق الدور العظيم الذي قامت به بعض بلدان ومدن المشرق الإسلامي في مقاومة المغول ،وإلحاق بعض الهزائم بهم مما تسبب في تأخير هجوم المغول على بغداد ثم بلاد الشام .

وبعد القضاء النهائي على الدولة الخوارزمية تهيأ المغول لاجتياح بغداد.

وقاد حملة المغول في هذه المرة هولاكو الذي عهد إليه أخوه منكو - خان المغول - بقيادة الحملة[١]

ووصلت هذه الحملة إلى حدود بلاد ما وراء النهر سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤م[٢]. وتمكنت هذه الحملة من القضاء على الإسماعيلية المتمركزين في حصونهم في إيران سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[٣]. ثم واصلت الحملة مسيرها بعد ذلك إلى بغداد ثم الشام، وسوف نتناول دور العلماء خلال هذه الفترة من خلال المباحث التالية:

---

(١) أنظر ابن الفوطي ،الحوادث الجامعة ، ص ١٣١ .

(٢) الهمذاني ، جامع التواريخ ، م٢ ج١ ص٢٣٩.

(٣) الذهبي ، دول الإسلام ، ج٢ ص ١٥٨ ؛ سير أعلام النبلاء ،ج٢٣ ص١٨٠ ؛ الهمذاني ، المصدر السابق، م٢ ج١ ص٢٥٠ وما بعدها.

المبحث الأول :

قيام العلماء بالسفارة بين هولاكو وبعض حكام المسلمين:

بعد أن رأينا جوانب من الجهود التي بذلها علماء المسلمين وفقهائهم محاولين بذلك إخراج الأمة الإسلامية من المأزق الذي وقعت فيه بعد قيام المغول بحملاتهم الأولى على البلدان الإسلامية. نتنقل إلى جهود العلماء زمن حملات هولاكو ، فقد كان للعلماء دورٌ في عدة مجالات يأتي في مقدمتها تلك الجهود التي بذلوها في السفارات بين الحكام المسلمين وبين هولاكو.

ونلاحظ أن العلماء والفقهاء يبذلون جهدهم ومساعيهم في كل اتجاه من شأنه أن يخفف مصاب الأمة بهذا البلاء الذي حل بهم.

و إيفادهم بالسفارة إلى المغول يدل على ثقة حكام المسلمين بهم فضلا عن العامة، و ذلك لبعدهم عن المطامع و الأغراض الشخصية مع وضوح قصدهم في تحقيق المصلحة العامة من دفع العدو بأي وجه تيسر. و مما لا يخفى على أحد أهمية الدور الذي يقوم به السفير و انعكاس ذلك على بلاده و البلاد المرسل إليها و من هنا كان لابد أن يكون السفير المختار مشتملا على صفات تؤهله للقيام بالدور المطلوب، و بخاصة أن الوضع في تلك الفترة حرج للغاية، فالسفير الموفد إلى هولاكو تكون مهمته في غاية الصعوبة و حياته فوق هذا في خطر كبير.

و لن يقدم على القيام بدور السفارة إلا من ضحى بنفسه و بذلها في سبيل الله، وحمل نفسه المشاق و المتاعب. و بعد إدراكنا لهذا الأمر نجد أن أول سفير أوفده الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى هولاكو كان أحد العلماء و هو شرف الدين بن الجوزي[1].

و كانت الرسالة التي يحملها جوابا لخطاب تلقاه الخليفة العباسي من هولاكو يهدده فيه و يتوعده و يأمره بهدم الحصون و ردم الخنادق و يسلم البلاد لابنه

---

(١) سبقت ترجمته .

قدرة الأسرة العباسية وأن أعداءها زالوا وهي باقية، وأخذ يعدد أعداء الخلافة الذين حاولوا القضاء عليها، ولكنهم خسروا في النهاية أمام الخلافة،وعليه فليس من مصلحة هولاكو قصد الأسرة العباسية[1].وبعد ذلك أرسل هولاكو إلى الخليفة وقال: لا بد من مجيئه هو بنفسه أو يسير أحد ثلاثة إما الوزير (ابن العلقمي)، وإما الدويدار، وإما سليمان شاه. ولم يستجب أحد منهم لطلب الخليفة في الخروج إلى هولاكو. بل منعوا الخليفة من الخروج بنفسه[2].

ويظهر من هذا اضطراب واختلال الوضع السياسي من الداخل وعدم إتحاد صف ولاة الأمر وأصحاب القرار في الدولة العباسية، وعدم رجوعهم كلهم إلى رأي واحد، بل كل فرد منهم يجعل مصلحته الذاتية هي الأولى والمقدمة في كل الأمور.

وهنا لم يجد الخليفة أمامه سوى تلك الفئة التي جعلت مصلحة الأمة هي همها وبغيتها، الفئة التي لا مصالح شخصية لديها مقدمة على مصالح الأمة، وهي فئة العلماء المخلصين. وبالتالي تقدم الخليفة إلى ابن الجوزي لكي يخرج إلى هولاكو، بعد أن إمتنع غيره من الخروج[3].

وسفارته وإن لم ترد المغول عن دخول بغداد فإنه قد أدى واجبه، ونصح لأمته، وأوقف الخليفة على حقيقة الأمر، وأن هولاكو عازم على دخول بغداد، فهو بهذا أدى أمانته، وقام بعمله خير قيام .

وإذا ما انتقلنا إلى بلاد الشام نجد أن ابن شداد[4] قد قام بالسفارة بين الملك

---

(١) أنظر نص الرسالة: الهمذاني، المصدر السابق،ج١م٢ص٢٧٥؛ أنظر أيضا: ماهر حمادة، المصدر السابق، ص٤٧٨؛ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ص٣٤٨.

(٢،٣) إبن العبري، مختصر الدول، ص٤٧٢.

(٤) محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد الأنصاري، الحلبي المؤرخ المشهور، ولد بحلب، و كان معظما عند الأمراء محبوبا لديهم، واستوطن الديار المصرية بعد استيلاء التتار على حلب، و توفي بالقاهرة، وهو صاحب كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة و تاريخ حلب (انظر ابن كثير ، المصدر السابق،ج:١٣، ص:٢٢٣؛ الزركلي ، الأعلام ، ج:٦، ص:٢٨٣) .

على ميافارقين. وفي طريقه للقيام بالسفارة وصل حماه حيث وجد بأن المغول قد تعرضوا لحماه وأخذوا بعض الأعيان أسرى منهم مقدم العسكر، وطلبوا الملك المظفر ليأخذوه معهم بسبب الرسل الذين قتلوا في بلاده[١].

فتوسط ابن شداد بينه وبينهم على ألفي درهم وضيافة فقبلوها وأطلقوا من كان أخذ[٢].

و في أثناء سير ابن شداد مع الوفد الذي خرج معه مروا بطائفة من التتار تريدالإغارة على الجزيرة فطبقوا[٣] إلى ماردين[٤] وحران وحلب بتجفيل من بها[٥].

وهناك سفارة قام بها قاضي القضاة مهذب الدين محمد بن علي[٦]حيث خرج في وفد من ماردين بعد أن أرسل هولاكو إلى الملك السعيد صاحب ماردين يستدعيه فما كان من الملك السعيد إلا أن أرسل ولده الملك المظفر قرأ أرسلان، وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن علي والأمير سابق الدين بلبان وذلك عام ٦٥٧ هـ وأرسل معهم هدية ورسالة. وعندما وصلوا إلى هولاكو احتجز العضوين وهما الملك المظفر و سابق الدين بلبان و أرسل القاضي لوحده[٧]. و قد طلب هولاكو حضور الملك السعيد ثم بعد ذلك أطلق ولد السعيد و سابق الدين بلبان.

وبعد ذلك هاجم ماردين و تمكن من الاستيلاء عليها .

---

(١) إبن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣،ف٢،ص٤٩١.

(٢) ابن شداد، المصدر السابق، ج٣،ق٢،ص٤٩١.

(٣) أي قاموا بإرسال البطاقات .

(٤) ماردين: مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، وبها قلعة كبيرة من أشهر القلاع. الحميري، الروض المعطار، ص٥١٨.

(٥) ابن شداد، المصدر السابق، ج٣ ف٢ ص٤٩٢.

(٦) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر متداولة من هذه الفترة التاريخية .

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧،ص٥٤؛ عبد الله الغامدي، جهاد المماليك، ص٧٩؛ التكريتي، الأيوبيون في شمال الشام و الجزيرة، ص٣٠٩؛ حسن شميساني، مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ٩٢١هـ، ص٢٢٥.

و السفارات و إن لم تكن لها نتائج إيجابية رغم حرص السفراء، و هم من أهل العلم و الفقه، فإن السبب واضح و هو يتمثل في إصرار المغول على الاستيلاء و السيطرة مع وجود القوة العسكرية لديهم. و بالمقابل فإن الضعف و التخاذل كان سمة لحكام المسلمين في ذلك الوقت.

ولكن هذه الاحداث التي عصفت بالامة لم تمر دون مشاركة من اهل العلم والفكر بل حاولوا أن يشاركوا بجهودهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .و سوف نعرض بعد ذلك لجهودهم في شتى الميادين خدمة للدين ، ونصحا للمسلمين .

المبحث الثاني

محاولات بعض العلماء إقناع هولاكو بعدم دخول بغداد:

لقد رأينا في الفصل الأول كيف تهاوت و سقطت الدولة الخوارزمية تحت السيطرة المغولية. و لم تكن هناك صعوبات و عقبات قوية اعترضت الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي و بخاصة أن السلطان "محمد خوارزمشاه" عندما استولى على تلك المناطق من قبل قتل ملوكها و أفناهم، وتفرد هو بزعامة تلك المناطق، و عندما هزمه المغول أصبحت البلاد بلا مدافع عنها[١].

بل إن الأمر كان أسوأ من ذلك حيث حاول السلطان محمد خوارزمشاه تنحية العلماء عن مسار الأحداث كما رأينا في الفصل الأول و بالتالي فقد قضى على أهل الحل والعقد في المشرق الإسلامي،ومع هذا فإن الدولة الخوارزمية كانت تمثل السد الحاجز بين المغول و بقية بلدان العالم الإسلامي و بزوالها زال هذا الحاجز[٢]، و لذلك قال الأشرف موسى الأيوبي لمن هنأه بقتل عدوه جلال الدين منكبرتي :" تهنؤونني بهذا و تفرحون ؟ والله لترون غبة، و الله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام ،ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا و بين يأجوج ومأجوج"[٣].

و قد قام منكوقان بتكليف أخيه هولاكو بقيادة حملة كبيرة تتوجه إلى المناطق الإسلامية في إيران والعراق ، ولها أهداف محددة هي القضاء على الإسماعيلية في إيران[٤] والقضاء على الخلافة العباسية في بغداد والإستيلاء على مصر والشام[٥].

---

(١) الصياد، المرجع السابق، ص: ٢٣١.

(٢) أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ط٦٣، ص٨٧.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٣١؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، ص: ١٤٢.

(٤) القضاء على الاسماعيلية هدف استراتيجي للأمة الإسلامية لانحرافهم عن المنهج الصحيح ولكن المغول الكفار لا يفرقون بينهم وبين بقية المسلمين.

(٥) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص: ١٣١؛ براون، المرجع السابق، ص: ٥٧٥.

و لم تكن هذه الحملة أمرا مفاجئاً فقد سبق هذه الحملة عدة غزوات قام بها المغول في الجولة الأولى كانت تنطلق لتمتد إلى الجزيرة والعراق ، وقد اتسمت أغلب هذه الغزوات بطابع السرعة وإشاعة البلبلة والخوف والإضطراب في نفوس الأهالي لتقوم بالنهب والسلب و جس النبض فهي بهذا حملات استطلاعية[١].

وقد استمرت هذه الغزوات السريعة كما حدث في سنة ٦٤٧هـ حيث وصل الخبر إلى بغداد أن طائفة من المغول كبسوا مناطق قريبة من بغداد ،و هرب الناس إلى بغداد وازداد الخوف و الرعب[٢].

و تقدم الديوان إلى الأمراء و العساكر بالخروج إلى ظاهر البلد، و أمر الناس بالاستعداد و تعليق السلاح في الأسواق والخانات و الدكاكين و المبيت في الأسواق وإشعال الأضواء تحسبا لأي خطر داهم من المغول[٣]، و أرسلت طلائع للاستكشاف فأخبروا بأن المغول قد عادوا[٤].

و نلاحظ أن هذه الغزوات السريعة كانت تؤدي اهدافها، مع الأخذ بالإعتبار أيضا أنها كانت ترتبط إرتباطا شديدا بتقلبات الحكم في بلاد المغول نفسها كما حدث عند وفاة جنكيز خان.

و مهما يكن من أمر فإن تلك الغزوات لم تكن سوى مقدمات وإرهاصات للحملة الكبرى التي قادها هولاكو و التي كانت ذات أهداف محددة ومعينة.

و هنا نأتي على دور بارز لأحد العلماء في خراسان وهو شيخ خراسان أبو المعالي سيف الدين سعيد ابن المطهر الباخرزي (٥٨٦ هـ ، ٦٥٩ هـ)[٥]،والذي كان يتصف بالزهد والورع والتقوى مما أكسبه مهابة في النفوس ، وهو أحد تلاميذ الشيخ نجم الدين الخيوقي والذي كان له دوراً بارزاً في جهاد المغول في

---

(١) جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٧.

(٢،٣،٤) ابن الفوطي ، المصدر السابق ،ص ١١٩.

(٥) انظر في ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٢٣ ص٣٦٣، تذكرة الحفاظ، ص٤ ص١٤٥١، إبن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ص٥ ص٢٦٨، الصفدي، الوافي بالوفيات، ص١٥ ص٢٦٢، القرشي، المصدر السابق، ص٢ ص٢٢٥.

حملاتهم الأولى.

وكان الباخرزي قد نزل بخارى واستوطنها بعد تخريب المغول لها وذلك بإشارة من شيخه الخيوقي قبل استشهاده في خوارزم على يد المغول .وقد نفذ الباخرزي وصية شيخه وذهب إلى بخارى ، وأخذ في وعظ الناس هناك وتعليمهم التفسير[١].

و لاتصافه بالزهد وعدم الإلتفات إلى الدنيا تجمع إليه الناس . ووقع في قلوب الكفار والمغول خوف منه، فلم يخالفه أحد في شيء يريده ، وبخاصة بعد حادثة حصلت له مع المغول ، حيث وشى به أناس إلى أحد قادة المغول ، متهما إياه أنه يريد أن يصبح خليفة ، فاستدعاه القائد المغولي إلى سمرقند مقيدا، و لما اقترب الباخرزي من سمرقند مات القائد المغولي ، فأطلقوا سراح الشيخ ، وأسلم على يده جماعة منهم[٢].

وبهذا أصبحت له مكانة رفيعة عند المغول ، فكان يبذل جهده ووسعه في صرف المغول عن الإستيلاء على بغداد ، ويهول عليهم الأمر، باذلا سبيل الإقناع لهم في هذا الشأن ، مضفيا هالة عظيمة على مكانة الخليفة ، لعل شيء من ذلك يفت في عضدهم أو يصرفهم عن هذا المقصد .

وقد وصف الذهبي دوره في محاولاته لمنع التتار من قصد بغداد بقوله: "فكان يمنع التتار من قصد العراق ، ويفخم أمر الخليفة "[٣].

وقد كانت الديانة الوثنية التي يدين بها المغول، تجعل من الخرافات أساسا لها كغيرها من الوثنيات، مما جعل أتباعها يستسلمون استسلاما تاما لجانب الطيرة والتشاؤم. وقد فطن العالم الفلكي، حسام الدين المنجم[٤]إلى هذا الجانب في عقائد المغول فاستعمل ذلك عندما استدعاه هولاكو، وطلب منه

---

(١) انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ص٢٣ ص٢٦٥.

(٢) الذهبي، المصدر السابق، جـ٢٣ ص٣٦٥.

(٣)الذهبي، المصدر السابق، جـ٢٣ ص٣٦٧.

(٤) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر لهذه الفترة التاريخية .

مشورته في احتلال بغداد فقال له :" إنه ليس ميمونا قصد أسرة الخلافة ، والزحف بالجيش إلى بغداد، إذ أن كل ملك –حتى زماننا هذا– قصد بغداد والعباسيين، لم يستمتع بالملك والعمر"(١). و كأنه يشير بهذا إلى ما حل بالخوارزميين حينما أرادوا الإستيلاء على بغداد ، وتنحية الخليفة العباسي ، فانعكس مقصدهم ، وجرت عليهم النكبات من المغول ، واندثر سلطانهم فلم يستمتعوا بأعمارهم ولا ملكهم. ولا بد أن عند المغول طرفا من ذلك الخبر عن طريق عيونهم أو عن طريق رجال دولتهم من رعايا الخوارزميين السابقين(٢).

ثم أردف حسام الدين المنجم بعد ذلك قائلا :" وإذا لم يصغ الملك إلى كلامي، وذهب إلى هناك فستظهر ستة أنواع من الفساد :

أولها : أن تنفق الخيول كلها ، ويمرض الجنود.

ثانيها : أن الشمس لا تطلع.

ثالثها : أن المطر لاينزل .

رابعها : تهب ريح صرصر ، وينهار العالم بالزلزال .

خامسها : لا ينبت النبات في الأرض .

سادسها : أن الملك الأعظم يموت في تلك السنة "(٣).

وعندما سمع هولاكو هذا الكلام، طلب شهادة من حسام الدين بصحة هذا الكلام، فكتبها له، ولعل ذلك أثر في نفس هولاكو، ولا غرابة فإن ذلك لا يتنافى مع ديانته الوثنية. فمن قبل الديانة الوثنية واعتنقها لا يستغرب عليه تصديقه لمثل هذا القول .

---

(١) انظر الهمداني ، المصدر السابق، م٢ ص١ ص٢٧٩.

(٢) هناك الكثير من أبناء المسلمين ممن استهوتهم المناصب وزخرف الحياة فعملوا ضمن طاقم المغول الحاكم كأبناء الجويني وغيرهم، وأوضح مثال لذلك الطوسي كما سيرد معنا.

(٣) انظر الهمذاني، المصدر السابق، م٢ ج١ ص٢٧٩ ؛ عصام الفقي، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص٢٠٤ عبد الله الغامدي ، المرجع السابق، ص٥٧.

وقد عرض هولاكو الموضوع على نصير الدين الطوسي الرافضي[١]،والذي كان موقفه مضادا لهذا لرغبته في زوال الخلافة العباسية تبعا لمعتقداته الباطنية فقال :لن تقع أية واقعة من هذه الأحداث، وهنا بادره هولاكو بالسؤال قائلا له: إذن ماذا يكون؟ قال: إن هولاكو خان سيحل محل الخليفة .

عندها قام هولاكو بإحضار حسام الدين ليتباحث مع الطوسي ، فاستدل الطوسي باستشهاد جماعة من الصحابة ولم يحدث شيء من التغييرات الكونية ، و كذلك الخلفاء العباسيين قتل عدد منهم فلم تختل الأمور[٢] .

و بهذا أبطل ما قاله حسام الدين . و عند التأمل في هذا الموقف نلاحظ أن حسام الدين و إن كان ما قاله غير صحيح إلا أنه ربما يكون من باب الحرب خدعة ، حيث أراد تخذيل المغول عن مواصلتهم الزحف على بغداد .

و بالمقابل نجد الطوسي-و هو شيعي المعتقد- يهون الأمر على هولاكو بل و يحثه على مواصلة المسير لاحتلال بغداد ، دون أن يقدم أي مبادرة لتجنيب البلاد الإسلامية هذه الكارثة ، والتي كان هو فيما بعد أحد معاولها التي نقضت صرح الخلافة العباسية في بغداد.

و قبل أن تصل جيوش هولاكو إلى بغداد خرج إليهم شرف الدين عبد الله بن يوسف الحنبلي[٣]برسالة من الخليفة العباسي المستعصم بالله، و أدرك تصميم المغول على الإستيلاء على بغداد و عند رجوعه أخذ يحث الناس لأخذ الأهبة والاستعداد للقاء عدوهم. و حذرهم أن هولاكو قد عزم على قصد العراق في جيش عظيم[٤].

---

(١) الطوسي هو:محمد بن محمد بن الحسن، إشتهر بالطوسي نسبة إلى طوس، وهو من الشيعة، إنضم إلى هولاكو بعد استيلائه على قلاع الأسماعيلية ولازم المغول حتى وفاته. انظر إبن كثير، البداية والنهاية ج١٣ ص٢١٠.

(٢) الهمذاني ، جامع التواريخ م١ ج١ ص٢٨٠. عبد الله الغامدي ، المرجع السابق، ص٥٨.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) الذهبي سير اعلام النبلاء ج٢٣ ص ٣٧٤.

ولكن الناس لم يصغوا إلى ذلك التحذير وعلى رأسهم الخليفة الذي كان مغرما بسماع الملاهي، محبا للهو واللعب فإذا سمع عن مغنٍ أو مغنية في بلد من البلاد راسل سلطان ذلك البلد يطلبهم منه. وأوكل أموره إلى غير الأكفاء، وأهمل في قيامه بواجبه وما يلزمه النظر فيه[١] وكان يقول متخاذلا: " أنا بغداد تكفيني ولايستكثرونها علي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد"[٢].

وكانت النتيجة استيلاء المغول بقيادة هولاكو على بغداد و"قد جرى من القتل الذريع و النهب العظيم و التمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة، فما الظن بتفاصيله"[٣].

واستمر القتل يعمل فيها مدة أربعين يوما إلى أن أصبح الدم في أزقتها مثل كبود الإبل[٤]. وقتل الخطباء و الأئمة وحملة القرآن ،وتعطلت المساجد والجمعات مدة شهور[٥] وتوفي فيها عدد كبير على رأسهم الخليفة العباسي المستعصم بالله ومعه الفقهاء والأعيان[٦].

وإدراكًا من المغول لأهمية الدور الذي يمثله الفقهاء والعلماء قاموا أثناء الحصار بإلقاء منشورات على المدينة بواسطة النبال حيث ربطوها بها، وتفيد هذه المنشورات" بأن القضاة والعلماء والشيوخ والسادات و التجار، وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا"[٧].وهذه محاولة ذكية من المغول لإبعاد العلماء والقضاة والفقهاء.

---

(١) الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ،ص٢٩١.

(٢) أنظر ابن العبري ، مختصر الدول، ص٤٤٥-٤٤٦.

(٣) أنظر ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية و الدول الاسلامية ،ص:٣٣٦.

(٤) اليافعي، جامع التواريخ، ق١٤١ب، ابن أيبك ، المصدر السابق، ج:٨ ص:٣٥ .

(٥) العيني ، المصدر السابق، ج:١ ص:١٧٥.

(٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج:٤ ،ص:١٤٣٨، ابن الفوطي، المصدر السابق، ص:١٥٧، الغياثي، المصدر السابق، ص: ٤١-٤٢؛ الدياربكري، المصدر السابق، ج:٢، ص٣٧٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج:٦ ص:١١٠٦؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥ ص:٢٧١؛ النويري، المصدر السابق، ج:٢٧ ص:١٠.

(٧) الهمذاني ، المصدر السابق، م:٢ ، ج:١ ، ص٢٨٧.

عن مسرح الأحداث، وعدم خوض غمار المعارك، ولكن العلماء قاموا بواجبهم في الدفاع عن بغداد حيث قتل عدد منهم بالسيف ولم يستسلموا لوعود المغول وأمانيهم الكاذبة، بل نال عدد منهم الشهادة في سبيل الله، كما سيأتي معنا في المبحث القادم.

المبحث الثالث

أثر سقوط بغداد

يعتبر سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م من أعظم الوقائع التاريخية التي مرت بتاريخ الأمة الإسلامية، وقد نتج عن ذلك آثار سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية شملت العالم الإسلامي آنذاك، وكان لهذه الآثار أبعادا عدة على مستقبل الشعوب الإسلامية ودولهم وثقافتهم ولغاتهم[١].

أما الآثار السياسية فأبرزها سقوط الخلافة الإسلامية العباسية التي استمرت حاكمة للعالم الإسلامي ما يزيد على خمسة قرون ، بعد قيام المغول بإعدام الخليفة العباسي المستعصم بالله في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ، ثم أعدموا كبار رجال دولته[٢]، ثم قاموا بتتبع أفراد البيت العباسي فقضوا على كل شخص وجدوه حيا منهم، إلا أفرادا قلائل لم يأبهوا بهم[٣]. وبذلك انقرضت الخلافة في ذلك الوقت، وعاش العالم الإسلامي ردحاً من الزمن بدون خليفة[٤]، وهذه سابقة لم يعهدها المسلمون في تاريخهم من قبل. فقد كانت الخلافة ترمز إلى وحدة العالم الإسلامي الزمانية والروحية، وكان للخليفة مكانة خاصة كبيرة الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، وبالرغم من فقد منصب الخلافة للكثير من سلطانها وقوتها بسبب الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة إلا أنها كانت لا تزال تدخر قدرا من سلطانها

---

(١) أنظر: عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص١٣١.

(٢) ما عدا الوزير ابن العلقمي، فقد تولى وزارة بغداد للمغول ، وكان من المقربين للمغول. أنظر: رشيد الدين الهمذاني، المرجع السابق، م٢، جـ١، ص٢٩٥.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، المرجع السابق، م٢، جـ١، ص٢٩٤.

(٤) لقد أعاد المماليك العباسيين إلى الخلافة سنة ٦٥٩هـ وجعلوا مقرها في القاهرة ، ولكنها كانت خلافة إسمية لم يكن للخليفة فيها أمر أو نهي.

الأدبي والروحي في نفوس المسلمين، فلما سقطت بغداد وقتل الخليفة زال ذلك النفوذ[١].

وبسقوط بغداد تحت الاحتلال المغولي،فقدت المدينة مكانتها الأولى عاصمة للخلافة، وبالتالي فقدت مكانتها السياسية، حيث أصبحت مدينة ثانوية يعين عليها وال من قبل المغول[٢].

وقد نتج عن سقوط بغداد بيد المغول أمر آخر مهم وهو قيام الدولة الإيلخانية المغولية في بلاد العراق وفارس، آلت فيها السيطرة من بعد هولاكو إلى أبنائه الذين توارثوا السلطة من بعده في هذه الدولة[٣].

وقد استمرت هذه الدولة شوكة في نحر الأمة الإسلامية ، حيث اتخذت من العراق نقطة انطلاق لمحاولة الاستيلاء على كل من بلاد الشام ومصر، ولكن محاولاتها المتكررة منيت بفشل متتال[٤]، حيث وقفت دولة المماليك سداً أمامها.

وقد استمر الصراع بين دولة المغول الإيلخانيين والمماليك حتى تم عقد معاهدة للصلح بين الطرفين أنهت حالة الصراع المستمر بين الدولتين[٥]، ثم لم تلبث الدولة الايلخانية المغولية أن دخلت في مرحلة الضعف والانقسام و التشتت فصارت دويلات متنازعة.

أما الناحية الاجتماعية فالأثر واضح من خلال الأعداد الهائلة التي قتلت في بغداد، فلقد ذهب تحت السيف أعداد لا تحصى، فلا يقال: كم قتلوا؟ ولكن يقال:كم تركوا؟. ولم يزل أهل بغداد في قتل ونهب وأسر وتعذيب بأشد العذاب لاستخراج الأموال مدة أربعين يوما. وبعدها نودي بالأمان، فخرج من كان مختبئا، لا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وقد تغيرت ألوانهم وذهلت عقولهم مما شاهدوه من الأهوال التي

---

(١) أنظر: عبد السلام فهمي، المرجع السابق، ص١٢٢؛ الصياد، المرجع السابق، ص٢٨٠.

(٢) الصياد، المرجع السابق، ص٢٨٠.

(٣) انظر مريم بن لادن، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٤) سيأتي معنا مزيد توضيح لتلك المحاولات في الفصل القادم.

(٥) انظر المبحث المتعلق بذلك في الفصل القادم.

لا يعبر عنها بلسان[١]. وأما من قتل فإن جثثهم في الدروب والأسواق كالتلال ، وبعد أن وقعت عليهم الأمطار ، ووطئتهم الخيول ، تغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام[٢]، فانتشر الطاعون الذي عم الشام وديار مضر وغيرها عقب أخذ بغداد[٣]، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح[٤]، فاجتمع على الناس الغلاء و الوباء والفناء والطعن والطاعون. فمن سلم من الناس من القتل أخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[٥]. ولم ينج من تلك المذبحة أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن إلتجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانا، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم[٦].

أما الرافضة من أهل الحلة و الكوفة فإنهم أحرزوا أنفسهم وأولادهم وما قدروا عليه من أموالهم ، وحضر أكابرهم إلى هولاكو وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم بعد أن جمعوا مالاً عظيما وقدموه إليه[٧]. وبالتالي فإن حادثة سقوط بغداد كان لها أثر كبير في تغيير البنية الاجتماعية حيث أخذ مركز الشيعة يزداد ونفوذهم بدأ بالتوسع، خاصة وأن عددا من الرافضة داخلوا المغول وقدموا لهم الخدمات الكبيرة ونالوا الحظوة لدى المغول[٨]، ونتيجة لذلك انتشر التشيع في مناطق إيران والعراق بشكل لم يعهد من قبل[٩].

---

(١) انظر: ابن الفوطي، المصدر السابق، ص١٥٩.

(٢) ابن الغوطي، المصدر السابق، ص ١٥٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢١٦.

(٣) اليونيني، المصدر السابق، جـ١ ص١٧٤.

(٤) الغساني، العسجد المسبوك، دراسة وتحقيق شاكر عبد المنعم، ص٥٥٤؛ اليافعي،جامع التواريخ، ق١٤١ب.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢١٦.

(٦)اليافعي، المصدر السابق، ق١٤١ب، ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢١٥.

(٧) انظر ابن الفوطي، المرجع السابق، ص١٥٩.

(٨) أمثال ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي.

(٩) انظر : عبد الله الغامدي، المرجع السابق، ص٦٤.

ومن آثار سقوط بغداد انهيار الروح المعنوية لدى المسلمين حكاما وأفرادا كما يظهر من توافد حكام المسلمين على هولاكو بعد استيلائه على بغداد فقد قدم إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والأتابك سعد أتابك فارس، وكذلك الأخوان عز الدين يكاوس الثاني وركن الدين قلج أرسلان حكام سلاجقة الروم، ثم أرسل الناصر الأيوبي صاحب دمشق وحلب ابنه الملك العزيز. وقد تملك الخوف و الرعب قلوب هؤلاء من المغول، فبسقوط بغداد ضعفت عزائم حكام المسلمين إذ كان بعضهم يترقب ما ستؤدي إليه الأحداث، فعندما انهارت الخلافة العباسية أسقط في أيديهم وبدأوا في بذل الطاعة والولاء للمغول، عند ذلك خضعت المناطق المجاورة لبغداد للمغول إما صلحا أو عن طريق الاستيلاء عليها بعد مقاومة ضعيفة.

ومن آثار سقوط بغداد أن بقية البلاد الإسلامية أصبحت مكشوفة أمام المغول وبالذات بلاد الشام، لذلك واصلت قوات المغول تحركها نحو بلاد الشام، قاصدين الاستيلاء على الشام ومصر ليحكم بذلك المغول قبضتهم علىجميع بلدان العالم الإسلامي.

وأما الناحية العلمية فقد منيت الثقافة والفكر بطعنة نكراء على يد المغول حيث قتلوا أعدادا كبيرة من العلماء و الفقهاء وغيرهم من أهل الشعر و الأدب مع ما أتلفوه من الكتب القيمة[١]أو ما تسببوا في ضياعه من روائع كنوز العلم الإسلامي[٢]، وقد أحرق المغول جانباً عظيماً من أنفس الكتب، ورموا في دجلة من الكتب ما سود ماءها[٣].

يضاف إلى ذلك أن مكانة اللغة العربية قد اهتزت في المشرق الإسلامي، فقد انحصرت الكتابة باللغة العربية على الأبحاث الفقهية والفلسفية. وصارت لغة التخاطب

---

(١) يقول الهمذاني في ذلك: فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد وأخذوا يحرقون الأخضر و اليابس.

أنظر: جامع التواريخ م٢ جـ٢ ص٢٩١.

(٢) ذكر ابن الفوطي أن أهل الحلة والكوفة كانوا يجلبون إلى بغداد الأطعمة،ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة بأوهى قيمة .

أنظر: الحوادث الجامعة، ص١٥٩.

(٣) أنظر سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص١٣٩-١٤٠.

والإدارة هي اللغة الفارسية وغيرها من اللغات الأخرى، فنال الحياة العلمية خطر عظيم من جراء سقوط بغداد بيد المغول. أما العلماء الذين ذهبوا ضحايا للغزو المغولي لبغداد فمن الذين ذكرتهم المصادر :

- يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي[1](٥٨٠-٦٥٦هـ) االفقيه الأصولي الواعظ، الصاحب الشهير محي الدين، ولد ببغداد، وقرأ القرآن بالروايات العشر، واشتغل بالفقه والخلاف والأصول. وبرع في ذلك، وعلا أمره وعظم شأنه. روسل به إلى ملوك الأطراف، وأنشأ مدرسة الجوزية بدمشق وأوقف عليها أوقافا كثيرة، ولي حسبة بغداد، وولي تدريس المستنصرية، ثم ولي أستاذ دارية الدار. ولم يزل كذلك إلى أن قتل صبرا شهيدا بسيف المغول عند دخول هولاكو إلى بغداد.

و قد ترك من المصنفات:

١- المذهب الأحمد في مذهب أحمد .

٢- معادن الإبريز في تفسير الكتاب العزيز .

٣- الإيضاح في الجدل .

و قتل معه ابناؤه الثلاثة وهم:

- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن[2](٦٠٦- ٦٥٦هـ):

و كان فاضلاً بارعا درس بالمستنصرية، ولي الحسبة بعد أن تركها والده، وكان يعظ ببغداد، وحدث ببغداد ومصر، وله ديوان شعر .

---

(١) أنظر مصادر ترجمته :

ابن رجب،ذيل طبقات الحنابلة، ج:٢، ص٢٥٧-٢٦١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج:٣ ص:١٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج:١٣ ص:٢٢٣؛ المقريزي، السلوك لمعرفة الملوك، ج:١، ص:٤١٢-٤١٣؛ العيني، المصدر السابق، ج:١ ص:١٨٤؛ العليمي، الدر المنضد، جـ١ ص٣٩٦-٣٩٧؛النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج٢ ص٢٣؛ الثقفي، مصطلحات الفقه الحنبلي، ص:١٥٠ .

(٢) ابن رجب ،المصدر السابق، ج٢، ص:٢٦١-٢٦٢؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج:١٣،ص:٢٢٤؛ العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٧.

- شرف الدين عبد الله[1]:ولي الحسبة أيضا، درس، وولي ولايات ديوانية، وبعثه المستعصم بخطه إلى هولاكو كما سبق بيان ذلك عند الحديث عن السفارات.

- تاج الدين عبد الكريم[2]:ولي الحسبة أيضا لما تركها أخوه شرف الدين، ودرس بالمدرسة الشاطبية وقتل وعمره قرابة العشرين عاماً، وكان شابا ذكيا، حصل طرفا من علم النحو والفقه وتولى الحسبة .

وممن قتل أيضا :

- يحي بن يوسف بن يحي الأنصاري الصرصري، الضرير الفقيه، الأديب اللغوي الشاعر[3](٥٨٨-٦٥٦هـ): قرأ القرآن بالقراءات وسمع الحديث، كان يتوقد ذكاءاً، وله ديوان في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - ونظم في الفقه الكتب الآتية:

- مختصر الخرقي .
- زوائد الكافي على الخرقي .

ونظم في العربية، وفي فنون شتى .

كان صالحا عظيم الاجتهاد، كثير التلاوة، عفيفا، صبوراً، قنوعاً، وكان شديدا في السنة، منحرفا على المخالفين لها، وشعره مملوء بذكر أصول السنة ومدح أهلها، وله قصيدة لامية طويلة في مدح الإمام أحمد وأصحابه .

وعند دخول هولاكو إلى بغداد دعى إلى دار فيها فرمان فلم يجب،وأعد في

---

(١) ابن رجب، المصدر السابق، ج:٢ ،ص:٢٦٢؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج:١٣، ص:٢٢٤؛ العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٨.

(٢) ابن رجب، المصدر السابق، ج:٢ ،ص:٢٦٢؛ ابن كثير ،المصدر السابق، ج:١٣،ص:٢٢٤؛ الملك الغساني، المصدر السابق ص:٥٤٣-٥٤٤؛ العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٨.

(٢) ابن رجب المصدر السابق، ج:٢، ص:٢٦٣؛ ابن مفلح ، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق العثيمين ج:٣ ، ص:١١٤-١١٥؛ المقريزي،السلوك،ج:١، ص:٤١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج:٧ ،ص:٦٧؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ،ج٢٠ص١٤٣؛ العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٨؛ الغزاوي ، العراق بين احتلالين، ج:١،ص:٢٣٢ . شوقي ضيف،عصر الدول والإمارات ص:٤١٤-٤١٦. الثقفي، مصطلحات الفقه الحنبلي ص:١٥٠-١٥١ .

بيته حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الحجارة، فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم حيث طعنه في بطنه ثم قتلوه شهيدا وعمره عند استشهاده ثمان وستون سنة.

- علي بن سليمان بن أبي العز الخباز[١]:كان زاهدا صالحا، كبير القدر من شيوخ الدمياطي، حدث عنه في معجمه، قتل شهيدا في وقعة التتار سنة ٦٥٦هـ وألقي على مزبلة هناك، فبقي ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه.

- عبد الرحمن بن رزين بن عبد العزيز النسائي، الحوراني ثم الدمشقي[٢]: طلب العلم بدمشق ثم بغداد. وكان فقيها فاضلاً، وله من المصنفات :

- التهذيب في اختصار المغني.
- اختصار الهداية.
- تعليقة في الخلاف مختصرة.

ذهب إلى بغداد سنة ٦٥٦ هـ لأجل رفع حساب المدرسة التي بناها محي الدين ابن الجوزي بدمشق. فقتل شهيدا بسيف المغول.

- عبد القاهر بن محمد بن علي بن عبد الله الغوطي، البغدادي[٣](٥٩٦-٦٥٦هـ): الأديب، كان إماما ثقة، أديباً فاضلاً، حافظا للقرآن، وكان فقيراً ذا عيال، ولم يوافق نفسه على خيانة. ولي كتابة ديوان العرض. قتل في واقعة بغداد صبرا، وقد بلغ ستين سنة.

- محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو الثناء الزنجاني[٤]

(١) ابن رجب، المصدر السابق، ج:٢، ص: ٢٦٣-٢٦٤؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج:١٣، ص:٢٢٦؛ العيني، المصدر السابق، ج:١، ص:١٩٢؛ العليمي، المصدر السابق ، جـ١ ص٣٩٥؛ الغزاوي، المرجع السابق، ج:١،ص٢٣٠ .

(٢) ابن رجب، المصدر السابق،ج:٢، ص:٢٦٤؛ابن مفلح، المصدر السابق ، جـ٢ ص٨٨؛ العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٩؛ الثقفي، المصدر السابق، ص:١٥١ .

(٣) ابن رجب، المصدر السابق، ج:٢، ص:٢٦٤-٢٦٥.

(٤) السبكي، المصدر السابق، ج:٨، ص:٣٦٨؛ ابن كثير، طبقات الفقهاء الشافعيين، جـ٢،ص٨٧٨؛

(٥٧٣- ٦٥٦هـ) الفقيه الإمام الشافعي: كان رئيس الشافعية ببغداد، إشتغل في العلوم، وأفتى، ودرس بالنظامية والمستنصرية، وولي قضاء القضاة ببغداد مدة ثم عزل، وصنف في التفسير وكان من بحور العلم.

من كتبه غير التفسير، ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح. استشهد ببغداد بسيف التتار سنة ٦٥٦ هـ وعمره ٣٨ سنة.

- صدر الدين أبو الحسن علي بن الحسن ابن النيار[١] :

شيخ الشيوخ ببغداد. كان أولاً مؤدِبا للخليفة المستعصم بالله، فلما صارت إليه الخلافة، نال رفعة عظيمة وولاه مشيخة الشيوخ ببغداد. ثم قتل على يد المغول.

- أبو المحاسن بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي(٥٧٤-٦٥٦هـ) توفي شهيدا على أيدي التتار ببغداد[٢].

- محمد بن علي البغدادي المعروف بالتوحيدي سبط الشيخ عبد القادر الجيلي، توفي ببغداد شهيدا بأيدي التتار في صفر[٣].

كل هؤلاء كانوا ضحايا للغزو المغولي المدمر، فلم يخذلوا أمتهم عند محنتها، بل كانوا على قائمة الشهداء. رحمة الله عليهم.

=ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج:٢ ص:١٥٩-١٦٠؛ العيني، المصدر السابق، ج:١، ص:١٩٧؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج:٧،ص:٦٨؛ العزاوي، المصدر السابق، ج:١، ص:٢٢٩؛ عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح للجوهري، المقدمة ص:٢٠٠.

(١) ابن الغوطي، المصدر السابق، ص١٥٨؛ العيني، المصدر السابق،ج١ ص١٧٥؛ الغزاوي، المرجع السابق، ج١ ص٢٣٢؛ معروف ناجي، علماء المستنصرية، ج١ ص٧٩.

(٢) العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٩.

(٣) العليمي، المصدر السابق، جـ١ ص٣٩٩.

المبحث الرابع
قيادة العلماء للأعمال الجهادية في المدن الإسلامية ضد الحكم المغولي:

لقد كانت حملة هولاكو، عنيفة ومدمرة، ومما زاد الطين بلة تفكك حكام المسلمين وعدم اتحادهم، وبالتالي فإن الجهود التي بذلها العلماء والفقهاء كانت تصطدم بعقبات الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة الإسلامية في ذلك الوقت .

و على الرغم من ذلك نجد صفحات مشرقة من البذل و التضحية يتضح ذلك من خلال الأعمال الجهادية التي قاموا بها في مواجهة الغزو المغولي .

فبعد احتلال المغول بقيادة هولاكو لبغداد عاصمة الخلافة العباسية، شرع المغول في إنهاء المرحلة الأخيرة من الحملة التي يقودها هولاكو و هي الاستيلاء على بلاد الشام و مصر .

و تنفيذا لهذه المهمة اجتاحت قوات المغول شمال الجزيرة، إلا أنها تعثرت في ميافارقين[١] و تكبدت خلالها خسائر كبيرة قبل أن تتمكن من الاستيلاء على المدينة، بعد حصار دام قرابة السنتين[٢]. و إن صمود هذه المدينة و استبسال أهلها في الدفاع عنها هذه المدة الطويلة قد حدا بأحد الباحثين المعاصرين إلى أن يعتبر محمد الكامل[٣] حاكم ميافارقين هو الذي وضع حجر الأساس للانتصار الكبير في موقعة عين جالوت حيث وقف وقفة شجاعة و نبذ الأسطورة التي تقول إن المغول قوم

---

(١) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر بمنطقة الجزيرة (أنظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥ ص٢٣٥) .

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص:٢٨٠؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٨٥؛ سعد الغامدي، بطولة وفداء في ميافارقين، بحث منشور في مجلة الدارة، بتاريخ شوال ١٤٠٦هـ.

(٣) هو ناصر الدين محمد الكامل بن الملك المعظم شهاب الدين غازني ابن الملك العادل أبي بكر، ملك ميافارقين كان شجاعا صبر زمنا على حرب التتار، و حاصروه أكثر من سنة و نصف إلى أن فني أهل البلد، لفناء زادهم، و دخلها التتار فوجدوه مع من بقي من أصحابه، فقطعوا رأسه و حملوه إلى البلاد، وطافوا به في دمشق على رمح قصير. أنظر الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ، ص:٧١ .

لا يمكن الوقوف أمامهم[١].

و على الرغم من كون حاكم ميافارفين محمد الكامل، قد أعلن الولاء للمغول في بادئ الأمر، و سافر إلى خان المغول، إلا أنه لما عاد من عنده، و أخذت جيوش المغول في الزحف على الخلافة العباسية، خلع الطاعة، و حبس نواب التتار. وعندما طلب منه المغول أن يتوجه بعساكره إلى بغداد، ليشاركهم في الهجوم عليها، لم يفعل[٢]. وإن هذا التحول و التغير في سياسة محمد الكامل تجاه المغول وعلاقته بهم يدفعنا للبحث عن الأسباب في ذلك، و العوامل المؤثرة، و هل كان لأحد العلماء دور في اتخاذ هذا الموقف.

و الذي يدفعنا لذلك، أن هناك علاقة قوية بين محمد الكامل و بين أحد العلماء الذين برزوا في هذه الفترة و هو محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد الأنصاري، الحلبي المؤرخ المشهور."[٣].

و عند تتبع الروايات التاريخية، نجد أن محمد الكامل عندما اشتد عليه الأمر بعد نزول هولاكو على بغداد يرسل خطابا إلى ابن شداد الذي كان بحلب يطلب منه الإقامة بحلب إلى أن يجتمع به[٤].

و في هذا دلالة على أن هناك علاقة تربط بين الرجلين و ثقة متبادلة، حيث يطلب الكامل المشورة من ابن شداد بل و يسعى الكامل إليه في بلده، و ما هي إلا امتداد لمداولات وعرض وجهات نظر قد سبقت من قبل ،فهي ليست مبتورة لا سابق لها.

و قبل أن يتم اللقاء بينهما، إلتقى الكامل بالملك الناصر في دمشق، و كان رأي الكامل الخروج لقتال المغول عند بغداد و أن المداراة لا تجدي مع المغول، ولكن الناصرالذي وصفه بعض المؤرخين بأنه " جعل يتشاغل فيما لا يفيد، و يضيع أوقاته بعمل شعر

---

(١)سعد الغامدي، المرجع السابق ص:٨١ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ،ج:٣ ،ف:٢ ، ص :٤٨٤.

(٣)سبقت ترجمته.

(٤) ابن شداد ، المصدر السابق،ج:٣، ف:٢ ، ص:٤٨٤.

أو سماع قصيدة "[١] عرض على الكامل أن يصالحه مع هولاكو.

و بالتالي انتهى اللقاء بينهما إلى نتيجة سلبية حيث استخف الناصر برأيه[٢]، مع خطورة الموقف ، و ضرورة الإسراع في اتخاذ القرار و الموقف . ثم حصل اللقاء بين الكامل و ابن شداد[٣]، و أخذ في مشاورته في مجريات الأحداث، و ما فعله، والموقف الذي ينبغي أن يقفه.

و هنا صوب ابن شداد عمل الكامل في قصد الملك الناصر لتتوحد الكلمة ويكون موقفهما أيضا موحداً[٤]، و لكنه نبهه على أمر آخر، فإن كان الناصر لم يستجب فلم لا يقصد مصر فقال :" ما أصبت في رجوعك، هلا قصدت مصر"[٥].

و ابن شداد هنا ينبه على ضرورة الوحدة للبلدان الإسلامية لتقف صفا واحدا أمام العدو، و أجابه الملك الكامل فقال:" خفت على قلب الملك الناصر"[٦].

و هنا أشار عليه أنه إذا وصل إلى بلاده يخرج منها حريمه، و يستخلف بها نوابا ويعود إلى الملك الناصر لعل عزيمته تنهض فيعين الملك الكامل على بلوغ مراده[٧].

و ابن شداد هنا يؤكد على المسار الصحيح الذي يجب أن تسير فيه الأمة الإسلامية و هو رفع راية الجهاد و عدم الذل و الاستسلام، و أنه لا بد من الوقوف في وجه هذا العدو، و يؤكد على أهمية الوحدة بين حكام المسلمين وقد عمل الملك الكامل بمشورته في الصمود، و لكنه لم يرجع إلى الملك الناصر.

و وقعت ميافارفين تحت الحصار، و لكن ذلك كلف المغول الشيء الكثير، إلا أن المساعدات التي تلقاها المغول من بعض الحكام المسلمين و على رأسهم بدر الدين

---

(١) أنظر محي الدين ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص:٦٢، ابن طولون ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ج:١، ص:١٤٧.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٣١٤.

(٣ , ٤) ابن شداد ، المصدر السابق، ج:٢،ف:٢، ص:٤٨٧.

(٥ , ٦) أنظر ابن شداد ، المصدر السابق ، ج:٣،ف:٢،ص:٤٨٧.

(٧) أنظر ابن شداد ، المصدر السابق،ج٣،ف٢،ص٤٨٧.

لؤلؤ صاحب الموصل[١] أعانتهم على الاستمرار على الحصار حتى استطاعوا أخذ المدينة ، مع ما صاحب ذلك الحصار من نقصان في المواد التموينية لدى أهل المدينة وكذلك انتشار الأمراض[٢].

و لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على ميافارفين إلا بعد أن فتك فيهم صاحب ميافارفين. وبالتالي كبدهم خسائر كبيرة[٣].

و بالرغم من ذلك فقد تم استيلاء التتارعلى ميافارفين بعد سنتين من الحصار وبعد أن فني الجند من كثرة القتال و أسر من بقي و عددهم قليل، و أُخِذَ الكامل صاحبها وتسعة من مماليكه وأحضروا بين يدي هولاكو و قتلوا سنة ٦٥٨هجرية[٤].

و يحسن بنا الآن أن نعرج على موقف لعالم آخر كان يعيش في الشام أيام حملات هولاكو على العراق و الشام و هو "ابن العديم" [٥].

فبعد أن أرسل هولاكو رسالة إلى الملك الناصر الأيوبي يوعده فيها، أدرك الناصر حينذاك حقيقة الخطورة التي تحيط به، و هنا لجأ إلى الحل الذي سبق أن طرحه ابن شداد على الملك الكامل صاحب ميافارفين وهو الاستنجاد بأمراء مصر، وهنا جاء دور ابن العديم حيث سافر إلى مصر و حضر مجلسا عاما ضم الأمراء والأعيان والفقهاء، وقد أخبرهم ابن العديم بخطورة الموقف و اقتراب هجوم المغول على الشام[٦].

---

(١) أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج:٣، ص:٢٠٧؛ عصام الفقي، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، ص:٢٠٦؛ التكريتي، المرجع السابق، ص:٣٠٧.

(٢) ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢،ص٢٩٣؛ العلبي، معارك المغول الكبرى في الشام، ص:٦٠؛ التكريتي، المرجع السابق، ص:٣٠٧.

(٣) سيف الدين الهمذاني، المصدر السابق، ج:١،م:٢،ص:٣٢٢؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج:٣،ص:٢٠٣؛ عبد الله الغامدي، المرجع السابق، ص:٧٦؛ سعد الغامدي، المرجع السابق، ص:٨٢.

(٤) الهمذاني، المصدر السابق، ج:١،م:٢، ص:٣٢٢-٣٢٣؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٣؛ النويري، المصدر السابق، ج:٢٧،ص:١٨٣.

(٥) سبقت ترجمته.

(٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ج:٣. ص:١٩٩؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج:١٣،ص:٢٨٢؛ ابن خلدون،

و قد خرج ذلك المجلس بعدة نتائج منها وعد حكام مصر بنصرة الملك الناصرصاحب دمشق [١].

ومهما يكن فإن موقف ابن العديم هو تأكيد واضح لأهمية الوحدة بين حكام البلدان الإسلامية، ثم الوقوف صفا واحدا أمام المغول و رفع راية الجهاد .

وهنا نرى بوضوح أن العلماء اهتموا بجمع كلمة المسلمين ووحدة صفهم ورأوا ذلك من لوازم الجهاد وهو الحل النهائي لإخراج أعداء المسلمين من البلاد الإسلامية التي استولوا عليها.

وهذا يؤكد على أن علماء الأمة الإسلامية كانوا مدركين لمجريات الأحداث في عصرهم، محاولين بذل ما يستطيعون في سبيل تجنيب الأمة الكوارث والمخاطر المحدقة بهم ، كل حسب قدرته واستطاعته .

ومن هنا فإن أحد أهل العلم وهو العلامة موفق الدين أبو العباس أحمد بن يوسف الكواشي[٢] نزيل الموصل كان يبذل كل ما في استطاعته استطاعته في مناصحة بدر الدين صاحب الموصل، وكما هو معلوم فإن بدر الدين كان ممن خضع للمغول، وأعانهم في حربهم على البلدان الإسلامية، فكان هذا الشيخ الذي اشتهر بالتقى والورع ينكر كثيرا على بدر الدين[٣].

فعلى هذا يكون قد قام بما يجب عليه ونبه هذا الحاكم إلى خطأ مسلكه وسوء عمله. فأدى الأمانة وبرأ الذمة .

- المصدر السابق، ج:١٠،ص:٧٩٠؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج:٢،ص:٢٨٩؛ السيوطي، المصدر السابق، ص:٤٣٧.

(١) أبو الفداء، المصدر السابق، ج:٣ ص:١٩٩؛ العيني، المصدر السابق، ج:١ص٢٢٠-٢٢١؛ فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص:٣٨؛ عبد الله الغامدي، المرجع السابق، ص٧٠؛ محمد عمارة، معارك العرب ضد الغزاة، ص١٢١؛نعمان الطيب، جهود المماليك في تصفية الوجود المغولي بالشام، ص١٢.

(٢) أبو العباس أحمد بن يوسف بن الحسن الكواشي الزاهد المفسر، كان مشهورا بالتقى والورع، صنف التفسير الكبير والتفسير الصغير، وكان لا يقبل من أحد هدية، ولد سنة٥٩١هـ وتوفي سنة٦٨٠هـ.

(الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري،ص٣٠٦؛ ابن الوردي، المصدر السابق،ج٢ص٣٢٨).

(٣) الذهبي ، المصدر السابق، ص ٣٠٦-٣٠٧.

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى الجهة المقابلة، وتسليط الضوء على فئة أخرى ممن نالوا حظا من العلم ولكنهم لم يرفعوا بذلك رأسا حيث سقطوا تحت وطأة شهوات الدنيا وحب المناصب.

وقد ورد في المصادر أن نائب القضاة في دمشق جاءه التقليد من هولاكو - بعد تملكه الشام - بقضاء الشام استقلالا، والجزيرة والموصل. وهو القاضي كمال الدين عمر بن بندار التفليسي (٦٠١-٦٧٢هـ)(١).وقد أثنى عليه من ترجم له ، حيث وصف بالإحسان إلى المسلمين، وحقنه لكثير من الدماء وقام بكف أيد ظالمة عن الأموال، فحصل للمسلمين به خير كثير، وكان نافذ الكلمة عند التتار، لا يخالفونه. ولم يتدنس بشيء من الدنيا مع فقره وكثرة عياله.

ومع هذا لما زال حكم المغول عن الشام، افترى عليه أعداؤه أشياء، برأه الله منها، ولم يثبت عليه من ذلك شيء، فألزم بالسفر والإقامة بمصر، وظل بمصر حتى توفي سنة ٦٧٢هـ (٢).

والذي يظهر أنت هذا القاضي كان متأولا في فعله وتوليه القضاء حيث قام بما استطاع من كف الظلم ولو رفضه لوجدوا غيره ممن يعين على الظلم. و بالرغم من ذلك فإن قاضيين من قضاة المسلمين بالشام هما محي الدين ابن الزكي(٥٩٦-٦٦٨هـ)(٣) وابن سني الدولة(٥٩٠-٦٥٨هـ) (٤) تنافسا وتسابقا إلى خدمة هولاكو أثناء مقامه

---

(١) انظر ترجمته في المصادر التالية: ابن كثير، المصدر السابق، جـ٢،ص٩٠٥؛ السبكي، المصدر السابق، ج٨ ص٣٠٩؛ ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ ص٣٣٧-٣٣٨؛ ناجي معروف، المرجع السابق، ج١ص٧١-٧٢.

(٢) السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٣٠٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ص٢٨٢.

(٣) ابن الزكي هو: أبو الفضل يحي بن محمد بن زكي الدين القرشي الدمشقي الشافعي ولي قضاة دمشق مرتين فلم تطل أيامه، صدرا معظما، له في ابن العربي عقيدة تتجاوز الوصف. سار إلى خدمة هولاكو فأكرمه وولاه قضاء الشام وخلع عليه خلعة مذهبه، فلما تملك الملك الظاهر أوفده إلى مصر وألزمه بالمقام بها إلى أن توفي.

ابن كثير، طبقات الفقهاء الشافعيين، جـ٢،ص٨٩٦-٨٩٩؛ إبن العماد، المصدر السابق، ج٥ص٣٢٧-٣٢٨؛ النويري، المصدر السابق، ج٢٧ص٢٨٩؛ناجي معروف، المرجع السابق، ج١ص٧ ١-٧٢.

(٤) ابن سني الدولة: أحمد بن يحيى بن هبة الله قاضي القضاة، باشر قضاء الشام توفي سنة ٦٥٨هـ.

انظر: السبكي، المصدر السابق، جـ٨ ص٤١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣ ص٢٢٤.

بحلب، وكان كل منهما يأمل في قضاء الشام، وتحصل محي الدين ابن الزكى على قضاء الشام بعد أن بذل أموالا جزيلة، أما ابن سني الدولة فبعد رجوعه من عند هولاكومرض في الطريق، ومات ببعلبك[١].

وعلى ذلك نحي التفليسي عن قضاء الشام إلى قضاء حلب وأعمالها فقط وولى ابن الزكي الذي قدم دمشق ومعه تقليد القضاء وخلعة مذهبة، وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو[٢]، بعد أن جلس ابن الزكى في خدمة الأمير المغولي (إيل سنان) وبينهما زوجة الأمير المغولي حاسرة عن وجهها. وحين ذكر إسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤوس الناس[٣].

وظل الحال كذلك حتى رد الله الأمور إلى نصابها ورجعت الشام إلى حظيرة الدولة الإسلامية. فقام الملك الظاهر[٤] بإبعاد ابن الزكى إلى مصر وألزمه بالإقامة فيها حتى توفي سنة ٦٦٨هـ[٥].

وبالرغم من ذلك فإن العلماء والفقهاء المخلصين، قدموا أعز ما يملكون من دمائهم وأموالهم دفاعا عن دينهم وبلادهم فذهبوا ضحايا للغزو المغولي على يد هولاكو، ومن هؤلاء شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الحلبي الشافعي المعروف بابن العجمي، كان من الرؤساء المشهورين معروف بجلالة القدر، ومكارم الأخلاق وأنشأ بحلب مدرسة حسنة، ولما هجم التتر على حلب عذبوه في

---

(١) السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٤١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٣٥؛ طبقات الفقهاء الشافعية، جـ٢.ص٨٦٧؛ ناجي معروف، المرجع السابق، ج١ص٧١.

(٢) أبو شامة، المصدر السابق، ص٢٠٤ ؛ النويري، المصدر السابق، ج٢٧ص٣٨٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ص٢٣٥؛طبقات الفقهاء الشافعيين، جـ٢ ص٨٩٧؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٢٩٢.

(٤) بيبرس البندقداري، التركي، الصالحي، الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح، تسلطن سنة ٦٥٨هـ، وكان حسن السيرة، كثير الجهاد، صالحاً، لا يعرف ببلاده الخمر، و لا يقدم أحد على استعماله، توفي سنة٦٧٦هـ.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، جـ٢ ص٨٩٨؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٢٩٢.

الشتاء بأن صبوا عليه الماء البارد ليدفع لهم المال فتشنج وأقام أياما، ثم مات سنة ٨٥٦هـ[١].

وممن أصيب بماله وأهله من أهل حلب أيام حملات هولاكو على الشام :

-أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علوان بن رافع قاضي القضاة المعروف بإبن الأستاذ(٦١١-٦٥٨ هـ) [٢].

ولي قضاء حلب سنة٦٣٨ هـ وكان ذا وجاهة ومكانة عند الملك الناصر فلما خربت حلب أيام هولاكو كان من جملة من أصيب بماله وأهله فارتحل إلى الديار المصرية، ولما خرج المغول من الشام وطابت البلاد واستقر فيها الحكم الإسلامي رجع إلى حلب فلم يقم إلا أشهرا ومات. .

من تصانيفه شرح الوسيط في نحو عشرة مجلدات وهو من الكتب النوادر حيث ذكر ابن قاضي شهبة أنه عدم في فتنة التتار ولم يبق منه إلا اليسير[٣].

---

(١) ابن شاكر، عيون التواريخ، ج٢٠ص٢٣٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ٢ ص٨٨٥-٥٥٦.

(٢)ابن كثير، المصدر السابق، جـ٢ص٨٨٥-٨٨٦؛ ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ص١٦٢-١٦٣؛كحالة، معجم المؤلفين، ج١ص٢٩٥.

(٣) ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٢ص١٦٣.

الفصل الثالث

أثر علماء الشام و مصر في الجهاد ضد المغول

- دورهم في إذكاء الروح المعنوية والجهادية للمسلمين عقب سقوط بغداد.
- دورهم في شحذ همم المسلمين في معركة عين جالوت ومعركة حمص.
- دورهم في نشر الإسلام في صفوف المغول وإسلام بعض سلاطينهم.
- حملات سلطان المغول قازان على بلاد الشام بعد إسلامه و موقعة مرج الصفر.
- أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد المغول.
- معاهدة الصلح بين سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون وسلطان المغول بوسعيد سنة ٧٢٠هـ وموقف العلماء منها.

المبحث الأول

دور العلماء في إذكاء الروح المعنوية و الجهادية للمسلمين عقب سقوط بغداد

إن الروح المعنوية لها أهمية قصوى في المعارك الحربية، بل هي التي تقرر نتيجة المعارك، فمن حصلت له الهزيمة النفسية لم يعد له أمل في كسب المعارك، بل خسر المعركة سلفاً. فالعبرة إذا ليست بالتفوق بالعدد و العتاد، بل بنوعية الرجال الذين يقاتلون، و يؤكد ذلك قول الله عز و جل في كتابه:﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله**﴾[1]، و بالتالي فإن الأمة التي لا تتسلح بالعلم والإيمان أمة ضائعة، لأن هذين الأمرين هما السند الذي ترتكز عليهما الأمة في تقدمها و تطورها، و هما الدعامة التي تبني عليها عزتها و كرامتها. وإذا ضاع هذا السلاح من الأمة كان نصيبها من الحياة الجهل و العمى و الذل والضعف مما يورثها الفقر و الهوان.

وإذا أجلنا النظر زمن الحملات المغولية على بلدان العالم الإسلامي متتبعين للناحية المعنوية، نجدها في حالة انهيار، فالخوف والهلع سيطر على نفوس الناس، حتى إن الرجل الواحد من التتار كان يدخل القرية أو الدرب و به جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الرجل[2].

بل وصل الأمر أن رجلاً منهم أخذ رجلاً من المسلمين و لم يكن مع التتري ما يقتله به. فقال له: ضع رأسك على الأرض و لا تبرح. فوضع رأسه على الأرض، و مضى التتري فأحضر سيفاً و قتله به[3].

و هنا نلاحظ أن الخوف و الرعب منعاه من الهرب حتى بعد ذهاب التتري و كأن الشلل قد أصاب أطرافه، فلا يستطيع حيلة و لا يدفع عن نفسه أذى أو

---

(١) سورة البقرة، آية رقم:٢٤٩.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ص٥٠٠-٥٠١.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٢ص٥٠١.

مضرة، و ذلك منتهى الخذلان، و لم تكن تلك حالات فردية ، بل هي صورة مكررة لكثير من المسلمين تعم حكام المسلمين فضلاً عن عامتهم و دهمائهم، يظهر ذلك في موقف بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، و كذلك تخبط الملك الناصر صاحب الشام.

و زاد من شدة ذلك سقوط بغداد بيد التتار، و وصل الأمر بالبعض من المسلمين إلى اليأس، فهذا أحد أعيان دمشق و هو الزين الحافظي يقول بعد معركة عين جالوت:"ما كنت أظن أن الإسلام تقوم له قائمة"(١).وهو تعبير واضح عما كان في نفسه من مشاعر اليأس و لم يكن هو الوحيد الذي كان يشعر بهذا الشعور، فقد ذكر البدر العيني أن القلوب كانت قد يئست من النصر على التتار، لاستيلائهم على معظم بلاد المسلمين ، لأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه(٢).

و من هذا نستدل عل مدى اليأس و الاحباط الذي أصيب به المسلمون ، زخاصة بعد سقوط بغداد(٣).

و بالرغم من ذلك الوضع السيء فقد قام العلماء و الفقهاء المسلمون بدور كبير في الرفع من الروح المعنوية للمسلمين بكل ما أمكنهم من وسائل، ولم تكن جهود ابن شداد التي مرت بنا إلا نموذجا على المحاولات التي بذلها العلماء للرفع من الروح المعنوية مثل دعوته الملك الكامل الأيوبي صاحب ميافارفين لقصد مصر و توحيد الجهود من أجل وحدة الصف، و إيقاد جذوة الحماس في نفوس الحكام المسلمين للمقاومة و عدم الاستسلام و كذلك فعل ابن العديم مع الملك الناصر، حيث كان له دور في محاولة رفع الروح المعنوية ويتلخص في

---

(١) ابن شاكر الكتبي، المصدر السابق، ج٢ص٣٠٠.

(٢) عقد الجمان، ج١ص٢٤٥.

(٣) عندما وصل خبر محاصرة بغداد إلى الديار المصرية، أمر الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله الأئمة والخطباء أن يقتنوا في الصلوات الخمس ثم ورد الخبر أن بغداد ملكت فاشتد أسف المسلمين وحزنهم. انظر في ذلك: اليونيني، المصدر السابق، ج١ص٨٩.

قيامه بعمل مهم للغاية يمنع به أهل الشام من الاستسلام لقوات المغول. حيث توجه إلى المماليك في الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر و ذلك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م: "يستنجد المصريين على قتال التتار، و أنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام"[١].

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلساً بالقلعة عند الملك المنصور[٢]، و حضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري[٣]، و الشيخ عز الدين بن عبد السلام[٤]، و كذلك القضاة و الفقهاء و الأعيان لمشاورتهم[٥].

و كان أمر الديار المصرية بيد الأمير قطز[٦] لصغر سن الملك المنصور

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢ص٢٢٨؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص١٩٩؛ المقريزي، السلوك، ج١،ق٢،ص٤١٦.

(٢) الملك المنصور: نور الدين علي بن الملك المعز أيبك، ملك بعد والده وعمره عشر سنين، حكم من سنة(٦٥٥-٦٥٧هـ)، وكان صغيرا كثر اللعب، وكانت والدته تدبر أمر الملك تدبير النساء.

انظر ابن دقماق، المصدر السابق، ص٢٦٢؛ ابن العميد، المصدر السابق، ص٢٧.

(٣)سبقت ترجمته.

(٤) عز الدين بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، الدمشقي، الشافعي، سلطان العلماء، ولد سنة ٥٧٨هـ، وتوفي سنة٦٦٠هـ، كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، له مواقف مشهورة في نصرة الإسلام.

انظر في ترجمته: السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٢٠٩؛ ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ص٣٠١-٣٠٢؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات،ج٢ص٣٥٠؛ عيون التواريخ، ج٢٠ص٢٧٤؛ ابن تغرى بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١ص٤١٦؛ ابن قنفذ، الوفيات، ص٣٢٧؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ق١ج٢ص٣٥٠؛ المراغي، الفتح المبين في طبقات الأصوليين،ج٣ص٧٣.

(٤) المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٤١٦.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧ص٧٢-٧٣؛ اليافعي، جامع التواريخ المصرية، ق١٥٠.

(٦) المظفر قطز، سيف الدين أبو الفتح، قطز المعزي، التركي، الملك المظفر، تسلطن سنة ٦٥٧هـ، وتوفي قتيلا سنة ٦٥٨هـ.

بن المعز[١].

تم عقد المجلس، و أفاضوا في الحديث، وكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام، و خلص الاجتماع عن عدة قرارات في غاية الأهمية وهي:

الأول:إجابة الملك الناصر في طلبه للنصرة و المساعدة و مجاهدة التتار[٢].

الثاني: خلع الملك المنصور لصغر سنة و عدم كفايته[٣].

الثالث: تولية قطز للملك ليقوم بأمر الجهاد[٤].

الرابع: أن يؤخذ من الناس ما يدفع به العدو عند خلو بيت المال، و لكن بعد تساوي الأمراء و العامة في الممتلكات العامة[٥].

وقد ذكر ابن إياس دور الشيخ عز الدين ابن عبد السلام في ذلك المجلس فقال:

-انظر في ترجمته: الذهبي، دول الإسلام، ج٢ص١٢٦؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣ص٢٠١؛ عيون التواريخ، ج٢٠ص٢٤١؛ الملطي، نزهة الأساطين، ص٧٣؛ القرماني، المصدر السابق، ص١٩٨.

(١)انظر ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧ص٥٥؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢٢٠.

(٢) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص١٩٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٢٨-٢٢٩؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٤١٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج١٠ص٧٩٠؛ السيوطي، المصدر السابق، ص٤٣٧.

(٣) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص١٩٩؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧ص٥٥؛ ابن إياس، بذائع الزهور، ج١ق١ص٣٠٢؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢٢١؛ الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٢ص٢٣٠؛ عبد الملك العصامي، سمط النجوم العوالي،ج٤ص١٧.

(٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص١٩٩؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧ص٥٥؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ق١ص٣٠٢؛ العصامي، المصدر السابق، ج٤ص١٧؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص١٢١؛ الطباخ، المرجع السابق، ج٢ص٢٣٠.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٢٩؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٤١٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ق١ص٣٠٢؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢١٨؛ السيوطي، المصدر السابق، ص٤٣٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ص٣٨.

" لما تكامل المجلس قام شخص بين يدي الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وذكر هيئة سؤال في أمر هولاكو، و قد استولى على البلاد، و وصل حلب، و قد تقدم ما فعله ببغداد، و أن بيت المال خال من الأموال، و قد ضاق الوقت عن استخراج الأموال من البلاد، و قد اضطربت الأحوال، و أن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير، تركي، تخشاه الرعية، و أن السلطان الآن صغير السن، و ضاعت مصالح المسلمين، و العدو زاحف على البلاد، فما الجواب في ذلك؟

فأجاب الشيخ: "إذا طرق العدو البلاد، وجب على الناس قتاله، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار و أغنياء الناس ما يستعان به على تجهيز العسكر لدفع العدو، و لكن بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح و السروج والذهب و الفضة، و الكنابيش و الزركش، و السيوف المسقطة بالذهب، و أن وقت القتال يقتصر الجندي على فرسه و رمحه و سيفه يساوي في ذلك العامة، وأما أخذ أموال التجار و الأغنياء مع وجود إبقاء ما في بيت المال مما ذكر فلا يجوز أخذ مال الرعية بغير حق[١].و تم الاتفاق على سلطنة قطز وخلع الملك المنصور[٢].

ولما استقرت السلطنة لقطز أرسل القاضي برهان الدين الخضر[٣] في جواب رسالة الملك الناصر صاحب الشام، صحبة الصاحب كمال الدين بن العديم، ووعد الملك الناصر بالنجدة وانفاذ العساكر إليه. فتوجها ووصلا إلى دمشق و أديا الرسالة ولم يزل القاضي برهان الدين بن الخضر بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق و توجه إلى غزة[٤]، وعندها وصله خبر وصول التتار نابلس فرحل إلى العريش وسير القاضي برهان الدين بن الخضر رسولاً إلى

---

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ق١ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ق١ص٣٠٢.

(٣) برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري، تولى الحكم بديار مصر غير مرة، وولي الوزارة أيضا، وكان رئيسا، وقورا، مهيبا،توفي سنة ٦٨٦هـ.ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٣٢٩.

(٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧ص٧٣.

الملك المظفر قطز يطلب منه المعاضدة[١].

و مما سبق نلاحظ متابعة العلماء لمجريات الأحداث التي تمر بها بلاد المسلمين، و الدور الواضح الذي قاموا به في رفع الروح المعنوية و الجهادية، فإن فتوى العز بن عبد السلام كانت بمثابة السلطة الروحية التي ساعدت الملك المظفر قطز في الحصول على استجابة عامة المسلمين[٢]، فكان لتلك الفتوى الأثر المعنوي الكبير.

إضافة إلى ذلك فقد كتب العز بن عبد السلام أن يؤخذ من كل إنسان دينار لأجل دفع العدو[٣].

واستشار السلطان أيضا العز بن عبد السلام في الاقتراض من أموال التجار لقلة المال، فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرت ما عندك وما عند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام، وضربته سكة ونقدا وفرقته في الجيش و لم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت أطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وامتثلوا أمره[٤].

ومن خلال هذه المواقف نلمس بوضوح دور العلماء المسلمين عندما عصفت الأحداث الجسام بالأمة، واضطربت أحوال البلاد الإسلامية، فكان للعلماء أثرهم البارز في تثبيت الأمة وتغيير ما بها كما قال تعالى: **﴿إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٥]، وقوله سبحانه: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٦]، فالتغيير

---

(١) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٢؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢٣٢.

(٢)عبد الله الغامدي، المرجع السابق، ص١١٠.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٣ص٨٩٨؛ المقفى الكبير، ج٦ص٣٨٥.

(٤) السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٢١٥.

(٥) سورة الرعد، آية رقم: ١١.

(٦) سورة الأنفال، آية رقم: ٥٣.

نحـو الأفضـل وقيـام الأمـة بدورهـا المطلـوب لا بـد أن يسـبقه تهيئـة المجتمـع الإسلامي لحمل مسئولياته في مواجهة التحديات، ومن أجـل ذلـك انـبرى علمـاء أجلاء لتوجيه المجتمع وإرشاده وسيتضح لنا مزيدا مـن دورهـم فـي شـحذ همـم المسلمين في معركة عين جالوت ومعركة حمص في المبحث القادم.

المبحث الثاني
شحذ همم المسلمين في معركة عين جالوت ومعركة حمص

في الوقت الذي تمكن فيه المغول من القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، واصلوا سيرهم إلى الشام ولم يجدوا من الأمراء الأيوبيين مقاومة تردهم عن مواصلة هدفهم في السيطرة على بلاد الشام، ثم أصبحوا بعد ذلك في المواجهة مع المماليك حكام مصر. ونتيجة لبعض الأسباب وجد هولاكو أنه لا بد من الرجوع إلى عاصمته في المشرق، وعند ذلك وقع اختياره على كيتوبوقا[١] ليكون هو القائد الذي يخلفه.

ومهما يكن من أمر فإن هولاكو أرسل قبل إنصرافه رسالة إلى السلطان قطز وملأها بالتهديد والوعيد، وعند اشتداد الأمر استشاروا الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر[٢]. وعرض السلطان على الشيخ قلة المال في الخزانة واحتياجه إلى الاقتراض من التجار، فأجابه الشيخ بالموافقة على شرط إنعدام المال لديه، ولدى عسكره[٣].

ولما أقبل رمضان من عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م رسم السلطان للعسكر بأن يتجهزوا ليخرجوا للعدو بعد العيد، فطلع إليه العز بن عبد السلام وقال: قم، ما وجه تأخرك؟.قال: حتى نهيء أسبابنا فإنا عاجزون. قال: لا، قم.قال: أفتضمن لي

---

(١) كان شيخا كبيرا قد أسن، وكان يميل إلى دين النصارى، ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيزخان في الياسق.

ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٤٠.

(٢) ولقد كان لهذا أثر جيد، وإثارة للحماس، وتبديد ظلام التشاؤم والخوف والرعب من الهزيمة أمام المغول.

(٣) السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٢١٥.

على الله النصر؟.قال: نعم[١].

ومن هذا يتبين لنا شدت حث العز بن عبد السلام للسلطان على الجهاد وشحذه لهمته للخروج إلى الجهاد وهو في هذا يتمثل أمر الله سبحانه حيث يقول لرسول الله ﷺ ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، وحرض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا**﴾[٢] وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال**﴾[٣]، والتحريض هو المبالغة في الحث[٤].

ومما لاشك فيه أن أثر ذلك الحث والتحريض قد انعكس على السلطان قطز، فنرى ذلك واضحا في خطاب السلطان للأمراء عند خروجه لعين جالوت حيث قال: "يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه إلى الله ورسوله، فمن اختار منكم الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه"[٥].

ومما يزيد موقف العز بن عبد السلام وضوحا في شحذ الهمم هو قيامه بتأليف كتاب عن الجهاد جعل عنوانه "أحكام الجهاد وفضائله"[٦] وقد جمع فيه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقسمها على فصول متعددة،

---

(١) السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٢١٢، ولعله بهذا يتأول قوله تعالى:﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾، سورة النور، آية رقم: ٥٥، وكذلك قول الله سبحانه: ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ سورة الروم، آية رقم:٤٧.

(٢) سورة النساء، آية رقم: ٨٤.

(٣) سورة الأنفال، آية رقم: ٦٥.

(٤) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية من علم التفسير، ج٢ص٣٢٤، طبع دار الفكر.

(٥) ابن دقماق، المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٦) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، وقد قام بتحقيقها د.نزيه حماد نشر مكتبة دار الوفاء للنشر.

وعلق على تلك النصوص القرآنية والحديثية بتعليقات موجزة تبين أهم ما فيها من دلائل، وتشير إلى ما يتعلق بها من أحكام. و مما ورد في الكتاب قوله: "من قاتل في سبيل الله بنفسه، وحث على ذلك فقد باشر الجهاد بنفسه، وتسبب إلى تحصيله بحثّه، فحاز أشرف التسبب والمباشرة، وكان حثه على ذلك أمرا بالمعروف الذي هو تلو الإيمان، وإذا كان هذا لمن تسبب بقوله، فما الظن بمن تسبب إلى ذلك بقوله وفعله، فجند الأجناد، وباشر الجهاد!" [١]. ومما لاشك فيه أن لهذا أثرا في شحذ الهمم و دفعها للجهاد بروح عالية وعزيمة قوية، وبخاصة أن حديث العلماء أوقع في نفوس الجند من حديث القائد نفسه، فتمكن بذلك العز بن عبد السلام أن يغرس في نفوس الناس الروح الجهادية لمواجهة الطغيان المغولي.

ومهما يكن فإن السلطان قطز توجه بالجيش لملاقاة المغول في عين جالوت[٢] في شهر رمضان سنة٦٥٨هـ ودارت رحى المعركة يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ، فانهزم المغول هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين، وقتل مقدهم، وأسر ابنه، وتعلق من سلم من المغول برؤوس الجبال وتبعهم المسلمون، فأفنوهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق[٣]. ولاشك أن معركة عين جالوت كانت نقطة تحول مهمة، فقد تحول المد المغولي إلى جزر حيث هزم المغول لأول مرة في تاريخهم، وتلاشت المقولة الخرافية بأنهم لا يقهرون، فكان انتصار المسلمين في معركة عين جالوت انتصارا عظيما. وعلى إثر ذلك استرجع المماليك من المغول بلاد الشام وطردوا المغول منها، وبقي المغول في العراق وبلاد فارس والأجزاء الشرقية الأخرى، وخلصت بلاد الشام للمسلمين.

---

(١) العز بن عبد السلام، أحكام الجهاد وفضائله، ص٥٥.

(٢) بلدة بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين (انظر معجم البلدان ج٤ ص١٧٧)

(٣) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص١٦٦؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٥؛ أبو شامة، المصدر السابق، ص٢٠٧؛ ابن دقماق، المصدر السابق، ص٢٦٨-٢٦٩؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢٤٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج١٠ص٢٨٠.

السعيد[١] صاحب الصبيبة وبانياس[٢]، حيث وقع أسيرا في معركة عين جالوت فضربت عنقه بين يدي الملك المظفر قطز في سنة ٦٥٨هـ [٣]، وإضافة إلى خيانته للمسلمين وقتاله مع المغول فقد أعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين[٤] ولهذا أقيم عليه الحكم بالقتل. وكذلك عند دخول المظفر قطز إلى دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار[٥]، ومثل ذلك وقع في حماة حيث تم القبض على جماعة ممن كانوا مع المغول[٦].

ومهما يكن فقد حدث أمر غير متوقع بعد رجوع السلطان قطز منتصرا في طريقه إلى مصر، حيث هجم عليه أحد الأمراء وهو بيبرس البندقداري[٧] وقام بقتله، وتولى بذلك مقاليد الحكم، وطلب البيعة لنفسه ولكن العز بن عبد السلام قال له: "يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار"، فما بايعه حتى جاء من شهد

---

(١) الحسن بن عثمان بن محمد، الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل الأيوبي، فقد داخل المغول وناصحهم، قتله صبراً المظفر قطز.

المرتضى الزبيدي، المصدر السابق،ص٥٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٣٨.

(٢) با نياس اسم لبلدة صغيرة قريب دمشق من الجنوب الغربي والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون = المنيعة. (انظر أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص٥٥٥).

(٣) ابو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٥؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٣٨؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٢٩٥؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج١ص٢٦٤.

(٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٤؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٢٣٥؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٢٩٥.

(٥) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٥؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٢٩٦.

(٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣ص٢٠٦؛ ابن الوردي، المصدر السابق،ج٢ص٢٩٦.

(٧) سبق ترجمته.

انظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٨٨. و انظر ترجمته في المصادر التالية:اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج٣ص٢٣٩؛ الذهبي، دول الإسلام، ج٢ص١٣٦؛ إبن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١ص٢٣٥ ؛القرماني، أخبار الدول، ص١٩٨-١٩٩.

له بالخروج عن ملكه إلى الملك الصالح، وعتقه[1].

وقد استفتى السلطان في سبي عين جالوت وكسبه، وهل لذرية الملك المظفر قطز فيه حق، أم لا، فأفتي في ذلك بالشرع، وحمل عليه[2].

وهكذا كانت الحاجة ماسة في دولة المماليك لكي تسترشد الأمة بأقوال العلماء، وتهتدي بنور علمهم، وترجع إلى فتاوي الفقهاء، لكي يقوموا بتوضيح أحكام الجهاد وما يحتاج إليه من المسائل الشرعية المتعلقة بالجهاد، فالحاجة ماسة إليهم لإقامة شعائر الإسلام، والعمل بأحكامه في جميع الأمور.

وواصل الملك الظاهر بيبرس الجهاد ضد المغول بعزيمة لا تلين، وقد أقدم الظاهر بيبرس على إحياء الخلافة العباسية، حيث قدم أحد أفراد البيت العباسي وهو أحمد بن الخليفة الظاهر بن الناصر، فاستدعاه الظاهر بيبرس وعقد مجلسا دعا إليه االعلماء والقضاه والأمراء وحضر أيضا شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام. وعند ذلك شهد الشهود بصحة نسب هذا القادم وأنه الأمير أحمد ابن الخليفة الظاهر بن الناصر، وقبل قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشهادة[3]، ثم تقدم وبايعه بالخلافة، ثم بايعه السلطان الظاهر بيبرس بالعمل بالكتاب والسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل ا لله. ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم بايعه الناس بعد ذلك ولقب بالمستنصر با لله، وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ ثم توجه الخليفة العباسي للجهاد، واستعادة بغداد، وقد استشهد في معركة قرب هيت[4] سنة ٦٦٠هـ على أيدي المغول وممن قتل معه من العلماء

---

(١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١ص٥٩٦.

(٢) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي تاج الدين ابن بنت الأعز قاضي القضاة ولد سنة ٦٠٤هـ كان رجلا فاضلا ذكي الفطرة حاد القريحة صحيح الذهن رئيسا عفيفا نزها ، جميل الطريقة، حسن السيرة ، مقدما عند الملوك ، ذا رأي سديد ، وذهن ثاقب وعلم جم ، توفي سنة ٦٦٥هـ بالقاهرة .(انظر السبكي، طبقات الشافعية، ج٨ ص٣١٨)

(٤) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد. (معجم البلدان، جـ٥ ص٤٢٠-٤٢١).

معه من العلماء الذين خرجوا معه للجهاد القاضي كمال الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي عزالدين السنجاري الحنفي، حيث كان وزيرا للخليفة[1]،وكذلك استشهد الشيخ محمد بن علي بن سعيد ابن أبي جرادة الحلبي المنعوت بالشرف[2].

وهذا يدل على مشاركة العلماء في صنع الأحداث التي تلت عين جالوت، فمن مبايعة الخليفة العباسي إلى الخروج معه للجهاد بل واستشهاد البعض منهم معه في المعركة.

وفي سنة٦٦١هـ/١٢٦٢م خرجت فتوى من العلماء بقتل الملك المغيث[3] صاحب الكرك، وذلك لخيانته للمسلمين ومكاتبته للمغول يطمعهم في بلاد المسلمين ويحرضهم على ذلك[4].

وقد قام الملك الظاهر بيبرس بالقبض على الملك المغيث، وأخرج كتب الملك المغيث إلى المغول، وكذلك كتب المغول إجابة على كتبه، وأخرج فتاوي الفقهاء بقتله، وعرض ذلك على ابن خلكان[5]، وكان قد استدعاه من دمشق، فكانت الفتوى بوجوب قتل المغيث، وفسخ اليمين التي حلفها له

---

(١) هو القاضي كمال الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي عزيز الدين السنجاري، الحنفي، تولى التدريس بمدارس دمشق، كان فاضلا عالما بمذهب أبي حنيفة، كان كريما سمحا جوادا، سافر صحبة المستنصر بالله واستشهد معه.

انظر: اليونيني، المصدر السابق، ج١ص٥٠٠-٥٠١.

(٢) اليونيني، المصدر السابق، ج١ص٥٢٤-٥٢٥.

(٣) كان كريما مفرطا ، نزل عليه الظاهر بيبرس وتحيل عليه حتى نزل إليه فخنقه .(انظر اليماني ، غربال الزمان ، ص٥٤٢)

(٤) اليونيني، المصدر السابق، ج٢ص١٩٣؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ص٣٠٨.

(٥) شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان البرمكي كان فاضلا عالما تولى القضاء بمصر والشام، وله مصنفات جليلة، مثل وفيات الأعيان في التاريخ وغيرها مولودة سنة ٦٠٨هـ، ووفاته سنة ٦٨١هـ.(أنظر: ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٢٨.)

الظاهر[1]، ولا شك أن في هذه الفتوى التي صدرت من علماء المسلمين وفقهائهم، قطع لدابر الفتنة، وقضاء على المرجفين الذين يسعون في الأرض بالفساد، ويدلون العدو على عورات المسلمين وعند ذلك نفذ الحكم الشرعي في الملك المغيث، حيث تم إعدامه.

ومهما يكن فإن هناك علماء أجلاء قاموا بنصرة الحق، وتوضيح مسائل الجهاد، وما يتعلق بها من أحكام، وهمهم في ذلك إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، و إن لم يرض الحكام بذلك، ومن هؤلاء الشيخ محي الدين يحيى بن شرف أبو زكريا النووي ثم الدمشقي، الشافعي، كبير الفقهاء في زمانه، ولد سنة ٦٣١هـ بنوى، قدم دمشق سنة ٦٤٩هـ، طلب العلم، وبرز فيه، ثم شرع بالتصنيف فجمع شيئا كثيرا، كان صاحب زهد، وعبادة مع الورع، وكان لا يضيع شيئا من أوقاته، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم، وكانت وفاته سنة٦٧٦هـ[2].

فقد حدث أن احتاط الظاهر بيبرس على أملاك الشام، فكتب إليه الإمام النووي رسالة مطولة من جملة ما قال :"فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من العلماء، بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته،وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به،

---

(١) شافع بن علي، المصدر السابق، ص١١٦-١١٧؛ أبو الفداء، المصدر السابق،ج٣ص٢١٧؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٥٢؛ اليونيني، المصدر السابق، ج١ص٥٣٢-٥٣٣؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص٣٧٢؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢ص٣٠٨.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٥ص٣١٢؛ دول الإسلام،ج٢ص١٣٥؛ تذكرة الحفاظ، ج٤ص١٤٧٣؛ اليونيني، المصدر السابق، ج٣ص٢٨٣؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٢٩٤؛ السبكي، المصدر السابق، ج٨ص٣٩٥؛ ابن الفرات، تاريخ إبن الفرات، ج٧ص١٠٨؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٦٤٨؛ إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧ص٤٧٨؛ إبن العماد، المصدر السابق، ج٥ص٣٥٤؛ إبن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٤ص٢٦٤؛ عيون التواريخ، ج٢١ص١٦٠-١٦٦؛ العيني، المصدر السابق، ج٢ص١٩٥؛ المراغي، المصدر السابق، ج٣ص٨١.

وقد ترك النووي ثروة علمية فله مصنفات عديدة منها رياض الصالحين، و منهاج المسلم في شرح

فهو أولى من عمل به، والمسؤول إطلاق الناس من هـذه الحوطـة، والإفـراج عـن جميعهم، فـأطلقهم أطلقـك الله مـن كـل مكـروه، فهـم ضعفـة، وفيهـم الأيتـام، والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون، وبهم تنصر وتغاث وترزق".إلى كـلام طويل في هذا الشأن[1]. وعند وصول الخطـاب إلـى الظـاهر بيـبرس رد عليـه ردا عنيفا مؤلما، إتضح من خلالـه عـدم وضـوح بعـض أحكـام الجهـاد لـدى الظـاهر بيبرس مما أوقعه في بعض الأخطاء، فكان رد الإمام النـووي عليـه بخطـاب آخـر يوضح له بعض الأحكام المتعلقة بالجهاد، ومما جاء فيه قوله: "وفهمنا أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عنـد الحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾[2]. فوجب علينا حينئذ بيانه، وحرم علينا السـكوت، وقال الله تعالى﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسـوله مـا علـى المحسـنين مـن سـبيل والله غفور رحيم**﴾[3]. وذكر الجواب أن الجهاد ليس مختصا بالأجنـاد وهـذا أمـر لـم ندعه. ولكن الجهاد فرض كفاية فإذا قرر السلطان له أجنـادا مخصوصيـن، ولهـم أخباز معلومة من بيت المال، كمـا هـو الواقـع، تفـرغ بـاقي الرعيـة لمصـالحهم، ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزراعة والصنـائع، وغيرهـا ممـا يحتـاج الناس كلهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم، ولا يحل أن يؤخـذ من الرعية شيئ مادام في بيت المال شيء مـن نقـد أو متـاع، أو أرض، أو ضيـاع تباع، أو غير ذلك، وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان-أعز الله أنصـاره- متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله تعالى معمور، زاده الله عمـارة واسـعة

=صحيح مسلم، وكتاب الأذكار، وشرح المهذب وكتاب الإيضـاح فـي المناسـك، وكتـاب الإيجـاز، وكتاب التبيان في آداب حملة القرآن، والخلاصة في الحديث، وكتاب الأربعين النووية.

(١) أنظر نص الرسالة: السيوطي، المنهاج السوي في سيرة الإمام النووي ص٧١-٧٤.

(٢) البقرة، آية٢.

(٣)التوبة،آية٩١.

وخيرا وبركة بحياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين،﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾[١]، وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبي ﷺ، وملازمة أحكام الشرع". ثم يواصل خطابه حتى يقول:"وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن، بطغاة الكفار! وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا؟" [٢].

ويتضح من الخطابين أن السلطان بيبرس رأى أن بلاد الشام أصبحت بعد تطهيرها من المغول غنيمة يحتاط عليها، ليصرفها على نفقة الجنود ليواصل الجهاد، ولكن العلماء لم يوافقوه على هذا الرأي بل ردوا الأمر إلى نصابه وفق الأحكام الشرعية، فقد ورد أن الظاهر لما احتاط على أملاك الشام، وجمع العلماء تكلم القاضي شمس الدين أبو الحسن علي بن محمود بن علي الشهرزوري الشافعي[٣] وكان مهيبا قوي النفس، فتكلم بكلام خشن وقال للسلطان: الماء والكلأ والمرعى لله تعالى لا تملك، وكل من بيده ملك فهو له، ثم نفض ثيابه وقام والسلطان ساكت، وانفصل المجلس على كلامه[٤].

وأراد السلطان أن يحكم قاضي الحنفية في المسألة السابقة بمقتضى مذهبه، وكان قاضي الحنفية آنذاك شمس الدين أبو محمد عبد الله ابن محمد بن

---

(١) الأنفال، آية ١٠.

(٢) السيوطي، المصدر السابق، ص٧١-٧٤.

(٣) الشهرزوري: شيخ فقيه إمام عارف بالمذهب، موصوف بجودة النقل، حسن الديانة، قوي النفس، ذو هيبة ووقار، ناب في القضاء عن ابن خلكان، توفي في شوال سنة ٦٧٥هـ. (أنظر: طبقات الشافعية، جـ٨ ص٣٠٠-٣٠١).

(٤) الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص٢٨٣؛ السبكي، المصدر السابق، جـ٨ ص٣٠١.

عطاء الأذرعي الحنفي[١]، فعندما عرض عليه ذلك غضب وقال: هذه أملاك بيد أصحابها، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ثم نهض من المجلس وذهب، وغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً[٢].

و هذا يوضح إصرار العلماء على شرح مسائل الجهاد و ما يتعلق بها من أحكام، و إن كان في ذلك سخط الحكام.

ويدل على ذلك أيضا أن السطان الظاهر بيبرس لما خرج إلى قتال التتار بالشام، أخذ فتاوي العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فكتب له فقهاء الشام بذلك، فقال:" هل بقي أحد؟ فقيل: نعم، بقي الشيخ محي الدين النووي، فطلبه فحضر، فقال: أكتب خطك مع الفقهاء، فامتنع. فقال: ما سبب امتناعك؟. فقال:أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم من الله عليك و جعلك ملكا، و سمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة[٣] من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الذهب، فإذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية. فغضب الظاهر من كلامه، وقال:أخرج من بلدي- يعني دمشق- فقال: السمع والطاعة.

وخرج إلى نوا[٤]. فقال الفقهاء:إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ وقال: لا أدخلها

---

(١) الأذرعي: قاضي القضاة ولد سنة ٥٩٥هـ ، تفقه على مذهب أبي حنيفة، وناب في الحكم عن الشافعي مدة، ثم استقل بقضاة الحنفية، وكان من العلماء الأخيار، كثير التواضع كثير الرغبة في الدنيا، توفي بدمشق سنة ٦٧٣هـ. (انظر البداية والنهاية، جـ١٣ ص٢٨٤).

(٢)ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢٨٤؛ العيني، المصدر السابق، ج١ص١٣٥.

(٣) الحياصة بنقر الحزام أو المنطقة، أي ما يشد في الوسط، أنظر: العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٢١٩ حاشية رقم(١).

(٤) بليدة من اعمال حوران ، بينها وبين دمشق منزلان (معجم البلدان ج٥ ص٣٠٦).

والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر(١).

وبعد وفاة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م(٢)، لم يدم الملك في ذريته فقد تولى الحكم ولده الملك السعيد(٣) مدة سنتين ثم خلع و تولى الملك أخوه سلامش(٤)، وكان صغير السن و أمور البلاد بيد قلاوون(٥)، واستمر الأمركذلك مدة خمسة شهور ثم عزل سلامش و تولى قلاوون الحكم سنة٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، فلم يلبث إلا قليلا حتى خرج عليه الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، فإنه لم يحلف ولا رضي بما جرى من خلع سلامش و سلطنة قلاوون، فلم يلتفت أهل دمشق إلى كلامه. وخطب بجامع دمشق للملك المنصور قلاوون وكذلك جوامع الشام بأسرها، خلا مواضع يسيرة توقفوا، ثم خطبوا بعد ذلك(٦).

ويتضح من هذا الخبر أن خطباء الجوامع في بلاد الشام وهم ممن ينتسب إلى العلم الشرعي كانوا أداة قوية في بناء الوحدة الإسلامية، فلم ينجرفوا في مجاراة من شق وحدة الصف ولم يخطبوا له على المنابر، وفي ذلك تأكيد على مبدأ الوحدة الإسلامية والتي هي رافد مهم لاستمرار الجهاد الإسلامي أمام خطر المغول.

و مهما يكن فإن الملك المنصور قلاوون أرسل جيشا إلى الشام سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م لإنهاء فتنة الأمير سنقر الأشقر الذي لم يحظى بتأييد من أهل

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ص١٠٥.

(٢) ابن الغوطي، المصدر السابق، ص١٨٨.

(٣) هو الملك السعيد محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس، تولى الحكم بعد وفاة والده، وقام على نظام والده قليلا، ثم خامر عليه الجند، وألزم بأن يخلع نفسه، فنزل عن الحكم سنة٦٧٨هـ، ولم يلبث أن توفي في تلك السنة. انظر: ابن دقماق، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٤) هو السلطان سلامش بن الملك الظاهر بيبرس، تولى بعد أخيه و عمره سبع سنين و شهر، ومكث كذلك خمسة شهور و أياماً ثم عزل. انظر:ابن دقماق ، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(٥) هو الملك المنصور قلاوون الصالحي تولى الحكم سنة٦٧٨هـ وتوفي سنة٦٨٩هـ.
انظر ابن دقماق، المصدر السابق، ص٢٩٥ وما بعدها.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧ص٢٩٢-٢٩٣.

الشام، وبعد معارك طاحنة لاذ سنقر الأشقر بالفرار إلى بعض الحصون في الشمال مثل شيزر وصهيون. ومن هناك أرسل يستنجد بالمغول والصليبيين جميعا ضد خصمه قلاوون وكان هذا سببا في تشجيع المغول على مهاجمة البلاد الإسلامية فأرسل المغول في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م جيشا إلى بلاد الشام حيث دخلوا حلب وقاموا ببعض الأعمال التدميرية كعادتهم، ولكنهم أسرعوا بالعودة عندما علموا بخروج السلطان لقتالهم.

وكان السلطان قلاوون قد قام بعقد هدنة مع الصليبيين، وبعد ذلك استطاع استمالة الأمير سنقر الأشقر، ليتفرغ لمحاربة المغول الذين حشدوا قواتهم بقيادة منكوتمر[١] سنة٦٨٠هـ/١٢٨١م وتوجهوا إلى حمص حيث وقعت معركة حمص، وهنا أخذ أئمة الجوامع والمساجد بالقنوت في الصلوات.

وأصبح ذلك سائدا بين عامة الناس حيث ورد أن أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى أن لقي التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج الناس إلى الجوامع والمساجد وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك حتى ورد عليهم خبر النصر[٢]، حيث حلت هزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن قتل منهم عدد كبير.

ومما لا شك فيه أن الاستعداد المعنوي والروحي لدى المسلمين كان كبيرا حيث الدعاء والتضرع والابتهال مما يقوي العزائم ويدعو للثبات والتضحية، والناس في هذا تبع للأئمة والخطباء في المساجد، يضاف إلى ذلك مشاركة أهل العلم في الجهاد في المعارك وممن شارك في معركة حمص الشيخ عبد الله بن محمد ابن عبد الله اليونيني(٦٠٤-٦٨٠هـ) الملقب بشيخ الإسلام

---

(١) أخو ابغا بن هولاكو المغلي، طاغية التتار كان نصرانياً جرح يوم المصاف على حمص ، وحصل له ألم وغم (بالكسرة) ، واعتراه فيما قيل صرع كما اعترى اباه. فهلك في أوائل المحرم سنة ٦٨١هـ وكان شجاعاً جريئا مهيباً.(انظر الدرر الكامنة ج٥ ص ٣٧٥)

(٢) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ص٣٠٥.

وأسد الشام[١] فقد حضر مصاف حمص بين المسلمين والتتر، وقاتل قتالا شديدا، واستشهد في تلك الموقعة. وشارك أيضا في المعركة شافع بن علي بن عباس الكناني(٦٤٩-٧٣٠هـ) وقد أصيب بسهم في صدغه عمي على أثره، وقد اعتكف في بيته بعد ذلك، ووقف وقته على تأليف الكتب، وكان يقتني من الكتب الشوارد، ولديه مكتبة حافلة بالكتب[٢].

ومع هذا الجهد الكبير في ميادين القتال، قام العلماء المسلمون بدور آخر لا يقل أهمية، وهو القيام بالدعوة ونشر الإسلام بين صفوف المغول وهذا ما سنراه في المبحث القادم.

---

(١) كان رجلا كثير التعبد، سليم الصدر، كريم الأخلاق، لين الكلمة، متواضعا، ولد بظاهر بعلبك سنة٦٠٤هـ، واستشهد في معركة حمص سنة٦٨٠هـ.(اليونيني، ذيل المصدر السابق، ج٤ص١١١.)

(٢) شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني، ثم المصري، كاتب، مؤرخ وولد سنة ٦٤٩هـ وتوفي سنة٧٣٠هـ، روى عن الشيخ جمال الدين بن مالك وغيره، وروى عنه أثير الدين أبو حبان و علم الدين البرزالي وغيرهم.
الكتبي، فوات الوفيات، ج٢ص٩٣.

المبحث الثالث

دور العلماء في نشر الإسلام في صفوف المغول

لقد كان من وسائل مقاومة الغزو المغولي أن قام العلماء بدور فعال في نشر الإسلام في صفوفهم مما ترتب عليه إسلام عدد من سلاطين المغول وقادتهم وتحول كثير من المغول فيما بعد إلى الاسلام، فالإسلام لم يكتف بالمحافظة على بقائه فقط بل استطاع كسب أتباع جدد وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى:﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا** ﴾(١).

وإن تحول المغول إلى الإسلام قد استغرق فترة من الزمن، قام خلالها عدد من العلماء بتوضيح الإسلام وشرحه للمغول . وهكذا امتثلوا أمر الله تعالى حيث يقول:﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾(٢) وكذلك قوله سبحانه﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾(٣) ومن هذا التوجيه الرباني انطلق العلماء يحملون الدعوة إلى الإسلام بين صفوف المغول وقد ساعدهم في ذلك عدد من العوامل، أهمها :

١- أن الإسلام دين الفطرة حيث يقول الله سبحانه وتعالى﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾(٤) وفي الحديث "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٥).

٢- وإضافة إلى ذلك فإن من مميزات الإسلام كونه دعوة عالمية لا تقتصر على شعب أوأمة من الناس، فرسالة الإسلام للناس كافة كما يقول تعالى ﴿**و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾(٦)وقال سبحانه﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا**﴾(٧)

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٣) سورة يوسف آية١٠٨.

(٤) سورة الروم آية٣٠.

(٥) البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه.ج٢ ص٩٧.

(٦)سورةالأنبياء آية ١٠٧ .

(٧) سورة سبأ آية ٢٨.

وقال سبحانه ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[١]. من خلال هذه الثوابت انطلق العلماء منذ بداية الغزو المغولي للبلاد الإسلامية يحملون رسالة الدعوة الإسلامية، وينتهزون كل فرصة تسنح لهم لنشر الإسلام، وقد مر معنا في الفصل الأول أن نجم الدين الكبرا[٢] قد أرسل عدداً من تلاميذه إلى البلاد المختلفة للدعوة إلى الإسلام وإظهار الشعائر الدينية بها[٣]، وكان منهم سيف الدين الباخرزي[٤] الذي استقر ببخارى . فأسلم على يده جماعة وممن أسلم على يده بركة خان[٥]، حيث أرسل الباخرزي تلميذاً له كبير المحل عنده إلى بركة خان فاجتمع به ووعظه، وحبب إليه الإسلام، وأوضح له منهاجه، فأسلم على يده سنة ٦٥٢هـ، وحسن إسلامه[٦]وأقام منار الدين، وأظهر شعائر المسلمين، وأكرم الفقهاء والعلماء وأدناهم وبرهم ووصلهم، واتخذ المدارس بنواحي مملكته، واستمال عامة أصحابه إلى الإسلام، وأخذ بالإسلام جل عشيرته، فأسلم بإسلامه أكثر قومه، وأسلمت زوجته حجك خاتون، واتخذت لها مسجدا من الخيام تسافر به، حيث يُحمل معها أنى اتجهت، ويضرب حيث نزلت ، وبنى المساجد وأقيمت الجمعة ببلاده[٧]،وهو أول من دخل في دين الإسلام من عقب جنكيزخان. ونشأت بينه و بين ابن عمه هولاكو الحرب، وصارت العداوة بين الطائفتين موروثة، وكانت الهزيمة على هولاكو[٨].

---

(١) الفرقان آية:١.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٩١.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢٣ ص٣٦٥-٣٦٦. إلا أن أرنولد ينقل عن الجوزجاني أن بركة خان اعتنق الإسلام منذ طفولته، ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء خوقند.انظر :أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٩.

(٦) العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢٦٣؛ بيبرس المنصوري، المv[u السابق، ص٣٦.

(٧) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٧ ص٢٢٢؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٢ص٣٩٥؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧ص٣٥٨-٣٥٩؛ العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٩٠.

(٨)ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٢٦٣؛بيبرس المنصوري،المصدر السابق، ص٣٧؛العيني، المصدر السابق

وكان بين بركة خان وبين السلطان الظاهر مودة، وكانت بينهما مراسلات[١]، وقد كان بركة خان يعظم رسل السلطان الظاهر[٢].

ومن هنا يتضح لنا دور سيف الدين الباخرزي وتلامذته من بعده في نشر الإسلام في صفوف المغول، مع الأخذ بالاعتبار أن إسلام هذا العدد من المغول يحتاج إلى عدد من العلماء والفقهاء يقومون بشرح تعاليم الإسلام وتوضيحها لهم.

وفي سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م توجه القائد المغولي بيجو إلى بلاد الروم، والتقى مع صاحبها السلطان عز الدين وهزمه، وعندما وصل خبر الهزيمة إلى السلطان عز الدين فر من قونيه[٣]، فأغلق أهل قونية أبواب المدينة ولما كان يوم الجمعة أخذ الخطيب ما يملكه من ماله وحلي نسائه وأحضره معه إلى الجامع ورقى المنبر وقال: يا معشر المسلمين، إننا قد ابتلينا بهذ العدو وليس لنا من يعصمنا منه، وقد بذلت مالي فابذلوا أموالكم واشتروا نفوسكم بنفائسكم، واسمحوا بما عندكم لنجمع من بيننا ما نفدي به نفوسنا وحريمنا وأولادنا.

ثم بكى وأبكى الناس وسمح كل أحد بما أمكنه. وجهز الخطيب الأموال وخرج إلى مخيم بيجو، فلم يصادفه لأنه كان قد توجه إلى الصيد ، فقدم ما كان معه إلى الخاتون زوجة بيجو فقبلته منه، وقدم للخطيب شرابا امتنع منه ، فقالت له : لم لا تشرب منه؟ فقال: هذا محرم علينا. قالت: من حرمه؟ قال: الله حرمه في كتابه. قالت: فكيف لم يحرمه علينا؟ فقال: أنتم كفار ونحن مسلمون. فقالت له: أنتم خير عند الله أم نحن. فقال: بل نحن. قالت: فإذا كنتم خيراً منا عنده، فكيف نصرنا عليكم؟ فقال: هذا الثوب الذي عليك -وكان ثوبا نفيسا مرصعا بالدراري- تعطيه لمن كان خاصا بك أو بعيدا عنك؟ فقالت: بل أخص به من يختص بي. قال: فإذا أضاعه أو فرط فيه ودنسه، ما كنت تصنعين به؟ قالت: أنكل به وأقتله. فقال لها: دين الإسلام بمثابة هذا الجوهر،

= جـ٢ ص١٦؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧ ص٣٥٩.

(١) انظر: المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٢ ص٤٧٩-٤٨٠.

(٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٧ ص٢٢٢؛ بيبرس المنصوري، المرجع السابق، ص٥٢؛ اليونيني، المصدر السابق، جـ١ ص٥٣٣.

(٣) قونيه: من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها وبأقصرى سكنى ملوكها. (معجم البلدان، جـ٤ ص٤١٥).

وفي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م إنتشر الإسلام وشاع بين مغول القبيلة الذهبية، مما دفع بركة خان أن يراسل السلطان الملك الظاهر بيبرس وهو مطمئن من جهة قومه، فأرسل يخبر السلطان بإسلامه[١]، وكتابا يذكر فيه من أسلم من بيوت التتار، وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم وأنفارهم وعساكرهم وصغيرهم وكبيرهم. وأعلم السلطان بمحاربته لهولاكو تعصبا لدين الإسلام[٢].

وفي نفس السنة، قدم جماعة من المغول من أصحاب بركة، سبق أن أرسلهم نجدة لهولاكو ولكنه عاد فأرسل إليهم بأن يفارقوا هولاكو ويحضروا إليه فإن لم يتمكنوا فينحازوا إلى الديار المصرية، وقد قدموا إلى مصر وكان عددهم زهاء ألف نفس. فلما وصلوا إلى مصر أسلموا ، وطهروا، وقدّم كبراؤهم وأُمِّروا، وجهزهم السلطان الظاهر بيبرس صحبة رسله إلى بلادهم[٣].وقد كانت مصر ترسل الصناع الحرفيين وعلماء الدين الذين كان لنشاطهم آثاراً هامة في تطور المغول في روسيا، وقد شجع ذلك الملك بركة بأقصى حدود التشجيع، وكانت تلك التأثيرات واضحة في مضمار الدين والعقائد[٤]، وبهذا زاد انتشار الإسلام بين مغول القفجاق، وعندما توفي بركة خان سنة٦٦٥هـ/١٢٦٦م. تولى الحكم بعده ابن أخيه منكوتمر[٥]، فكان على طريقته ومنواله[٦] ومن بعده تولى أخوه تدان منكوخان وذلك سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، فأرسل إلى سلطان مصر يخبر بولايته ودخوله في دين الإسلام ويطلب التقليد من الخليفة وكذلك اللقب وعلماً يقابل به أعداء الدين، وكان رسله في ذلك فقهاء من القفجاق، وقد عرض

---

(١) إسلامه كان سابقا لهذ التاريخ كما تقدم، ولكن إعلام سلطان مصر بذلك قد تأخر إلى هذا الحين، حيث اشتهر إسلامه في هذا الوقت ولعل ذلك راجع إلى قلة من أسلم معه من المغول في البداية، فلما كثر الإسلام في قومه أشهر إسلامه ثم أرسل إلى سلطان مصر يعلمه ذلك.

(٢) شافع بن علي، المصدر السابق، ص١٣٠؛ العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٣٦٠؛ بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص٥٢؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧ ص٣٦٠.

(٣) شافع بن علي، المصدر السابق، ص١٠٧؛ العيني، المصدر السابق، جـ١ ص٣٦٤.

(٤) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٩٤.

(٥) امتد حكمه لمغول القفجاق من ٦٦٤-٦٧٩هـ/١٢٦٦-١٢٨٠م. (أنظر: المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٦٨٠ حاشية ١).

(٦) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص٦١؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧ ص٣٦١ .

تدان منكو في رسالته بالوصية بهؤلاء الفقهاء و أنهم قاصدون للحج. فتم لهم ذلك حيث جهزوا إلى مكة صحبة الركب بما يحتاجون إليه، وبعد عودتهم كتبت الأجوبة على أيديهم وأحسن إليهم غاية الإحسان[١].

ويستمر المد الإسلامي في بلاد القفجاق وتكتمل مرحلة انتشار الإسلام بين مغول بلاد القفجاق في عهد أزبك خان (٧١٢-٧٤٢هـ/١٣١٣-١٣٤٢م)، وقد وصفه ابن حجر بأنه كان جيد الإسلام شجاعا عابداً[٢].

وبهذا نلاحظ أن الجهود التي بذلت في الدعوة قد آتت ثمارها في نشر الإسلام بين صفوف المغول في تلك البلاد.

أما مغول بلاد فارس فإن أول من أسلم من سلاطينهم هو أحمد تكودار أحد أبناء هولاكو، وقد تولى الحكم بعد وفاة أخيه أبغا بن هولاكو سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[٣]، وقد أسلم بتأثير أحد الشيوخ وهو الشيخ عبد الرحمن الملقب بكمال الدين[٤]، وبعد توليه الحكم أخذ الشيخ عبد الرحمن يأمره بمصالحة المسلمين والدخول في طاعتهم والعمل على مراضيهم، وأن يكونوا كلهم شيئا واحدا ، ولم يزل عليه إلى أن أجاب إلى مصالحة الملك المنصور سيف الدين قلاوون[٥].

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٤٦؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٧١٦؛ بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص١٠٨؛ العيني، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٠١.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١ ص٣٧٦.

(٣) أبو الفدا، المصدر السابق، جـ٤، ص١٦؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٧، ص٣١٠؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٧٠؛ القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، جـ٢، ص١٢٧؛ بيبرس المنصوري، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٤) عبد الرحمن بن عبد الله، كان من مماليك الخليفة المستعصم بالله وكان يسمى قراجا ، فلما ملك التتار بغداد تزهد وتسمى عبد الرحمن، واتصل بالملك أحمد وعظم شأنه لديه، توفي سنة ٦٨٣هـ وله ستين سنة من العمر.

أنظر: الصفدي، المصدر السابق، جـ٨، ص٢٢٧؛ اليونيني، المصدر السابق، جـ٤، ص٢١٥ وما بعدها؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧، ص٤٠٢.

وقد ذكر بعض الباحثين أن إسلام السلطان أحمد تاكودار كان على يد عبد الرحمن هذا . أنظر الشبيبي، مؤرخ العراق ابن الفوطي، جـ٢، ص١٤٨.

(٥) اليونيني، المصدر السابق، جـ٤، ص٢١١-٢١٢؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٨١؛ ابن خلدون،

وفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م أرسل السلطان أحمد تكودار رسله إلى الملك المنصور قلاوون يخبرون بإسلامه وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف وأمر بتجهيز الحجاج، وإقامة الشرع الشريف على ما كان زمن الخلفاء، ويطلب حقن الدماء والصلح بين المسلمين والتتار وإخماد الفتنة والحرب، فأجيب بالتهنئة بالإسلام ، والرضى بالصلح، وأعيدت الرسل وقد أكرموا من غير أن يعلم بهم أحد[١]، و يظهر أن الأمور لم تأت بما كان مرجوا منها[٢].

ولذلك واصل الشيخ عبد الرحمن جهوده في التوفيق بين التتار والمماليك واجتماع كلمتهم، فندبه السلطان أحمد تكودار لذلك[٣]، فحضر دمشق في ذي الحجة سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وقدم السلطان المنصور قلاوون إلى الشام سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م واجتمع به وسمع رسالته ووعاها ولكن حدث أمر غير مجرى الأحداث وذلك بعد خروج الشيخ عبد الرحمن إلى الشام سنة٦٨٢هـ/١٢٨٣م حيث قتل السلطان أحمد تكودار فقد نقم عليه التتار إسلامه[٤]، وتولى الحكم بعده أرغون بن أبغا، ووصل الخبر بذلك إلى الشيخ عبد الرحمن وهو بالشام فبطل ما كان جاء بسببه وما كان أسسه، وبقي الشيخ عبد الرحمن بعد ذلك مدة يسيرة وتوفي سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٥].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا الدور الذي قام به الشيخ عبدالرحمن من التأثير على السلطان أحمد تكودار حيث أعلن إسلامه ثم أظهر الأمور الشرعية ومازال به حتى أرسل

المصدر السابق، جـ١٠، ص٨٦٠.

(١) أبو الفدا، المصدر السابق، جـ٤، ص١٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٣١٧؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ق٣، ص٧٠٧-٧٠٨؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٧، ص٣١٠؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧، ص٤٠٢.

(٢) أبو الفداء ، المصدر السابق، جـ٤، ص١٦؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٢٨.

(٣) اليونيني، المصدر السابق، جـ٤ ص٢١٥؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٧١٧؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٨١.

(٤) وقد قام كذلك بإلزامهم بالإسلام. أنظر: ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٢٩.

(٥) المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٧٢٣، بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص١٠٩؛ اليونيني، المصدر السابق، جـ٤ ص٢١٥ وما بعدها؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٨١؛ القلقشندي، المصدر السابق، جـ٢ ص١٢٧-١٢٨؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧، ص٤٠٢.

إلى المماليك في طلب الصلح، ثم توجه هو بنفسه إلى المماليك من أجل تحقيق ذلك، ولكن مجريات الأحداث لم تسر في الاتجاه الذي كان يأمله، حيث تعاقب على حكم المغول في بلاد فارس و العراق حكام وثنيون من سلالة هولاكو خان إلى أن دخل غازان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م) في الدين الإسلامي[١] وذلك سنة ٦٩٤هـ /١٢٩٥م، وكان قبوله الإسلام بتأثير من الشيخ صدر الدين إبراهيم بن محمد ابن حمويه الجويني الشافعي(٦٤٤-٧٢٢هـ/١٢٤٦-١٣٢٢م)[٢] وكان الواسطة في ذلك الأمير نوروز وهو من أكابر أمراء المغول، وله منزلة كبيرة وقد سبق إلى الدخول في دين الإسلام[٣]، وتفصيل ذلك أن الشيخ صدر الدين بن حمويه الجويني اجتمع بنوروز وتحدث معه، وأمره أن يستميل غازان إلى دين الإسلام، فاجتمع نوروز بغازان وتحدث معه في دين الإسلام، وبين له محاسنه، وما يحصل له من البركة واستجلاب الرعية والتجار، ولم يزل به على ذلك إلى أن وافق على ذلك، وبعد ذلك اتفق صدر الدين بن حمويه مع نوروز ودخلوا على غازان فتلقاهم بالإكرام والقبول وهداه الله إلى دين

---

(١) غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو سلطان التتار، تولى الحكم سنة ٦٩٤هـ ثم أسلم، وقام بعدة حملات لغزو بلاد الشام، انتصر في بعضها ولكنه هزم في النهاية هزيمة نكراء حصل له منها غم شديد كان سبب موته، فمات في شوال سنة٧٠٣هـ.

أنظر الشوكاني، البدر الطالع، جـ٢ ص٢-٤، ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٨ ص٧١؛ العيني، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٨٠-٢٨١؛ ابن العماد، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٢٨؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٤٣؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٩٥٦.

(٢) إبراهيم بن محمد ابن حمويه الجويني، الإمام الكبير المحدث الخراساني، ولد سنة ٦٤٤هـ و سمع بخراسان وبغداد والشام والحجاز، وكان ذا اعتناء برواية الحديث وعلى يده أسلم الملك غازان، توفي بخراسان في سنة ٧٢٢هـ.

أنظر: الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، ص٦٥؛ تذكرة الحفاظ، جـ٤ ص١٥٠٥-١٥٠٦؛ ابن حجر، المصدر السابق، جـ١ ص٦٩.

(٣) نوروز نائب غازان، كان مسلما عالي الهمة، حرض غازان على الإسلام حتى أسلم، وكان ذا عبادة وصدق في إسلامه وأذكاره وتطوعاته، وقصده الجيد، أسلم على يده خلق كثير من التتار.

ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٣٧٢؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، جـ٢ ص٧٦٢. وقد ورد أن غازان قتله سنة ٦٩٦هـ حيث اتهمه بممالأة سلطان مصر وصداقته. أنظر: المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٨٧٤؛ البدليسي، الشرفنامة، جـ٢ ص١٦؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٤٨.

الإسلام، فأسلم على يدهم، وتلفظ بالشهادتين، ونثر الذهب و اللؤلؤ على الخلق وكان يوما مشهورا، ثم لقنه نوروز شيئا من القرآن ،وذلك في العشر الأخير من شعبان سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، ودخل رمضان فصامه، وتسمى بمحمود وشهد الجمعة والخطبة، وأمر برفع المظالم عن الناس، وإظهار شرائع الإسلام، وأمر بعمارة المساجد والجوامع، وخرب كنائس كثيرة، وقرر على اليهود و النصارى الجزية. وبإسلام غازان أسلم غالب جنده وعساكره، وفشا الإسلام في التتار . فقد أسلم منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، وحضروا الجمع والجماعات وقرأوا القرآن وأقام الشيخ صدر الدين بن حمويه عند غازان يعلمه فرائض الإسلام، ولما توجه الشيخ إلى الحج سيرت معه نفقات كثيرة تعطى لفقراء مكة[١].

وهذه تعتبر نقطة تحول في تاريخ المغول، فقد أصبح الدين الإسلامي هو الدين الرسمي لدولة المغول في بلاد فارس و العراق، وبالتالي فإن خلفاء غازان الذين توارثوا الحكم من بعده دانوا بالإسلام ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس[٢].

ومهما يكن من شيء فإن هذا التحول من المغول إلى الإسلام لم يكن ليتم لولا قيام عدد من أهل العلم بالدعوة إلى الإسلام في صفوف المغول حيث تذكر المصادر أحد هؤلاء الذين نشروا الإسلام في صفوف المغول وهو سعد الدين محمد بن المؤيد بن حمويه ابن عم صدر الدين[٣]، فقد توجه إلى خراسان واجتمع بملوك التتار ، وأسلم على يده خلق كثير منهم، وكان له قبول عظيم هناك[٤].

---

(١) أنظر في تفصيل ذلك: العيني، المصدر السابق، جـ٣ ص٣١٦-٣١٧؛ الذهبي، دول الإسلام، جـ٢ ص١٥٢-١٥٣؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣ ص٣٦٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٨ ص٧١؛ البدليسي، المصدر السابق، جـ٢ ص١٥.

(٢) أرنولد، المرجع السابق، ص٢٦٥.

(٣) سعد الدين محمد بن المؤيد بن حمويه الجويني الصوفي، كان صاحب أحوال وله أصحاب ومريدون، سكن سفح قاسون، ثم رجع إلى خراسان فتوفي هناك. أنظر: اليافعي، المصدر السابق، جـ٤ص١٢١.

(٤) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٧، ص٣١؛ العيني، المصدر السابق، جـ١، ص٨٢-٨٣؛ اليافعي، المصدر السابق، جـ٤، ص١٢١.

ومن الملاحظ أن أولئك العلماء الذين قاموا بنشر الإسلام في صفوف المغول في غالبيتهم من المتأثرين بالتصوف تبعا للجو السائد في ذلك الوقت مما كان له الأثر في التصور العقائدي لدى من أسلم من المغول .كما أن المغول المسلمين بقي لديهم بعض التأثر بعاداتهم وتقاليدهم قبل إسلامهم، ولم يكن لدى المجتمع الإسلامي الذي خالطوه لأسباب عديدة قوة إذابة هؤلاء المهتدين الجدد وصوغهم في قالبه ولذلك لا يصح أن يرجى منهم الانصياغ الكامل في قالب العقائد الإسلامية ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم ويتجردوا منها[1]. وقد كان غازان مع إسلامه قد أبقى على الحكم بالياسق الذي هو عبارة عن مجموعة من القوانين الوضعية التي وضعها هولاكو وتوارث التتار الحكم بها.

(١) أنظر أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، جـ٢، ص٢٢.

المبحث الرابع

حملات سلطان المغول قازان على بلاد الشام بعد إسلامه و موقعة مرج الصفر

وبالرغم من أن غازان اعتنق الإسلام، وتحول عن وثنيته، إلا أنه كان يتميز بالقسوة الشديدة في حكمه، ولم يسلم من بطشه نائبه نيروز الذي كان له دور في إسلامه، فقد قتله عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م. وقتل معه كل من كان ينسب إليه، نتيجة لوشاية قام بها بعض المغول(١).

وكان غازان يميل إلى السيطرة والتوسع، فعندما استشعر من نفسه القوة، عمل على تحقيق الهدف الذي كان يرمي إليه المغول منذ عهد جده الأكبر هولاكو، وهو الاستيلاء على بلاد الشام ومصر. وقد استغل غازان فترة الضعف التي سادت دولة المماليك أثناء اغتصاب عرش الناصر محمد بن قلاوون على يد كل من كتبغا ولاجين عقب سلطنة محمد الناصر الأولى، ووصاية الأميرين سلار وبيبرس أثناء سلطنة الناصر الثانية(٢).

---

(١)المقريزي، المصدر السابق، جـ١ ق٣ ص٨٧٤؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٤٨؛ المصدر السابق ، جـ٢ ص١٦.

(٢) تولى الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي المملكة بعد أخيه الأشرف سنة ٦٩٣هـ وعمره يومئذ تسع سنين، ونائبه زين الدين كتبغا، وبعد أحد عشر شهرا عزل الناصر وذلك سنة ٦٩٤هـ وتملك الديار المصرية كتبغا المنصوري وتلقب بالعادل، وجعل لاجين نائبا له بمصر، فقام لاجين بالاستيلاء على الملك سنة ٦٩٦هـ ولكنه لم يلبث أن قتل على يد بعض المماليك سنة ٦٩٨هـ فأعيد الناصر إلى الحكم وعمره أربع عشرة سنة وناب عنه في الحكم الأمير سلار واستمر على ذلك إلى سنة ٧٠٨هـ حيث توجه إلى الكرك واعتزل الحكم فكانت مدة حكمه الثانية عشر سنين وأشهر وتولى بعده بيبرس الجاشنكير، ولم يلبث أن عاد الناصر للحكم للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ واستمر حتى وفاته سنة ٧٤١هـ.

انظر ابن دقماق، المصدر السابق، ص٣١٦-٣٦٣.

وبناءاً على هذا فقد وجه غازان عدة حملات إلى دولة المماليك، وهناك بعض المشكلات التي قامت بين الطرفين أدت إلى نشوب الحروب بين الطرفين منها على سبيل المثال انتشار عادة "اللجوء السياسي المشترك بين المماليك والمغول على حد سواء".

وبالتالي ففي سنة ٦٩٨هـ-١٢٩٨م هرب بعض أمراء المماليك إلى غازان وعرضوا عليه خدماتهم بل ورغبوه في الهجوم على بلاد الشام ومصر، وأخبروه أن دولة المماليك تعاني من تفكك واضطراب، مما يسهل غزوها والاستيلاء عليها[١].

كما أن أحد قادة المغول "سلامش المغولي" قد هرب بجنوده إلى بلاد الشام فأكرم السلطان المملوكي آنذاك حسام الدين لاجين[٢] مثواه، وزوده بالأموال والعدد اللازمة للإغارة على حدود غازان[٣].

وقد وافق كل ذلك رغبة لدى غازان في الاستيلاء على بلاد الشام وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير إلى مصر.

وبدأ غازان في إعداد جيشه لغزو الشام فغادرت قواته العاصمة تبريز في المحرم سنة ٦٩٩هـ، ووصلت إلى حلب في السابع عشر من ربيع الأول.

وحينما علم الناس في الشام بقدوم غازان خافوا خوفا شديدا وبالأخص أهل حلب وحماه لوقوعهم على طريق المغول عند دخولهم الشام، فترك كثير منهم ديارهم وأموالهم وهربوا من وجه المغول، أما السلطان الناصر الذي عاد إلى السلطة فقد خرج على رأس جيش كبيرلملاقاة المغول والتقى الطرفان عند قرية تعرف باسم "مجمع المروج" في وادي الخازندار شرقي حمص،حيث دارت

---

(١) الذهبي، دول الإسلام، جـ٢ صـ٢٠٢.

(٢) حسام الدين لاجين ،كان مهيبا موصوفا بالشجاعة والإقدام ، فيه دين وعقل ، وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر،قتل سنة٦٩٨هـ(أنظر الذهبي،المصدر السابق ،ج٢ص٢٠٢؛ابن كثير ، المصدر السابق ، ج١٤ ص٣).

(٣) انظر ص ١٤٥ من البحث حاشية رقم ٤ .

رحى معركة عنيفة في ٢٧ من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ أسفرت عن انتصار المغول، أما المماليك فقد انهزموا رغم انتصارهم في بداية المعركة.

وقد شارك العلماء والفقهاء في هذه المعركة، وقاموا كذلك بدور مهم في وعظ العساكر وتقوية عزائمهم، يقول المقريزي: "وأخذ الأمير سلار النائب معه الحجاب والأمراء والفقهاء، ودار على العساكر كلها، والفقهاء تعظ الناس وتقوي عزائمهم على الثبات حتى كثر البكاء"[١].

فالنص السابق يبين مشاركة الفقهاء في القتال وحضهم الجنود على الثبات وعدم الفرار من المعركة، ولهذا الأمر أثره على رفع الروح المعنوية وبخاصة أنهم يجابهون المغول لأول مرة بعد إعلان غازان للإسلام، وربما كان لهذا أثر على بعض جنود المماليك، فإن قتال المسلم لأخيه المسلم محرم في الشريعة. وهذا يزيد من أهمية مشاركة الفقهاء وحثهم الجنود على القتال.

وقد عدم في المعركة قاضي القضاة "حسام الدين حسن بن أحمد الرومي"[٢] قاضي الحنفية بدمشق[٣]، وكان قد خرج مع الجيش للقاء غازان بوادي الخازندار، ففقد بين الصفوف ولم يعلم خبره بعد ذلك، وكان قد قارب

---

(١) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٨٧.

(٢) المقريزي،المصدر السابق، جـ١ ق٣ صـ٨٨٨، المقفى الكبير، جـ٧، صـ١٧١.

(٣) حسام الدين الرومي : هو الحسن بن أحمد بن الحسن أبو شروان الرازي، احنفي، ولي قضاء ملطية عشرين سنة، ثم قدم دمشق، فوليها مدة، ثم انتقل إلى مصر فوليها مدة و ولده جلال الدين بالشام، ثم صار إلى الشام فعاد إلى الحكم بها، فلما كان لقاء غازان بوادي الخزندار خرج معهم، فغقد و لم يعلم خبره. ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤ صـ١٤. الذهبي، معجم الشيوخ، جـ١صـ٢٠٨؛ العيني، المصدر السابق، جـ٤ صـ٨٩. و قد أضاف ابن تغري بردي على ذلك قوله: أنه وقع في الأسر و باعوه للفرنج، و وصل قبرص و صار بها حكيماً، وداوى صاحب قبرص من مرض مخيف فشفي فأوعده أن يطلقه، فمرض القاضي حسام الدين ومات. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٨ صـ١٩٠.

عمره السبعين[١]. وهذا يدل دلالة واضحة على مشاركة الفقهاء في ميدان المعركة، وهناك من حصلت له الشهادة على أيدي التتار وهو الشيخ المقرئ أبو الحسن المقدسي الصالحي[٢]. وذلك أيضا مما يؤكد على مشاركة الفقهاء في المعارك ضد حملات غازان على الشام، و يؤكد المقريزي على دور الفقهاء في موضع آخر حيث يقول:" الفقهاء وداروا على جميع العسكر، وهو يتلون الآيات المناسبة للجهاد، ويحرضون على الجهاد وتوطين النفس على الملاقاة، حتى غشي الناس البكاء والتوجع"[٣].

ومهما يكن فإن هذه المعركة أسفرت عن انتصار المغول وهزيمة المماليك[٤]، رغم الجهود التي بذلها العلماء في تلك المعركة، وأما غازان فقد زحف على قرى الشام، ونهب ما فيها، وسبى أهلها، وعندما بلغ الخبر أهل دمشق خافوا على أنفسهم أن يحل بهم ما حل بغيرهم[٥]، وانتشر الخوف والذعر في دمشق[٦]، ويبدو أن ذلك ناتج عن انهيار مقاومة المماليك في الشام بعد تلك الهزيمة[٧]، فتقدم علماء دمشق مع جمع من الأعيان والقراء إلى السلطان غازان

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٤؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٨٨٨؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص١٧؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ ص١٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج١٠ ص٨٨٩.

(٢) الشيخ المقرئ المسند العابد، أبو الحسن المقدسي علي بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي، ولد سنة ٦١٧هـ، حصلت له الشهادة بأيدي التتار سنة ٦٩٩هـ.

انظر: الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، ص١٥٧-١٥٨؛ معجم الشيوخ، ج٢ ص١١٠.

(٣) المقريزي، المقفى الكبير، ج٧ ص١٦٩؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص١٣.

(٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤٠٣؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج٢ ص١٢٠-١٢١.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤٠٣.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٨٨٩.

(٧) سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٤١.

وطلبوا الأمان لأهل دمشق فأعطاهم الأمان[١].

وكان ممن خرج شيخ الإسلام ابن تيمية، والقاضي بدر الدين بن جماعة[٢] والشيخ زين الدين الفارقي[٣]، ونجم الدين بن الصصري[٤]، وغيرهم من العلماء والأعيان والقراء[٥]،وبعد أن أجابهم غازان إلى طلبهم، رجعوا إلى دمشق، وخطب لغازان يوم الجمعة، وتم دخول غازان إلى دمشق دون مقاومة، وقرئ الأمان بالبلد، ولكن فساد التتار كثر في خارج البلد، ثم بدأوا بمطالبة الناس بالأموال وأخذوا في تحصيلها، وأحكموا قبضتهم على دمشق سوى القلعة فقد امتنع نائبها من تسليمها للتتار بإيعاز من شيخ الإسلام ابن تيمية[٦].

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٨؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٨٩؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤٠٣.

(٢) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الحموي، الشافعي الكناني، ولد سنة٦٣٩هـ، سمع الحديث و اشتغل بالعل، و ساد أقرانه، ولي قضاء القدس و الخطابة بها، ثم قضاء مصر، ثم قضاء الشام مع الخطابة ثم قضاء الديار المصرية، مع الديانة و الصيانة. توفي سنة ٧٣٣هـ.

ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٧١؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٣ ص٢٩٧؛ الصفدي، المصدر السابق، ج٢ ص١٨، ابن تغري بردي، الدليل الشافي على النهل الصافي، ج٢ ص٥٧٨؛ ابن طولون، الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، ص٨٠.

(٣) زين الدين الفارقي: عبد الله بن مروان بن عبد الله الفارقي شيخ الشافعية، ولد سنة ٦٣٣هـ، سمع الحديث، و طلب العلم، و أفتى مدة طويلة، كانت له همة و شهامة و صرامة، و تولى خطابة الجامع الأموي، توفي سنة ٧٠٣هـ. ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٣٢.

(٤) نجم الدين بن صصري: أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن محمد بن الصصري الثعلبي، الشافعي، قاضي القضاة بالشام، ولد سنة ٦٥٥هـ، سمع الحديث و حصل العلوم، توفي سنة٧٢٣هـ.

ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١١٠؛ ابن طولون، المصدر السابق، ص٨٤.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤٠٣؛ ابن أيبك، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٩.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٩. و سوف يأتي زيادة تفصيل حول دور ابن تيمية في حراسة القلعة و عدم تسليمها للمغول.

ثم امتد فساد التتار إلى دمشق حيث "اتخذوا الجامع الأموي حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه، ولم تقم به صلاة العشاء في بعض الليالي، ونهب التتار ما حول الجامع من السوق"(١).

وأما غازان فقد كتب إلى سائر نواب القلاع والحصون الشامية والساحلية في تسليمها فما أجابه أحد إلى تسليم ما بيده، مع كونه ابتدأ كتبه بالبسملة، وأظهر فيها شعائر الإسلام واتباع السنة، ولكن أفعاله كانت تناقض ذلك(٢).

وقد رحل غازان عن بلاد الشام، بعد أن ترك حاميه مغولية تحت قيادة قطلوشاه(٣)، وعين الأمراء المماليك الذين سبق أن فروا إليه وشاركوا معه القتال نوابا على المدن الشامية، ولكن القائد المغولي قطلوشاه لم يلبث أن ترك بلاد الشام ولحق بغازان، وبعد رحيله عاد الأمراء المماليك نواب المدن الشامية إلى طاعة السلطان محمد الناصر بن قلاوون.

و مهما يكن فإن عدداً من العلماء المسلمين سقطوا شهداء في المعارك التي شنها غازان على بلاد الشام هذه السنة ٦٩٩هـ، حيث ذكر الذهبي أن عدد القتلى من العلماء في هذه السنة مائة و نيف و تسعون نفسا(٤). منهم إضافة إلى من سبق ذكره المقرئ الزاهد الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله ابن الحسن بن المقير حيث استشهد بوادي الخزندار و قد جاوز السبعين(٥)، و الشيخ أبو الحسن علي بن الشيخ شمس الدين عبدالرحمن ابن أبي عمر المقدسي، قتله التتار

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٨٩٣.

(٢) النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٤١٣.

(٣) كان من أكابر المغول ، ومن قادتهم ارسله خرابندر على رأس جيش لغزو بلاد كيلان ، وقتل في تلك الغزاة في سنة ٧٠٧هـ (انظر الدرر الكامنة ، ج٣ ص٣٣٩).

(٤) تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٤٩٠. و أضاف ابن العماد أن منهم من شيوخ الحديث بدمشق أكثر من مائة نفس، المصدر السابق، ج٥ ص٤٤٣.

(٥) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٤٨٦.

بالجامع المظفري[١]،و الشيخ علي بن أحمد بن عبد الدايم بن نعمة أبو الحسن المقدسي الحنبلي قيم جامع الجبل، كان له اعتناء بالرواية، عذبه التتار إلى أن مات شهيدا و له اثنتان و ثمانون سنة[٢].أما القاضي سليمان بن حمزة بن أحمد بن قدامة المقدسي، فقد نجا من الأسر حيث وصل و في رقبته حبل و عندما سئل عما حصل له قال: أوقدوا لنا ناراً ليقدمونا فإذا بصوت و صياح فذهبوا فنظرت فإذا أنا وحدي فرجعت إليكم[٣].

و أما ما كان من المماليك بعد انهزامهم أمام غازان، فقد رجعوا إلى مصر و أخذوا في الاستعداد لمحاربته ثانيا، و أرادوا جمع الأموال، فبعث نائب السلطنة الأمير سلاّر إلى القاضي ابن دقيق العيد[٤]، بفتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المظفر قطز بأن يؤخذ من كل إنسان دينار عندما تحرك لمحاربة هولاكو، و طلب من ابن دقيق العيد أن يكتب عليها فتواه ليقوم بجمع الأموال من الناس ، و لكن ابن دقيق العيد امتنع، فشق ذلك على سلار، واستدعاه وجمع الأمراء، و شكا إلى ابن دقيق العيد قلة المال، و أن الضرورة قد دعت إلى أخذ مال الرعية لدفع العدو، و لابد من كتابة القاضي بجواز ذلك، فقال له:" لا أكتب شيئا.

---

(١) ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ ص٤٥٠.

(٢) ابن العماد، المصدر السابق، ج٥ ص٤٥١؛ الذهبي، معجم الشيوخ، ج٢ ص١١؛ الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، ص١٥٧.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص٢٤١-٢٤٢. و ذكر أن مولده سنة ٦٢٨، و أنه حصل له نوبة غازان أذى كبير، و كانت وفاته سنة ٧١٥هـ.

(٤) الإمام العلامة محمد بن علي بن وهب بن مطيع المنفلوطي أبو الفتح ابن دقيق العيد ولد سنة٦٢٥هـ بينبع على ساحل البحر الأحمر من أرض الحجاز ونشأ بقوص ورحل إلى الشام ومصر وسمع الكثير وولي قضاء الديار و توفي سنة ٧٠٢هـ. الأدفوي، الطالع السعيد، ص٥٦٧.

أنظر في ترجمته المصادر التالية:

ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج٢ ص٦٥٨؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣ ص٤٤٢؛ ابن حجر، المصدر السابق، ج٤ ص٢١٠؛ الصفدي، المصدر السابق، ج٤ ص١٩٣؛

فاحتجوا عليه بفتوى العز ابن عبد السلام قال: إن ابن عبد السلام لم يكتب لقطز حتى أحضر سائر الأمراء جميع ملكهم من الذهب والفضة وحلي النساء و الأولاد بين يديه، و رآه، و حلف كل منهم أنه لا يملك سوى ما أحضره. فلما علم أن ذلك غير كافٍ، و لا يقوم بتجهيز العساكر، أفتى حينئذ بجواز أخذ دينار من كل واحد، أما الآن فبلغني أن كل واحد من الأمراء له مال جزيل، و أن فيهم من يجهز ابنته ليزفها إلى زوجها و أنه عمل في شورتها الجوهر و اللآلئ و الحلي والذهب، و اتخذ لها الأواني من الفضة حتى إنه عمل البكلة[1]التي توضع في الخلاء ليستنجي منها فضة، و أنه رصع مداس امرأته بالجوهر -يريد بذلك الأمير بيبرس- فكيف يحل مع ذلك أخذ شيء من أموال الرعية؟ لا والله، لا جاز لأحد أن يتعرض لدرهم من أموال الناس إلا بوجه شرعي، ثم قام وتركهم[2].

وبهذا كان الموقف الجريء من ابن دقيق العيد حيث رفض أن تستغل أوضاع البلاد والهزيمة التي حصلت للمسلمين،لكي تجمع الأموال من الناس بدون حق.

وأما ما كان من بلاد الشام فبعد أن عادت إلى حوزة المماليك مرة أخرى رسم قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بالتدريب على الرمي في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي، ويستعدوا لقتال العدو إن حضر[3].

وفي ذلك امتثال للأمر الرباني بالاستعداد للقتال والجهاد حيث يقول الله سبحانه:﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو**

= ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج٢ ص٣١٨؛ ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج٢ ص١٥؛ ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص١٨٩؛ المراغي، المرجع السابق، ج٣ ص١٠٢؛ عمر كحالة، المرجع السابق، ج١١ ص٧٠.

(١) البكلة: الإناء. المقريزي، المقفى الكبير، ج٦ ص٣٨٦ حاشية.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج٦ ص٣٨٥-٣٨٦؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٨٩٧-٨٩٨؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٧٤-٧٥.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٣-١٤؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٩٠٣.

الله وعدوكم﴾[١].

وفي هذا الاستعداد كسر لحاجز الخوف والذعر ورفع للروح المعنوية والجهادية لدى عامة الناس، خاصة أنه لأول مرة يواجه المسلمون المغول في معركة يرفع فيها المغول راية الإسلام، مما سبب لبسا عند البعض، ممن انخدع بادعاء المغول الإسلام، ولذلك نجد قاضي حمص وإمام الجامع بها إبراهيم بن علي ابن إبراهيم بن خشنام الكردي الحميدي، عندما وصل التتار إلى حمص داخل غازان وولي عنه قضاء حمص،ثم سافر مع التتارفولوه قضاء خلاط إلى أن توفي بها[٢].

وبعد انتهاء حملة غازان الأولى على الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، جاءت الحملة الثانية سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، في فصل الشتاء، حيث وصل إلى حلب[٣]، وعم الخوف والفزع بلاد الشام بأسرها، ودخل كثير من أهل دمشق إلى البراري والقفار والمغارات بأهاليهم من الكبار والصغار، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل، عند ذلك خرج عدد من علماء دمشق منهم زين الدين الفارقي وشيخ الإسلام ابن تيمية إلى نائب السلطنة الأفرم[٤]، فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا[٥] أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة،وقويت نياتهم على ذلك،وتم الاستعداد للحرب والقتال بنيات صادقة[٦].

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠.

(٢) ابن حجر، المصدر السابق، ج١ ص٤٣. وقد وصفه بأنه كان شهما شجاعا جريئا، ولما تولى قضاء حمص نيابة عن غازان حكم وظلم، وكانت وفاته سنة ٧٠٥هـ.

(٣) الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص٢٠٥.

(٤) جمال الدين الأفرم كان من مماليك المنصور، و تولى نيابة الشام، و هو من الأمراء الذين هربوا إلى المغول في عهد خزابندا ومات هناك سنة ٧٢٠هـ. أنظر ابن حجر، المصدر السابق،ج١ ص٤٢٤-٤٤٦.

(٥) مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل من بني طي ولد بعد سنة ٦٥٠هـ، كان وقوراً متواضعا دينا حليماً ذا مروءة و سؤدد توفي سنة ٧٣٥هـ. انظر ابن حجر، المصدر السابق ، ج٥ ص١٣٨-١٤٠.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٧.

ولكن الله كفى المؤمنون القتال حيث اضطر غازان للعودة وذلك بسبب هطول الأمطار بغزارة مع كثرة الوحل وشدة البرد مما أدى إلى هلاك كثير من جنود المغول ودوابهم، ولم يجد غازان بدا من الرحيل والعودة[١].

وفي نفس السنة(٧٠٠هـ) تبودلت رسائل بين غازان والسلطان محمد الناصر، ولكنها لم تسفر عن نتيجة تذكر[٢]. ثم هدأت الأمور واستمرت كذلك حتى كانت الحملة الثالثة على بلاد الشام سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، حيث عبر غازان بجيوشه الفرات إلى بلاد الشام، وارسل كتابا إلى اهل الشام يستغويهم ويستميلهم عن مضافرة أهل مصر ويخدعهم، ودسه إلى من يوصله إليهم[٣]، وكان ذلك خطة من غازان ليضرب المسلمين بعضهم ببعض[٤]، وقد ذكر في هذا الكتاب أن الله شرح صدره للإسلام، ونور قلبه للإيمان، وينبه أن الواجب على أهل مصر والشام أن يظهروا السرور والحبور بإسلام ذراري جنكيز خان، وأن يرسلوا له التحف والهدايا، ويشكروا له ذلك، إلا أنهم اعتدوا على ماردين[٥]، ولذلك دعته الحمية على الإسلام إلى الانتقام، ولكنه مع ذلك أرسل إلى السلطان في مصر لعله يرجع إلى الصواب، ولكنه لم يفعل ولذلك جاء هذه السنة بجيوشه، إلا أنه يطلب منهم عدم مساعدة المصريين، ويطلب منهم الدخول في طاعته[٦].

وبعد ذلك عاد غازان إلى العراق بعد أن ترك جيش التتار تحت قيادة قطلوشاه، ووصل الخبر بذلك، فانزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جدا، وقنت

---

(١) الذهبي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٥؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٧.

(٢) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص١٦١.

(٣) العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٢١٠.

(٤) مريم بن لادن، المصدر السابق، ص١٨٥.

(٥) مدينة من ديار ربيعه بعمل الموصل وبها قلعة كبيرة من أشهر القلاع.(انظر الحميري ، الروض المعطار(ص ٥١٨).

(٦) انظر نص تلك الرسالة عند العيني، عقد الجمان، ج٤ ص٢١٠-٢١٧.

الخطيب في الصلوات[١]. وفي شهر شعبان من هذه السنة(٧٠٢هـ) التقت إحدى فرق جيش التتار بفرقة من عسكر الشام وكان المصاف بعرض[٢]، وكانت الهزيمة على التتار[٣]، وواصل كل من الفريقين استعداده لخوض معركة حاسمة، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك، وعاثوا في تلك الأراضي فسادا، وقلق الناس قلقا عظيما، وخافوا خوفا شديدا، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة[٤]، ومع هذا فقد استقررأي الجميع على لقاء العدو. وكان في مقدمة المتحمسين لمحاربة المغول جماعة الفقهاء والعامة[٥]، فقد جلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال[٦].

أما السلطان فقد خرج من الديار المصرية ومعه القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون المجاهدين إلى الجنة[٧].

والتقى الجيشان في رمضان سنة ٧٠٢هـ جنوبي دمشق حيث دارت رحى معركة شقحب عند مرج الصفر[٨]،وقد شارك القضاة والعلماء في هذه المعركة[٩]، وكانت المعركة شديدة تم النصر فيها للمسلمين وهلك من التتار

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٤.

(٢) عرض: بليدة في برية الشام، من أعمال حلب، بين تدمر والرصافة. معجم البلدان، ج٤ ص١٠٣.

(٣) الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ص٢٠٨؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٤.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٥.

(٥) الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٣٠٠.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٥.

(٧) انظر المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٩٢٣.

(٨) النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٤١٦.

ومرج الصفر: موضع بين دمشق والجولان، وهو صحراء. ياقوت، معجم البلدان، ج٣ ص٤١٣.

(٩) انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٥؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤١٣.

عدد كبير، وفر الباقون، حيث كانت الدائرة عليهم، ولم يبق منهم إلا نحو الثلث فقد رجعوا في حفاء وجوع وذل لا يعبر عنه، وتمزقوا لبعد المسافة، وتخطفهم أهل الحصون[١].وإن الهزيمة التي لحقت بالتتار في هذه المعركة قد أوقفت سيرهم وحدت نشاطهم في اكتساح الشام ومصر، حيث تحطمت قوة المغول الذين ارتعد الناس منهم ومن وحشيتهم[٢].

أما غازان فعندما وصله خبر تلك الهزيمة الشنيعة اغتم غما عظيما وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت[٣]، ثم لحقته حمى حادة ومات مكمودا سنة ٧٠٣هـ وملك بعده أخوه خربندا وتلقب الجايتو سلطان[٤].

ولقد كان لشيخ الإسلام في هذه الموقعة وما قبلها جهود مشكورة وسيأتي الحديث عن دوره في المبحث التالي.

=ومن أبرز العلماء الذين شهدوا المعركة شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتي معنا.

(١) الذهبي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٧-٢٨؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤١٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، م٥ ق١ ص٨٩٨-٨٩٩.

(٢) مريم بن لادن، المصدر السابق، ص١٩٠.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٩٣٧؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٢٨٢.
وقد نقل عن بعض التجار أن النياحة والبكاء استمرت مدة شهرين عند المغول. انظر عقد الجمان، ج٤ ص٢٨٢.

(٤) ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٣٦١؛ الذهبي، المصدر السابق، ج٢ ص٢١١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٣٠؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤١٧؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ ص١٦٩.

المبحث الخامس

دور شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد المغول

في هذا الجو الحالك بالظلام، حيث كثرت الفتن واختلط فيها على الناس الحق بالباطل، هيأ الله لهذه الأمة عالما ربانيا أنار بعلمه الطريق للأمة، وجلى عنها غبش الظلام، حيث ردها إلى الكتاب والسنة، ثم كانت له اليد البيضاء في مواجهة الغزو المغولي في عهد غازان، وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله، فقد جاهد بلسانه وقلمه ونفسه، فذب عن الإسلام تأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وخرافات المبتدعين، فعاد الدين غضا طري الإهاب على ما كان عليه السلف الصالح، وقاوم أعداء الدين، وحرض الأمة على جهادهم حتى تم النصر بفضل الله.

وعند استعراض جهوده رحمه الله نجده بدأ منذ عام ٦٩٧هـ يهيئ الأمة للجهاد ودفع العدو، فعمل تلك السنة ميعادا في الجهاد، وحرض فيه و بالغ في أجور المجاهدين، وكان ميعادا حافلا جليلاً[١]. ومما لا شك فيه أثر ذلك في رفع الروح الجهادية للأمة، وبث روح العزة والكرامة في المسلمين، وبخاصة أن الأخبار وردت في رجب سنة ٦٩٨هـ بعزم غازان على قصد البلاد الشامية، وتأهب المغول لذلك[٢]. وبالفعل في ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ تم عبور غازان بجيوشه للفرات متوجها إلى الديار الشامية[٣].ثم كانت موقعة واد الخزندار كما مر معنا[٤] بين المغول وجيش المماليك، حيث هزم جيش المماليك[٥]. ووصل خبر تلك المعركة إلى دمشق فأصبح الناس في حيرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم، فطائفة يغلب عليهم الخوف، وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة لإسلام غازان[٦]. لذلك اجتمع

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣ص٣٧٣.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٣ص٨٧٤؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ص١١٧.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج١ق٣ص٨٨٥.

(٤) انظر المبحث السابق (ص).

(٥) المقريزي، المصدر السابق،ج١ق٣ص٨٨٦؛ ابن دقماق، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٦) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ ص١٢٣؛ ابن أيبك، المصدر السابق، ص١٨.

عدد من علمــاء وفقهــاء مديــنــة دمشق[١] كان من بينهم شيخ الإسـلام ابـن تيميـة واتفقوا على الخروج إلى لقاء غازان لأخذ أمان لأهل البلد[٢].

وعند مقابلة غازان تكلم شيخ الإسلام بشجاعة و جرأة فقال لترجمان غـازان قـل للقان: " أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ على ما بلغنـا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك و جدك هولاكو كانا كافرين وما عملا الذي عملت، بل عاهدوا قومنا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت"[٣].

وكان قد بلغ شيخ الإسلام أن ملك الكرج قد بذل أموالاً جزيلة لغـازان علـى أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، فتكلم شـيخ الإسـلام مـع غـازان فـي ذلـك وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعاً[٤].

وبعد هذا الكلام قرب إلى الجماعة طعاما فأكلوا منه إلا ابن تيميـة ، فقيـل لـه ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتـم مـن أغنـام النـاس وطبختمـوه بمـا قطعتم من أشجار الناس[٥]. وكان في أثناء حديثه مع غـازان يرفـع صوتـه، ويقـرب منـه، حتى لقد قارب أن تلاصق ركبته ركبة السـلطان غـازان، وغـازان مـع ذلـك مقبلاً عليـه بكليته مصغٍ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله لـه في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلبا منـه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه. فأخبر بحاله، ومـا هـو عليـه من العلم والعمل[٦].

ثم إن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: "اللهم إن كان هذا عبدك محمود

---

(١) سبق في المبحث السابق بيان أسماء هؤلاء العلماء.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ص٨؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ص١٢٣؛ ابن أيبـك، المصـدر السابق، ص١٩.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ٩٢؛ البزار، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، صـ٧٢؛مرعي الكرمي، الكواكب الدرية، صـ٩٣.

(٤) مرعي الكرمي، المرجع السابق، صـ٩٣.

(٥) مرعي الكرمي، المرجع السابق، ص٩٤؛ المقريزي، المقتفى، ج١ص٤٥٧.

(٦) مرعي الكرمي، المرجع السابق، ص٩٣.

إنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا و ليكــون الدين كله لـك، فـانصره وأيـده وملكـه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره" وغازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديـه. ولجرأة شيخ الإسلام وصدعه بالحق أمام سلطان المغول غازان فقد توقـع الحـاضرون أن يأمر غازان بقتله، و لذلك جمعوا ثيابهم خوفا من أن تتلوث بدمه[١].

وعندما خرجوا من عند غـازان قـال لـه أحدهـم[٢]: " كـدت أن تهلكنـا وتهلـك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم". فانطلقوا عصبـة وتـأخر هو في خاصة نفسـه ومعـه جماعـة مـن أصحابـه، فتسـامعت بـه الخواقيـن والأمـراء مـن أصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظـرون إليـه، فمـا وصـل دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، أما أولئـك الذيـن أبـوا أن يصحبـوه فخـرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم عن آخرهم[٣].

و وصل مرسوم من غازان بالأمان لأهل دمشق، ثم أرسل إليهم يعرفهم أنه يحـب العدل و الإحسان للرعية و إنصاف المظلوم من الظالم، و أشياء من هذا النمـط، فحصـل للناس بذلك سكون وطمأنينة[٤].

ثم خطب لغازان على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر وكانت ألقابه: "السلطان الأعظم سلطان الإسلام و المسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غـازان" وصلى جماعة من المغول الجمعة[٥] .

ثم أخذ التتار في نهب قرى دمشق والفساد بها[٦]،وحصل على أهل دمشق الذل

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ص٩٢؛ مرعي الكرمي، المصدر السابق، ص٩٤.

(٢) هو قاضي القضاة أبو العباس نجم الدين بن صصري، و قد سبقت ترجمته.

(٣) انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ص٩٢؛ الكرمي، المصدر السابق، ص٩٤؛ المقريزي، المقتفى، ج١ص٤٥٧.

(٤) انظر بن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ ص١٢٥.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ١ ق٣ ص٨٩١؛ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٨ صـ١٢٥.

(٦) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٨ صـ١٢٥.

والهوان[١]. وفي اليوم التالي الخامس عشر من ربيع الآخر بدأ التتار في نهب الصالحية، حتى أخذوا بالجامع والمدارس والترب من البسط والقناديل، ونبشوا على الخبايا، فظهر لهم فيها شيء كثير حتى كأنهم يعلمون أماكنها[٢].

وكان مع التتار شيخ يلقب بشيخ الشيوخ نظام الدين[٣] وعد الناس بالدخول في صلح أمورهم مع غازان وطلب الأموال وتعاظم إلى الغاية. فمضى ابن تيمية في جمع كبير إلى شيخ الشيوخ وشكوا ما حدث بالصالحية فخرج معهم إلى حي الصالحية في اليوم الثامن عشر ليتبين حقيقة الأمر، ففر التتار لما رأوه، ولجأ أهل الصالحية إلى دمشق في أسوأ حال[٤]. "واتخذ التتار من الجامع في دمشق حانة يزنون ويلوطون، ويشربون الخمر فيه، ولم تقم به صلاة العشاء في بعض الليالي، ونهب التتار ما حول الجامع من السوق"[٥].

ولكن التتار لم يستطيعوا الاستيلاء على قلعة دمشق حيث امتنع نائب القلعة أرجواش[٦] من تسليم القلعة إلى التتار وذلك بإشارة من شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث أرسل إلى نائب القلعة يقول له: "لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت[٧]". وامتثل أرجواش مشورة شيخ الإسلام ابن تيمية فامتنع أشد الامتناع عن تسليم القلعة وصبر على الحصار، فكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام[٨]، إذ لو

---

(١) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٨ صـ١٢٦.

(٢)هذا يدل على وجود جواسيس وعملاء قدموا خدماتهم للعدو.

(٣)وصفه المقريزي بأنه لم يكن فيه من أخلاق المشايخ ما يمدح به، بل أخذ الثلاثين ألف دينار برطيلاً، حتى قال فيه الشاعر:

شيخ غازان ماخلا … أحد من تجرده
وغدا الكل لابس … خرقة الفقر من يده

أنظر المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٩١.

(٤) أنظر المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٩١-٨٩٢.

(٥) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٩٣.

(٦) أرجواش المنصوري العلمي كان من مماليك المنصور، و كان مقداماً شجاعاً، ولاه السلطان نيابة القلعة بدمشق، كان له في حصار غازان اليد االبيضاء توفي سنة ٧٠١هـ. انظر ابن حجر، المصدر السابق، ج١ ص٣٧١.

(٧) ابن كثير،المصدر السابق، ج١٤ ص٩.

(٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٩.

تمكن التتار من القلعة لملكوا الشام جميعه[1]. وأثناء ذلك خرج شيخ الإسلام ابن تيمية إلى غازان بتل راهط ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه، فلم يمكنه من الاجتماع به لشغله بالسكر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فقالا: "لا بد من المال"، فانصرف[2].

وهنا نلاحظ أن شيخ الإسلام ابن تيمية تحرك على كافة الأصعدة فعندما لم يقابل غازان، إلتقى أعيان دولة غازان وأخذ يناقشهم في هذه الأعمال التي يقوم بها التتار، ويرى ما هي الدوافع وراء ذلك؟ وهل هناك تأويل أو شبهة وراء هذه الأفعال؟ وعند مقابلته لبهاء الدين قطلو شاه وجده يعتقد أن جنكيزخان جده كان مسلماً، وكل من خرج من ذريته مسلمين، ومن خرج عن طاعته فهو خارجي[3].

ثم اجتمع بعد ذلك بشخص منهم فيه دين وسكون وصلاة حسنة، فسأله ما السبب في خروجك وقتالك المسلمين وأنت كما أرى منك؟ فقال: أفتانا شيخنا بتخريب الشام وأخذ أموالهم، لأنهم لا يصلون إلا بالأجرة، و لا يؤذنون إلا لذلك، و لا يتفقهون إلا بمثل ذلك[4].

ومهما يكن من شيء فإن التتار بعد أعمالهم الشنيعة تلك رحلوا عن الشام بعد أن أقاموا فيها نائبا عنهم، وكان أميرا من التتار يدعى بولاي قد جال في بلاد الشام وأخذ عددا من المسلمين أسرى معه، وخيم بالغرب من دمشق، فخرج إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، فاجتمع به في فكاك من معه من أسرى المسلمين، فاستنقذ كثيرا منهم من أيديهم[5]. وسأله بولاي في أمر يزيد بن معاوية هل يجوز لعنه؟واتهم أهل الشام بقتل الحسين، فكلمه الشيخ بما لاق بخاطره بغير شيء يكره. ولم يزل به حتى سكن غضبه على أهل

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢ ص٢٩٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨ ص٣٣٨؛ بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ١٥٨؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٢٠٤.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٨٩٢.

(٣) ابن أيبك، المصدر السابق، ص٣٢.

(٤) ابن أيبك، المصدر السابق، ص٣٣.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١١-١٢.

الشام[1] فكان شيخ الإسلام ابن تيمية سببا لتخليص غالب أسرى المسلمين من أيديهم وردهم إلى أهليهم، وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه[2]. وبعد ذلك رحل بولاي وأصحابه من الشام، وبلغ الخبر بمقدم جيش مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق مع القلعة، وأعاد الخطبة باسم السلطان في يوم الجمعة بعد انقطاعها مائة يوم[3]. عند ذلك قام كل ليله بالدوران على الأسوار حيث اجتمع الناس هناك لحفظ البلد وشيخ الإسلام يحرضهم على الصبر والقتال، ويتلوا عليهم آيات الجهاد والرباط[4]، ثم دار بنفسه على ما وجدوا من الخمارات وأراق خمورها وكسر أوانيها، وشق ظروفها وأغلق الخمارات وأبطل ما فيها من المنكرات، وعزر الخمارين هو وجماعته، والناس يمشون معه[5].

وبهذا العمل أزال ابن تيمية آثار الغزو المغولي على بلاد الشام من الناحية الفكرية والسلوكية[6]، وأحيا في الأمة روح التضحية والفداء والجهاد في سبيل الله، فقد كتب رسالة بعد انتهاء المعركة وانصراف عسكر مصر ووجهها إلى من تصل إليه من المؤمنين والمسلمين. وقد ذكرهم في رسالته بنعمة الإسلام وفضل الله عليهم بهذا الدين ووجوب الشكر لله على ذلك وعدم التبديل لهذا الدين، ثم ذكرهم بغزوة أحد وهزيمة المسلمين فيها مع وجود النبي ﷺ معهم فيها، وذكرهم كذلك بمصيبة المسلمين في وفاة

---

(١) انظر ابن أيبك، المصدر السابق، ص٣٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج١٠ ٨٩١؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٤٥.

(٢) مرعى الكرمي، المصدر السابق، ص٩٤.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ق٣ ص٩٠٠.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٢؛ المقريزي، المقفى، ج١ ص٤٥٨.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٩٠٠؛ المقريزي، المقفى، ج١ ص٤٥٨؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٤٧.

(٦) لقد قام نائب غازان على دمشق بعمل سيئ حيث ضمن الخمارات و مواضع الزنا من الحانات وغيرها، و جعلت دار تسمى دار ابن جرادة خمارة و حانة، و صار له في ذلك في كل يوم ألف درهم، انظر: ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١١.و لذلك نهض شيخ الإسلام ابن تيمية واجتمع بالأمير فقحق وقال له: إن الذي فعلته من ضمان الخمور شنعة كبيرة، و ثلمة عظيمة في حق الإسلام. انظر العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٤٧.

النبي ﷺ وخروج المرتدين، ثم حذر المسلمين بعد ذلك من أخذ بعض الدين وترك بعضه كما هو حال التتار، ثم بين بعد ذلك حال عسكر التتار فقال: إن عسكرهم مشتمل على أربعة طوائف:

١- كافرة باقية على كفرها من الكرج والأرمن والمغل.

٢- طائفة كانت مسلمة فارتدت عن الإسلام من العرب والفرس والروم وغيرهم.

٣- فيهم من كان كافرا فانتسب إلى الإسلام ولم يلتزم شرائعه من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، والكف عن دماء المسلمين وأموالهم وغير ذلك.

٤- قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه.

ثم بين بعد الحكم في الكافر الأصلي بأنه يجوز أن يعقد له أمان وهدنة ويجوز المن عليه والمفاداة به إذا كان أسيراً عند الجمهور، ويجوز إن كان كتابيا أن يعقد له ذمة، ويؤكل طعامهم، وتنكح نساؤهم.

أما الطوائف الأخرى فقال فيهم: كلهم يجب قتالهم بإجماع المسلمين، حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى تكون كلمة الله هي العليا. هذا إذا كانوا قاطنين في أرضهم فكيف إذا استولوا على أراضي الإسلام من العراق وخراسان والجزيرة والروم، فكيف إذا قصدوكم وصالوا عليكم بغيا وعدوانا **﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة . أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾**[1]. ثم يستدل بحديث "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى قيام الساعة". ثم يبين مواقف الناس مما حدث فيقول: هذه الفتنة قد تفرق الناس فيها إلى ثلاثة فرق: الطائفة المنصورة وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين، والطائفة المخالفة وهم هؤلاء القوم ومن تحيز إليهم من خبالة المنتسبين إلى الإسلام، والطائفة المخذلة وهم القاعدون عن

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٣، ١٤، ١٥.

جهادهم وإن كانوا صحيحي الإسلام. فلينظر الرجل أيكون من الطائفة المنصورة أم من المخاذلة أم من المخالفة؟ فما بقي قسم رابع.

ثم أفاض الشيخ بعد ذلك في ذكر فضل الجهاد والمرابطة في سبيل الله. بعد ذلك يقرربأن هؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا فيهم، فابشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته. ثم يفيض في أهمية الجهاد وفضله[1].

وبهذا يتضح أن شيخ الإسلام ابن تيمية قام بتوضيح حقيقة الأمر للناس وبين الموقف الشرعي الصحيح الذي ينبغي أن يقفه كل مسلم حتى لا يلتبس الحق بالباطل.

وبعد أن استتب الأمر في دمشق للسلطان الناصر قام نائب السلطان في الشام جمال الدين آقوش الأفرم بتجهيز جيش لمحاربة أهل جبال الجرد وكسروان[2] سنة ٦٩٩هـ، وكان الذي دفعه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث خرج شيخ الإسلام ومعه خلق كثير من المتطوعة لقتال أهل تلك الناحية "بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، والمعاملة التي عاملوا بها عسكر المسلمين لما كسرهم التتار فهربوا واجتازوا ببلادهم، وقتلوا كثيرا منهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم"[3]. وقد كتب الشيخ إلى أطراف الشام في الحث على قتالهم وأنها غزاة في سبيل الله[4].

وقد شارك شيخ الإسلام في هذه الغزوة مشاركة فعلية، فحضر القتال وتم النصر، وقدم رؤساء تلك الطائفة إلى شيخ الإسلام "فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير"[5].

وبعد رجوعه من تلك الغزوة أرسل رسالة إلى السلطان الناصر[6]، أكد له فيها

---

(١) أنظر الرسالة في مجموعة الفتاوى، ج٢٨ ص٤١٠-٤٢٣.

(٢) و هم من الدروز أصحاب العقائد الفاسدة، انظر المقريزي، المقفى، ج١ ص٤٦٠.

(٣) انظر، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٣؛ مرعي الكرمي، المصدر السابق، ص٩٧؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ص٤٦٠.

(٤) مرعى الكرمي، المرجع السابق، ص٩٧.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٣.

(٦) انظر، نص الرسالة في مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج٢٨ ص٣٩٨-٤٠٩.

علاقة هؤلاء بالتتار[١] وانحرافهم عن الإسلام ووجوب إمساك رؤساء الضلال فيهم وأن تقام فيهم شرائع الإسلام والجمعة والجماعات وقراءة القرآن ويكون لهم خطباء ومؤذنون كسائر قرى المسلمين[٢].

وقد وردت الأخبار في صفر من سنة ٧٠٠هـ بقصد التتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وأخذوا في الهرب[٣]، عند ذلك "جلس شيخ الإسلام ابن تيمية بمجلسه في الجامع وحرض الناس على القتال وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا[٤]، وأوجب جهاد التتر حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك"[٥].

عندها نودي في البلدان لا يسافر أحد إلا بمرسوم، فتوقف الناس عن السير، وسكن جأشهم[٦]، وورد الخبر بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر[٧].

ولكن السلطان تأخر والعدو اقترب، عند ذلك خرج شيخ الإسلام في شهر جمادى الأولى إلى نائب الشام وكان مرابطا مع الجنود في المرج فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى:﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور** ﴾[٨] . وبات ليلة عند العسكر ثم عاد إلى دمشق ، وقد طلب منه النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء، فتوجه إلى مصر حيث وجد السلطان قد عاد إلى القاهرة بعد أن خرج مسافة فلحقه بالقاهرة واستحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن

(١) انظر ابن تيمية، المصدر السابق، ج٢٨ ص٤٠٠،٤٠١،٤٠٥.

(٢) انظر ابن تيمية، المصدر السابق، ج٢٨ ص٤٠٧-٤٠٨.

(٣) انظر ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٥؛ ابن دقماق، المصدر السابق، ص٣٣٢.

(٤) ذكر ابن كثير بأن الجمل بيع بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب بأرخص الأثمان وذلك لتهيؤ الناس للرحيل. انظر المصدر السابق، ج١٤ ص١٥.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٦؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص١٢٣.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٦؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص١٢٣-١٢٤.

(٧) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص١٦.

(٨) سورة الحج آية: ٦٠.

كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قدر أنكم لستم حكام الشام وملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم، وقوى جأشهم، وضمن لهم النصر هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديدا بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم"[(١)].

وكان مقامه بمصر ثمانية أيام، ورتب له نفقة أيام سفره هذه فلم يقبل منها شيئاً، وعاد بعد ذلك إلى دمشق[(٢)].

ثم خرج يصحبه عدد من العلماء إلى نائب السلطنة فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب[(٣)] فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، واستعدادا بنيات صادقة[(٤)]، وأرسل الله على العدو من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف ما الله به عليم مما دفع التتار للرحيل، فأرسل شيخ الإسلام كتابا مطولا يقول فيه: لما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو وجرى منه بيانا أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار[(٥)].

أما دور شيخ الإسلام في موقعة شقحب سنة٧٠٢هـ فقد كان دوراً بارزاً، فقد "تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته وقتا ثم خالفوه، فكان قول شيخ الإسلام

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق ج١٤ ص١٧؛ مرعي الكرمي، المصدر السابق، ص٩٥؛ المقريزي، المصدر السابق، ج١ ص٤٥٩؛ العيني، المصدر السابق ، ج٤ ص١٣٠-١٣١.

(٢) المقريزي، المصدر السابق ، ج١ ص٤٥٩.

(٣)سبقت ترجمته.

(٤) انظر ابن كثير، المصدر السابق ، ج١٤ ص١٧.

(٥) مرعي الكرمي، المرجع السابق ، ص٩٥. و انظر نص ذلك الكتاب في مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٢٨ ص٤٢٤-٤٦٧.

فيهم: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه أضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمدُ[١].

وأخذ على عاتقه توضيح هذا الأمر للمسلمين بتفصيل أكثر، فقد طلب المسلمون منه فتوى في حكم قتال التتار بعد تلفظهم بالشهادتين، فأجاب عن ذلك بفتوى مطولة كان مما جاء فيها: "كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه"[٢].

ثم يؤكد بعد ذلك وجوب جهادهم بقوله: "فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة"[٣] ثم يوضح الحكم الشرعي في هؤلاء الغزاة بقوله:"وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام"[٤] .

ويعلل ذلك بأن عسكرهم مشتمل على قوم كفار من النصارى والمشركين، وعلى قوم منتسبين إلى الإسلام وهم الغالبية، ينطقون بالشهادتين إذا طلبت منهم، ويعظمون الرسول ﷺ ، وليس فيهم من يصلي إلا قليل جداً، وعندهم من الإسلام بعضه، ولا يجاهدون الكفار ولا ينهون أحدا من عسكرهم أن يعبد ما شاء من شمس أو قمر أو غير ذلك، ولا يلتزمون الحكم بينهم بحكم الله، بل يحكمون بأوضاع لهم توافق الإسلام تارة وتخالفه أخرى، ثم انتهى إلى الحكم النهائي وهو أن قتال هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين[٥].وهو بهذه الفتوى جلى الأمر للمسلمين وأصبحوا على بينة

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق ، ج١٤ ص٢٥.

(٢،٣) ابن تيمية ، المصدر السابق ، ج٢٨ ص٥٠٢.

(٤) ابن تيمية، المصدر السابق، ج٢٨ ص٥٠٣-٥٠٤.

(٥) ابن تيمية، المصدر السابق، ج٢٨ ص٥٠٤-٥٠٦.

في قتالهم لهؤلاء الأعداء.

ولم يكتف شيخ الإسلام بذلك، بل توجه قبل وصول جيش التتار إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم وأخذ يرفع من معنوياتهم وحلف لهم إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا[١].

وركب بعد ذلك البريد إلى مهنا بن عيسى واستحضره إلى الجهاد[٢].

وندبه العسكر الشامي لكي يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه وحثه على المجيئ إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر[٣].

وعند خروجه من دمشق ظنوا أنه إنما خرج هاربا فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد؟ فلم يرد عليهم[٤].

واستنفر السلطان وواجه بالكلام الغليظ أمراءه وعسكره[٥]، ثم قدم الشام هو والسلطان جميعا[٦]، وعندما رأى السلطان كثرة التتار قال: يا خالد بن الوليد. فقال: لا تقل هذا بل قل: يا الله، واستعن بالله ربك، ووحده وحده تنصر، وقل: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين[٧]. فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: "السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا"[٨].

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٥؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٣. وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى﴿ **ثم بغي عليه لينصرنه الله** ﴾ سورة الحج، آية: ٦٠.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ص٤٤٥٨؛ مرعي الكرمي، المصدر السابق، ص٩٦.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٧.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٥.

(٥) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ص٤٤٥٨؛ الكرمي، المصدر السابق، ص٩٦.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٧.

(٧) المقريزي، المصدر السابق، ج١ ص٤٤٥٨؛ الكرمي، المصدر السابق، ص٩٦.

(٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٧.

"وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم و أفطر هو أيضا[١]، وكان يدور هو على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس"[٢].

وأخذ يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر ويبشرهم بالغنيمة والفوز بإحدى الحسنيين[٣]، وقد ذكر أحد الأمراء أن شيخ الإسلام قال له وقد تراءى الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت، قال: فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد، قال: فرفع طرفه إلأى السماء وأشخص بصره حرك شفتيه طويلا ثم انبعث وأقدم على القتال. وأما أنا فخيل إلي أنه دعا عليهم و أن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة. قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة، وكان آخر النهار، قال: "وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما، تحريضا على القتال وتخويفا للناس من الفرار"[٤].

وبعد انتهاء المعركة دخل شيخ الإسلام إلى دمشق ومعه أصحابه، ففرح الناس به وهنأوه بما يسر الله على يديه من الخير[٥]، ومع ذلك كان يقول:" أنا رجل ملة لا رجل دولة"[٦].

أما المغول فكما مر معنا لم يلبث أن توفي غازان غماً وكمداً بعد هزيمته وتولى الحكم من بعده خدابندا سنة ٧٠٣هـ، وكان مغرى باللهو والكرم والعمارة، وبعد مضي عام على توليه الحكم أظهر الرفض في بلاده وأمر الخطباء ألا يذكروا في خطبهم إلا

(١) سبقت الإشارة أن المعركة كانت في رمضان سنة ٧٠٢هـ.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٢٧؛ العيني، المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٣.

(٣) ابن عبد الهادي، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٧٧.

(٤) ابن عبد الهادي، المصدر السابق، ص١٧٧-١٧٨؛ الكرمي، المصدر السابق،ص٩٦-٩٧.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق ، ج١٤ ص٢٧.

(٦) ابن عبد الهادي، المصدر السابق، ص١٧٧؛ الكرمي، المصدر السابق، ص٩٧.

علي بن أبي طالب وولديه و أهل بيته، وقرب الروافض، وأبعد أهل السنة وأهانهم[١].

وقد قام سنة ٧١٢هـ بتجهيز جيش لدخول بلاد الشام، ووصل الجيش إلى أطراف الشام ثم رجع على عقبيه بسبب قلة العلف وغلاء الأسعار وموت كثير منهم[٢].

وعندما وصل خبر تحرك التتار إلى الشام خرج السلطان لملاقاتهم ووصل إلى دمشق، وقدم في صحبة السلطان شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه خرج مع السلطان من مصر بنية الغزاة، فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتار رجعوا إلى بلادهم فارق الجيش من غزة وزار القدس[٣].

وفي سنة ٧١٦هـ لحق صاحب مكة الشريف حميضة بن أبي نمي الحسني[٤] بخربندا ملك التتار، وأقام ببلاده أشهرا طلب أن ينصره على أهل مكة فيرسل معه جيشا يغزو به مكة، وساعده جماعة من الرافضة على ذلك، وجهزوا معه جيشا كثيفا من خراسان، وكانوا مهتمين بذلك، ولكن لم يلبث أن توفي خربندا، فبطل ذلك الأمر، فقام الرافضة بمساعدته وكان فيهم رجل رافضي يدعى الدلقندي قد قام بنصرة حميضة وجمع له المال والرجال على أن يأخذ له مكة ويقيم الرفض في بلاد الحجاز[٥]، وأنهم ينقلون الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من جوار النبي ﷺ ، ثم إن الأمير محمد بن عيسى أخا مهنا بلغه الخبر فجمع من العربان نحو أربعة آلاف فارس وقصدهم في ذي الحجة وقاتلهم ونهبهم وكسب منهم أموالا عظيمة من الذهب والدراهم و الدواب

---

(١) النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ص٤١٩؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨ ص٢٧٨؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٣٧٧.

(٢) ابن كثير ، المصدر السابق، ج١٤ ص٦٨.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٦٩.

(٤) حميضة بن أبي نمي محمد بن أبي سعيد الحسني المكي عز الدين وإسمه نجاد ولي إمرة مكة إحدى عشرة سنة ونصف سنة.

انظر ابن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج٢ ص٥٣.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٨٠؛ ابن فهد القرشي، المصدر السابق، ج٢ ص٦١؛ النجم بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣ ص١٥٥؛ الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٤ ص٢٣٩-٢٤٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ق١ ص١٤٧-١٤٨.

والسلاح وغير ذلك، وأخذوا الفئوس والمحاريف التي كانوا قد هيئوها لنبش قبرالشيخين[١]،ثم استدعاه السلطان فحضر إليه، ثم إنه استفتى شيخ الإسلام ابن تيمية في تلك الأموال التي استولى عليها، وكذلك أرسل السلطان إلى شيخ الإسلام يسأله عنها، فأفتاهم أنها تصرف في المصالح التي يعود نفعها على المسلمين، لأنها كانت معدة لعناد الحق ونصرة أهل البدعة على السنة[٢].

وبهذا نجد شيخ الإسلام قد جاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم[٣]. فكان بهذا منارا للحق أعز الله به الإسلام وأهله، وكان سدا منيعا أمام غزوات التتار فقاومهم بالسيف وبالحجة فأظهر الله الحق على يديه، وأبان للناس الاعتقاد الصحيح وأوضح لهم جهالة البدع التي انتشرت بينهم، فقد توجه إلى صخرة في دمشق كان الناس يزورونها وينذرون لها، فأحضر جماعة من الحجارين وقطعوا تلك الصخرة[٤].

وإن أثره في تصحيح المعتقد قد تجاوز إلى البلاد التي تحت حكم المغول، فقد أرسل إليه قاضي واسط يشكو ما الناس فيه ببلادهم في دولة التتار من غلبة الجهل والظلم، ودروس الدين والعلم، وسأله أن يكتب له عقيدة، فأجابه إلى ذلك وكتب له العقيدة الواسطية[٥].وقد تعدى دور شيخ الإسلام ابن تيمية إلى نشر الإسلام بين أتباع الديانات الأخرى، فقد أسلم على يده الطبيب النصراني إبراهيم بن داود الآمدي[٦]، وهذا يدل على مدى الجهد الذي كان يبذله شيخ الإسلام ابن تيمية في خدمة هذا الدين، وكان هذا دأبه إلى أن توفي مسجونا سنة ٧٢٨هـ[٧].

---

(١) ابن فهد القرشي، المصدر السابق، ج٢ ص٦٢؛ النجم بن فهد، المصدر السابق، ج٣ ص١٥٦؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج٢ ص٣٧٨.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٤ ص٨٠.

(٣) مرعي الكرمي، المصدر السابق، ص٩١.

(٤) ابن إياس، المصدر السابق، ج١ ق١ ص٤١٧؛ العيني، المصدر السابق ، ج٤ ص٣٥٧.

(٥) الكرمي، المصدر السابق، ص١١٨.

(٦)ابن عبد الهادي، ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب، صـ٣١؛ ابن حجر،المصدر السابق،ج١ ص٢٧.

(٧) المقريزي، المقفى، ج١ ص٤٦٧؛ السلوك، ج٢ ق١ ص٣٠٤؛ مرعي الكرمي، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص٦٣ وما بعدها.

المبحث السادس

معاهدة الصلح بين سلطان المماليك محمد الناصر وسلطان المغول بوسعيد

بعد إعلان غازان لإسلامه سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م زال الحاجز النفسي الذي كان يحجز بين دولة المغول في العراق وفارس و بين دولة المماليك، إذ أن تحول حكام المغول هناك عن وثنيتهم إلى الإسلام ألغى الاختلاف العقائدي بين أحفاد هولاكو و بين المسلمين، ولذلك نجد محاولة الوفد الذي خرج من دمشق سنة ٦٩٩هـ لمقابلة غازان عند دخوله الشام ، وكان الوفد مكون من علماء دمشق وأعيانها، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان الوفد يريد توثيق الأمور والإصلاح والحصول على الأمان لأهل دمشق يحدوهم الأمل بعد إسلام غازان أن ينجح مسعاهم. ولكن الأعمال التي قام بها المغول في بلاد الشام لم تكن مرضية مما قضى على الأمل في أن يكون هناك وفاق أو صلح مع المغول[١].

وفي أواخر شوال سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م وصل وفد من قبل غازان إلى السلطان الناصر وكان من أفراد هذا الوفد القاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل[٢]، وعند وصولهم إلى السلطان الناصر أحسن إليهم وقربهم منه، ولما رأى قاضي الموصل ذلك خطب خطبة بليغة وذكر آيات في معنى الصلح بين الفريقين ، واتفاق الملكين والعسكرين، ثم بسط يده ودعى للسلطان، ثم بعده لمحمود غازان، ثم أوضح الرسالة التي بيده وأعاد الكلام في معنى الصلح[٣]. وبعدها سلم رسالة غازان للسلطان الناصر[٤].

وفي بداية السنة التي تلتها وهي سنة ٧٠١هـ، أعاد السلطان الناصر جواب الرسالة التي

---

(١) سبق الحديث عن ذلك في حملات غازان على بلاد الشام.

(٢) هو موسى بن محمد بن موسى بن يونس الأربلي، القاضي كمال الدين، قاضي الموصل، توفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م .

أنظر: العيني، المصدر السابق، ج٤ ص١٣١ حاشية٢.

(٣) العيني، المصدر السابق، جـ٤ صـ١٣١-١٣٢.

(٤) أنظر نص الرسالة في عقد الجمان، جـ٤ صـ١٣٣-١٣٧.

تلقاها من غازان وأرسل بالرسالة وفداً من قبله كان من ضمنهم القاضي عماد الدين علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن السكري، الشافعي (٦٣٨-٧١٣هـ) [١]. وتوجه الوفد يحمل الرسالة من السلطان الناصر[٢]، وقد حجزهم غازان لديه فلم تتمكنوا من العودة إلا بعد هلاك غازان في أيام خربندا[٣]. حيث تولى خربنذا مقاليد الحكم عقب وفاة أخيه غازان سنة٧٠٣هـ وأرسل إلى السلطان الناصر سنة٧٠٤هـ يخبره بجلوسه على العرش ويطلب الصلح وإخماد الفتنة[٤]، وكان في معية رسل خربندا الوفد الذي سبق إرساله إلى غازان من قبل السلطان الناصر[٥].

ولكن خربندا لم يلبث أن قام بتكرار محاولات أسلافه في الاستسلاء على بلاد الشام، فقد توجه في رمضان سنة ٧١٢هـ بجيوشه إلى بلاد الشام وحاصر الرحبة[٦] ثلاثة وعشرين يوما حتى تمكن من الاستيلاء عليها، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه في أواخر رمضان من العام نفسه[٧].

---

(١) قاضي القضاة وخطيب جامع الحاكم عماد الدين علي بن الفخر عبد العزيز بن قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلي بن السكري المصري، الشافعي، وقد ذهب في الرسالة إلى ملك التتار و توفي عن أربع وسبعين سنة سنة٧١٣هـ، وكانت ولادته سنة ٦٣٨هـ ووفاته سنة ٧١٣هـ.

أنظر:ابن العماد، المصدر السابق، جـ٦صـ٣٣؛ المقريزي، المصدر السابق، ج٢ق١صـ١٣٣.

(٢) أنظر نص الرسالة عند العيني، المصدر السابق، ج٤صـ١٥٨-١٦٨.

وفي آخر الجواب قال: "إذ جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله به مجتنبا ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان، وتجنب التشبه بمن قال الله في حقهم﴿**قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان**﴾(سورة الحجرات آية١٧) وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لايحل لهم أن يتخذهم حوله " وختم ذلك بقوله: وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لاانفصال لها ولاانفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام. -أنظر العيني، المصدر السابق، جـ٤، صـ١٦٧-١٦٨.

(٣) العيني، المصدر السابق، جـ٤، صـ٢٠٧.

(٤) أنظر المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، صـ٦؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٨، ص١٦٧.

(٥) العيني، المصدر السابق، جـ٤، صـ٣٢٠ .

(٦) مدينة في شرقي الفرات حصينة عامرة . (انظر الروض المعطاء ص ٢٦٨).

(٧) الذهبي، دول الإسلام، جـ٢، صـ٢١٨؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، صـ١١٩.

ولعل آثار هزيمة المغول في شقحب لم تزل بعد في مخيلة المغول، وكذلك أدرك المغول أن مواجهة جيش المماليك ليس بالأمر الهين، وبالتالي فلن تكون بلاد الشام لقمة سائغة للمغول.

ومهما يكن من أمر فإن علاقة العداء استمرت طيلة فترة حكم خربندا والتي امتدت من سنة ٧٠٣إلى ٧١٦هـ ، ولعل اعتناق خربندا لعقيدة الرافضة كان عاملا إضافيا في ذلك العداء المستحكم ، فقد أصدر أمره لكي ينشر عقائد التشيع بجلب أئمة هذا المذهب من البلاد لينشئوا مدارس خاصة لتعليم أصول التشيع وعقائد فرقه. وبذلك اجتمع حول سلطان المغول عدد من علماء الشيعة من أشهرهم جمال الدين الحسن بن المطهر الحلي (٦٤٨-٧٢٦هـ) [(١)] وكذلك ابنه فخر الدين محمد(٦٨٢-٧٧١هـ)، وانكبوا على تأليف الكتب ونشر عقائد هذا المذهب[(٢)] .

ولا غرابة عندئذ أن يفكروا في الاستيلاء على الحجاز مستغلين قدوم أمير مكة حميضة إليهم وطلبه المساعدة منهم في سنة ٧١٦هـ كما مر معنا، وأعدوا لذلك جيشا كثيفا لولا أن خرابندا وافاه أجله المحتوم مما حال دون تنفيذ ذلك[(٣)].

وبوفاة السلطان خرابندا انطوت صفحة من علاقات المغول الإيلخانيين بالمماليك، فقد تولى الحكم من بعده ولده السلطان أبو سعيد بن خرابندا[(٤)] (٧١٦-٧٣٦هـ / ١٣١٦-١٣٣٥م) وكان عهده بداية جديدة للعلاقات بين التتار والمماليك ، فقد عدل السلطان أبو سعيد إلى إقامة السنة فأمر بإقامة الخطبة بالترضي عن الشيخين أبي بكر وعمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم[(٥)].

---

(١) من علماء الشيعة البارزين من تلاميذ نصير الدين الطوسي، وقد قدم كتابين من تآليفه إلى السلطان خرابندا، وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المشهور: منهاج السنة.

(٢) أنظر ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص٧٩؛ عباس إقبال الآشتياني، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص٤٨٠.

(٣) أنظر ص من المبحث السابق.

(٤) أبو سعيد بن خرابندا بن أرغون المغلي ملك التتار، صاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم، وكان مسلم حسن الإسلام، وأقام في الملك عشرين سنة، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٧٣٧هـ.

ابن حجر، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٤-٣٥، ٣٣١. ويلاحظ أن ابن حجر يسميه بو سعيد بدون الألف.

(٥) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص٨٠ ؛ الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢٢.

وفي سنة ٧١٧هـ قدم كتاب المجد إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي[1] بإذعان الملك أبي سعيد بن خرابندا وأكابر أمراء المغول للصلح[2].

وفي شعبان سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م أراق ملك التتار أبو سعيد الخمور في سائر مملكته، وأبطل منها بيوت الفواحش، وأبعد أرباب الملاهي، وأغلق الخانات وأبطل المكوس، وأظر العدل والإحسان، وعمّر المساجد والجوامع، وزوج الخواطئ وعاقب على الخمور والفواحش أشد العقوبة[3].

وسبب ذلك "أنه أصابهم برد عظيم وجائهم سيل هائل فلجأوا إلى الله عز وجل، وابتهلوا إليه فتابوا وأنابوا وعملوا الخير عقب ذلك"[4].

وفي شهر ذي الحجة عام ٧٢٠هـ وصل إلى دمشق من عند ملك التتار مجد الدين السلامي، وفي صحبته هدايا وتحف لسلطان مصر من ملك التتار، وأخبر أنه جاء ليصلح بين المسلمين والتتار، ثم توجه إلى مصر[5]. وعند وصوله إلى مصر خرج القاضي كريم الدين الكبير إلى لقائه، وصعد به إلى القلعة، فأخبر برغبة أعيان دولة أبي سعيد في الصلح، وأن الهدية تصل مع الرسل، ثم قدمت الرسل بعد ذلك في رجب سنة ٧٢١هـ[6] بالكتب وفيها طلب الصلح بشروط منها[7]:

- ألا تدخل الفداوية إليهم.
- أن من حضر من مصر إليهم لا يطلب.
- من حضر منهم إلى مصر لا يعود إليهم إلا برضاه.

---

(١) إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلاّمي مجد الدين ابن الخواجا تاجر الخاص في الرقيق ولد سنة ٦٧١هـ. وهو الذي سعى مع النوين جوبان في الصلح بين الملك الناصر وأبي سعيد ملك التتار .مات سنة ٧٤٢هـ. ابن حجر، المصدر السابق، جـ١، ص٤٠٧.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ق١، ص١٧٥.

(٣) المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، ص٢١١ ؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص١٠٢؛ الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢٨.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص١٠٠ ؛ ابن الوردي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٨٧.

(٥) انظر ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص١٠٠-١٠١.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٤، ص١٠٢.

(٧) انظر المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، ص٢٠٩-٢١٠.

- ألا يبعث إليهم بغارة من عرب ولا تركمان.
- أن تكون الطريق بين المملكتين مفسوحة تسير تجارة كل مملكة إلى الأخرى.
- أن يسير الركب من العراق إلى الحجاز في كل عام بمحمل ومعه سنجق فيه إسم صاحب مصر مع سنجق أبى سعيد ليتجمل بالسنجق السلطاني.
- ألا يطلب الأمير قراسنقر[١].

فجمع السلطان الأمراء واستشارهم في ذلك، بعدما قرأ عليهم الكتاب، فاتفق الرأي على إمضاء الصلح بهذه الشروط، وجهزت الهدايا لأبي سعيد[٢].

وفي سنة ٧٢٢هـ-١٣٢٢م وصلت رسل أبى سعيد وفيهم قاضي توريز[٣]، يسألون الصلح وانتظام الكلمة واجتماع اليد على إقامة معالم الإسلام من الحج وإصلاح السابلة وجهاد العدو، فأجاب السلطان إلى ذلك ، وبعث رسولا من عنده لإحكام العقد معهم وإقضاء أيمانهم، ومعه هدية سنية، وعاد سنة ٧٢٣هـ ومعه رسل أبي سعيد فتم ذلك وانعقد بينهم[٤]. وأعقب ذلك الصلح الاتفاق وتردد الرسل و المكاتبات بين السلطان أبي سعيد والسلطان الناصر محمد بن قلاوون[٥].

ونلاحظ أن للعلماء دورا بارزا في إتمام ذلك الصلح تمثل في الجهود التي قام بها القاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل، وكذلك القاضي عماد الدين السكري. وقد أبدى بعض العلماء إرتياحهم لذلك الصلح كما حصل من الذهبي حيث عقب بحمد الله بعد ذكره للصلح[٦].

---

(١) قراسنقر الجوكندار اشتراه المنصور قلاوون ، تولى نيابة الشام من سنة ٧٠٩الى سنة ٧١١هـ حيث هرب الى خربندا ملك التتار وضل مقيما هناك الى ان توفي سنة ٧٢٨هـ.(انظر ابن حجر ، المصدر السابق ؛ ج٣ ص٣٣٠)

(٢) المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، ص٢١٠.

(٣) توريز هو الاسم الذي كان جاريا على ألسنة العامة للدلالة على مدينة تبريز أشهر مدن أذربيجان. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤ ص٣٥٧.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، م٥ جـ٤ ص٩٢٦-٩٢٧؛ المقريزي، المصدر السابق، ج٢ ق١ ص٢٣٧، ٢٤٢،٢٤٥.

(٥) أنظر المقريزي، المصدر السابق، جـ٢، ق١، ص٢٥٩،٢٦٤،٢٧٢،٢٧٣،٢٨٣،٢٩٥،٢٩٩. النويري، المصدر السابق، جـ٢٧، ص٢٤٠ ؛ القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، جـ٢، ص١٣٩.

(٦) الذهبي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢٩.

الخاتمة

الخاتمة

بعون الله تعالى وتوفيقه تم الانتهاء من موضوع الرسالة التي قمت فيها بدراسة دور العلماء والفقهاء المسلمين في الجهاد ضد المغول، وقد توصلت إلى كثير من الحقائق التاريخية ومن هذه النتائج:

أن المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي كان يعاني من الأوضاع السياسية المتردية إذ تفككت الدولة السلجوقية، وقامت على أنقاضها عدة دويلات كان أكبرها الدولة الخوارزمية، ثم دخلت هذه الدويلات في صراع مستمر مع بعضها، واستطاعت الدولة الخوارزمية إن تمد نفوذها على المشرق الإسلامي ولكنها دخلت في صراع مع الخلافة العباسية، مما ترتب عليه استنزافا للموارد البشرية والاقتصادية، وجعل الجميع ينصرف عن الجهاد في نشر الإسلام ، حيث شغلوا بقتال بعضهم بعضا، يضاف إلى ذلك ما حصل من الدولة الخوارزمية من ظلم وسفك دماء المسلمين، وانتشار للفساد والموبقات.

وفي نفس الوقت أخذ الانحراف عن عقيدة أهل السنة والجماعة يظهر بشكل واضح من خلال انتشار التشيع والاعتزال والتصوف بطرقه المتعددة، فلما ظهرت تلك البدع والانحرافات، سلط الله عليهم أولئك الكفار ممن لا يعرف الرحمة و الشفقة، فكان ذلك الغزو المغولي المدمر على بلدان المشرق الإسلامي.

وقد اتضح من خلال الدراسة قيام عدد من علماء المشرق بمحاولة الصمود أمام الغزو المغولي ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئا لضعف التجاوب ولشدة الانحراف الذي سرى في أهل المشرق عموما، مع أن عددا من أولئك العلماء خرجوا بأنفسهم وقدموا كل ما يملكون حتى نالوا الشهادة والكرامة عند الله غير ملتفتين إلى ما حصل للناس من تخاذل، وقد قام بعض العلماء بمحاولات متعددة للإصلاح بين حكام المسلمين ليوحدوا صفهم، ويقفوا يدا واحدة أمام أعدائهم، ولكن تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح أمام أطماع أولئك الحكام الذين قدموا مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة الإسلامية

فاستمر النزاع والشقاق بينهم، ومن أبرز تلك الجهود التي بذلت في الإصلاح جهود كل من السهروردي ومحي الدين ابن الجوزي والبادرائي.

وكذلك أوضح البحث أن التحذيرات التي وجهها العلماء والفقهاء المسلمون إلى الحكام المسلمين لم تجد من يستجيب لها –مع الأسف–، فكانت تحذيراتهم كمن ينفخ في رماد، وبالتالي دفع الجميع ثمن ذلك الاعراض وعدم السماع لكلمة الحق عندما دخلت جيوش التتار المشرق الإسلامي وما خلفته من قتل ودمار وخراب، وذهب ضحية ذلك الغزو أعدادا كبيرة من العلماء، لم نعد نعرف عنهم الشيء الكثير، لذهاب مؤلفاتهم وتراثهم الفكري.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أخذ العبرة والعظة مما حدث لبلاد المشرق الإسلامي، وأن الإهمال في القيام بواجبات الدين يجعل الأمة معرضة لعقوبة الله تعالى، وأن ترك الجهاد يؤدي إلى التراجع والتخاذل، فالجهاد حصن الأمة وعزتها، وفي تركه ضياع لها وذل.

وقد تبين من خلال البحث الوضع الذي آلت إليه الخلافة العباسية في بغداد من ضعف ، فقد انتشر اللهو والترف، وابتعد الخليفة العباسي المستعصم بالله عن توجيه الأمور، حيث أوكل شؤون الحكم إلى أعوانه من كبار الموظفين وعلى رأسهم وزيره الشيعي ابن العلقمي. مما جعل الخلافة العباسية كالفريسة التي تنتظر أن ينقض عليها الصياد في أي لحظة.

وقد أوضحت الدراسة الجهود التي قام بها عدد من العلماء والفقهاء المسلمين في محاولة إقناع هولاكو بعدم دخول بغداد وفي مقدمة تلك المحاولات ما قام به الباخرزي من بذل الجهد في هذا المسعى الحميد، ولكن لم يقدر لتلك الجهود أن تنجح، وهنا تكالب على الخلافة العباسية أعداؤها من الداخل والخارج لتسقط بغداد بيد هولاكو يساعده في ذلك الوزير الرافضي ابن العلقمي، كما أن الشيعة قد وقفوا مع النصارى تحت مظلة المغول مؤيدين لهم وناصرين لهم على المسلمين.

وقد بينت الدراسة النتائج المهمة لسقوط بغداد بيد المغول وما ترتب على ذلك من آثار سياسية واجتماعية وفكرية مع ذكر للعلماء الذين استشهدوا عند استيلاء المغول

على بغداد، ورغم قيام عدد من العلماء بالسفارات بين الحكام المسلمين وهولاكو لمحاولة الوصول إلى ما يحقن دماء المسلمين ولكن تجبر هولاكو وإغتراره بقوته منع من الوصول إلى ذلك الهدف، وخاصة أن الحكام المسلمين كانوا في حالة شديدة من الضعف مما يغري عدوهم بالهجوم عليهم.

وقد أوضحت الدراسة الجهود التي بذلها العلماء والفقهاء المسلمون من أجل القيام بأعمال جهادية في المدن الإسلامية، ومن ضمنها جهود ابن شداد في حث الكامل الأيوبي صاحب ميافارفين على الصمود والتصدي للمغول، وقد قاوم الكامل المغول داخل مدينة ميافارفين قرابة السنتين إلى أن فني أهل البلد من الحصار وقلت المؤن والغذاء مع المرض، بعدها تمكن المغول من دخول تلك المدينة. وقد قام ابن العديم بمحاولة إقناع الناصر يوسف صاحب دمشق وبلاد الشام بالتكاتف مع المماليك في مصر ليشكلوا بذلك جبهة موحدة ضد المغول، وسافر ابن العديم إلى مصر لذلك الغرض فلقي التجاوب من المماليك، ولكن الناصر يوسف بقي مترددا حتى وقع في أسر المغول وهناك لقي حتفه على أيديهم.

وبجوار هذه المواقف المضيئة أوضح البحث جانبا آخر وهو تسابق بعض القضاة في بلاد الشام إلى لقاء هولاكو وأخذ تقليد القضاء بالديار الشامية منه، وقد تبين من خلال البحث مدى انهيار الروح المعنوية لدى المسلمين بعد سقوط بغداد واجتياح المغول لبلاد الشام، فالخوف والهلع سيطر على أفئدة الكثيرين، وزاد من ذلك ما يصل إلى أسماعهم من وحشية المغول والمجازر التي يقومون بها في كل بلد يصلون إليه، وذهبت الظنون ببعض من قل يقينه بالله أنه لن تقوم للإسلام قائمة بعد هذا.

ونتج عن الدراسة معرفة الجهود التي بذلها العلماء والفقهاء المسلمون في رفع الروح الجهادية لدى المسلمين، ونزع روح الضعف والتخاذل التي عمتهم، وقد اتضح ذلك من خلال الدور العظيم الذي قام به العز بن عبد السلام، فبعد سقوط بغداد، عقد مجلس عام في القاهرة جمع الأمراء والعلماء، وكان المرجع في ذلك المجلس هو العز بن عبد السلام فقد قام في ذلك مقاما عظيما، سد فيه الفراغ الروحي الذي تركه زوال الخلافة العباسية، وخرج المجلس بقرار مواجهة المغول في معركة حاسمة تحشد لها

كل الطاقات والإمكانيات. وخرجت جموع المسلمين إلى معركة عين جالوت يلهب مشاعرها ذلك الشيخ الذي حاوز الثمانين من عمره، وكان دوره مؤثرا وقويا لصدعه بالحق وقوته فيه، ثم توضيحه لأحكام الجهاد وفضائله في كتاب يحمل عنوان أحكام الجهاد وفضائله، ليرغب الناس في الجهاد ويحثهم عليه، فكان لدعوته تلك صدى كبيرا في نفوس الجند والمجاهدين، وكان النصر للمسلمين في معركة عين جالوت، وتمزق الجيش المغولي شر ممزق، وهرب لا يلوي على شيء فترك بلاد الشام بأسرها، وكان هول المفاجأة شديدا على هولاكو حيث سحق جيشه في عين جالوت، وخرجت فتاوي العلماء والفقهاء توضح حكم من تعامل مع المغول وداخلهم وساندهم ، ونفذ حد القتل في عدد من أولئك الذين دلوا على عورات المسلمين وكانوا سندا للمغول.

ونخلص إلى نتيجة مهمة وهي أن دولة المماليك منذ اللحظة الأولى لمواجهتها للمغول نراها تستند إلى فتاوى العلماء والفقهاء المسلمين، وترجع إلى مشاورتهم، ولذلك لم يأل العلماء جهدا في نصح حكام المماليك، وإرشادهم إلى الأحكام المتعلقة بالجهاد وغيره من الأمور، ولو خالف ذلك هوى حكام المماليك كما حصل للإمام النووي مع السلطان بيبرس، وقد أسفر هذا عن نصر آخر مؤزر لا يقل في الأهمية عن معركة عين جالوت وهو النصر الذي تم في معركة حمص، وقد شارك العلماء والفقهاء في تلك المعركة.

وتبين من الدراسة أن دور العلماء لم يقتصر على ميادين القتال رغم قيامهم بذلك الواجب بل تعداه إلى محاولة نشر الإسلام في صفوف المغول، وقد نتج عن تلك الجهود إسلام السلطان بركة سلطان مغول الشمال، وبإسلامه انتشر الإسلام بين قومه من مغول الشمال وقامت العداوة بينهم وبين بني عمهم من أبناء هولاكو، وأصبح بالمقابل لمغول الشمال علاقة ودية مع المماليك.

وكذلك بذل العلماء والفقهاء المسلمون جهودا كبيرة في نشر الإسلام بين صفوف المغول الإيلخانيين في إيران والعراق نتج عنها إسلام الكثير منهم، بل أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للدولة بعد إسلام السلطان غازان. وهنا نرى ظاهرة غريبة وهي تحول الغالب إلى دين المغلوب في فترة وجيزة لم يطل عليها الزمن، لقد سحرت

الحضارة الإسلامية -بما فيها من رقي إنساني- عقول المغول، فأخذوا في التدافع نحو الإسلام، وأخذوا يذوبون في المجتمعات الإسلامية التي سبق لهم أن سيطروا عليها.

ولكن الحاكم المغولي غازان رغم إظهاره الإسلام إلا أنه قام بحملات عسكرية على بلاد الشام محاولا تحقيق حلم أسلافه بالاستيلاء على الشام، ويقود الجيوش بنفسه، وترتكب جيوشه الجرائم العظيمة أثناء دخولها الشام، وهنا يقوم علماء دمشق بمحاولة حقن الدماء ومنع غازان من الاستمرار في ذلك خاصة وأنه أعلن إسلامه. وقد انبرى لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي التقى بغازان، ثم التقى بكبار قادته، وعرف الشبهات التي وقعت عليهم فرد عليها ووضح الحق لهم وعندما أدرك أن لا شبهات لديهم وأصدر عدة فتاوي تبين الموقف الصحيح الذي يجب أن يتخذه المسلمون، وفي سبيل تحقيق ذلك يوفده أهل الشام لمقابلة السلطان محمد الناصر وينبه على ضرورة مناصرة أهل الشام أمام غزوات المغول وأن ذلك واجب عليه، وبناءاً على ذلك يجمع السلطان قواته ويعاود القتال الذي خسره سابقا أمام المغول ويدخل المماليك معركة حاسمة ضد المغول شارك فيها العلماء والفقهاء المسلمون وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية،وينتصر المسلمون في معكرة شقحب ليزول بذلك الخطر المغولي عن بلاد الشام.

وقد تناولت الدراسة دور العلماء والفقهاء المسلمين في عقد معاهدة الصلح بين المغول الإيلخانيين وبين المماليك، والتي على ضوئها انتهت حالة الصراع التي استمرت بين الدولتين لمدة طويلة، بعد أن أقام سلطان المغول أبو سعيد الأحكام الشرعية، ونشر مذهب أهل السنة والجماعة.

ونخلص من ذلك إلى نتيجة مهمة وهي أنه حين يتوقع زوال الإسلام ويتكالب الأعداء عليه، يخرج مرة أخرى وبقوة أشد مما مضى، فرغم تكالب قوى الشر آنذاك على الإسلام فالمغول قدموا من الشرق والصليبية ما تزال تفد من الغرب والمسلمون معهم في جهد ومشقة، وإذا بالفرج يأتي من عند الله وتزول دولة المغول ويخيب مسعى الصليبيين ويبقى الإسلام فقد تكفل الله بحفظه.

ومـن النتـائج أن الانحرافـات والفتـن لا تخـص مرتكبهـا وحـده، بـل إذا شـاعت وعمت فإن البلاء يكون عاما .

ومن النتائج المهمة أن للعلماء في المجتمع أثرهـم البالغ سلبا وإيجابا فإذا صلحـوا كانوا نورا يهدي ومصابيح مضيئة وكانوا هم أطباء الأمة الحاذقين بعلاجها ومعرفة دائها، وعندهم تجد خلاصها مما تعاني، وإن حصل لهم انحراف في المعتقد أو السـلوك أو مـا شابه ذلك كانوا مما يزيد الأمة في التيه الذي يصيبها وتزداد مصيبـة النـاس فيهـم، حيـث تضيع معالم الحق فيخطئ الناس الطريق، وترتسم عليهم علامات الحيرة والتخبط.

الملاحق

الملحق رقم: ١.

ترجمة لخوارزم شاه جلال الدين منكبرتي[1]

خوارزم شاه، السلطان جلال الدين منكوبري، ابن السلطان علاء الدين محمد بن تُكش بن أرسلان بن آتسز بن محمد بن نوشتكين، الخوارزمي.

لما قصد جنكزخان بجيوشه بلاد ما وراء النهر لخلوها من العساكر إذ هم مع السلطان علاء الدين بهمذان، رجع علاء الدين مسرعا وسير ولده جلال الدين هذا في خمسة عشر ألفا بين يديه ، فتوغل في البلاد، فأحاط به جنكزخان بجيوشه ، فطحنوه، وتخلص بعد الجهد، وتوصل إلى أبيه.

ولمازال ملك أبيه ومات غريبا تقاذفت بجلال الدين البلاد، فرمته بالهند، ثم ألقته الهند إلى كرمان، ثم إلى سواد العراق. وساقته المقادير إلى بلاد أذربيجان وأرّان، وغدر بأتابك أزبك، وأخرجه من بلاده ، وأخذ زوجته بنت السلطان طغريل وتزوج بها وعمل مصافا مع الكرج، فكسرهم كسرة لا انجبار معها، وقتل ملوكهم، وقوي أمره وكثرت جموعه وافتتح تفليس وتقلبت به الأحوال .

حكى الشهاب النسوي في (سيرة خوارزم شاه)قال: كان جلال الدين أسمرا قصيرا، تركي الجسارة والعبارة. وكان يتكلم بالفارسية أيضا. وأما شجاعته، فحسبك منها ما أوردته من وقعاته، فكان أسدا ضرغاما، أشجع فرسانه إقداما. وكان حليما لا غضوبا ولا شتاما، وقورا، لا يضحك إلا تبسما، ولا يكثر كلاما. وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب. وهذه السيرة في مجلد فيها عجائب له من ارتفاع وانخفاض وفرط شجاعة. وفي الآخر تلاشى أمره وكسبه التتار في الليل، فنجا في نحو مائة فارس ثم تفرقوا عنه إلى أن بقي وحده وساق خلفه خمسة عشر من التتار وألحوا في طلبه، فثبت لهم، وقتل منهم اثنين، فوقفوا. وطلع إلى جبل بنواحي آمد به أكراد، فأجار رجل كبير منهم ، فعرفه أنه السلطان ووعده بكل جميل ففرح الكردي، ومضى

---

[1] نقلاعن : الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ط ٦٣،ص ٢٨٣-٢٨٧

ليحضر خيله، ويعلم بني عمه، وينهض بأمره، وتركه عند أمه، فجاء كردي جريء فقال: إيش هذا الخوارزمي تخلُّونه عندكم؟ فقيل له: أسكت، ذا هو السلطان. فقال: إن كان هكذا، فذا قد قتل -بخلاط- أخي، ثم شد عليه بحربة معه، فقتله في الحال.

وقال الموفق عبد اللطيف: كان أسمر أصفر نحيفا، سمجا، لأن أمه هندية. وكان يلبس طرطورا فيه من شعر الخيل، مصبغا بألوان. وكان أخوه غياث الدين أجمل الناس صورة وأرقهم بشرة لكنه ظلوم غشوم وهو ابن تركية.

قال: والزنا فيهم -يعني في الخوارزمية- فاشٍ، واللواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشرط الكبر والصغر. والغدر خلق لا يزايلهم، أخذوا قلعة عند تفليس بالأمان، فلما نزل أهلها، وبعدوا يسيرا، عادوا عليهم، فقتلوا من كان يصلح للقتل، وسبوا من كان يصلح للسبي. ورد علي رجل من تفليس كان يقرأ علي الطبَّ، فذكر لي ذلك كله، وأنه أقام بتفليس ست سنين، واكتسب مالا جما بالطب. فلما قرب الخوارزميون جاء رسولهم إلى الملكة بكلام لين، فبينما هو في مجلسها وقد وصل قاصد يخبر بأن القوم في أطراف البلاد يعيثون، فقالت للرسول: أهكذا تكون الملوك يرسلون رسولا بكلام، ويفعلون خلافه؟ وأمرت بإخراجه. وبعد خمسة عشر يوما وصلوا، فخرج إليهم جيش الكرج، فقال إيواني: نرتب العسكر قلبا وميمنة وميسرة، فقال شلوه: هؤلاء أحقر من هذا، أنا أكفي أمرهم. فنزل في قدر سبعة آلاف أكثرهم تركمان بتهور، وكان في رأسه سكر، فتقدم فصار في وسطهم، وأحاطوا به، ووقع علمه. فقال إيواني: هذا شلوه قد كسر، ردّوا بنا، وأخذ في مضيق، وتبعه المنهزمون، فتحطموا في مضيق عميق حتى هلك أكثرهم. وتحصّن إيواني بمن معه في القلاع. فبقي الخوارزميون يعيثون، ويفسدون أي شيء وجدوه، واعتصمت الملكة بقلاع في مضايق.

ثم إن ابن السديد التفليسي قصد الإصلاح ظنا منه أنهم يشبهون الناس، وأن لهم قولا وعهدا، فخرج يطلب الأمام لأهل المدينة أجمعين المسلمين والكرج واليهود، فأخذ خط جلال الدين وأخيه غياث الدين وحميه وختومهم، ولوحا من فضة مكتوبا بالذهب يسمى بايزة، وتوثّق. فساعة دخلوا، نهبوا مماليك ابن السديد ونعمته وندم، وعملوا بجميع الناس كذلك، وسموا المسلمين مرتدين، واستحلوا أموالهم وحريمهم، وصاروا لا

يتركون زوجة حسناء، ولا ولدا حسنا، ويهجم الواحد منهم على قوم، فيستدعي بطعام وشراب، ويؤاخي زوجة صاحب الدار، ويطلبها للفراش ويقول: هكذا أخوّتنا، ثم يصبح، فإن وجد لهم ولدا يعجبه، أخذه معه، وإن كان عند أحد سلعة فأراد بيعها، فنادى عليها بخمسين دينارا، أخذها بخمسة دنانير، فإن تكلم صاحبها ضربه بمقرعة معه، رأسها مطرقة، فربما مات، وربما غشي عليه.

قال: وعددهم لا يبلغ مائة ألف، ربما كان ستين ألفا، كلهم جياع، مجمعة ليس لهم مدد، وكلهم عليهم أقبية القطن، وسلاحهم النشاب القليل الصنعة يرمون عن قسي ضعاف لا تؤثر في الدروع. وليس لهم ديوان ولا عطاء، إنما لهم نهب ما وجدوه، ولا يمكنه أن يكفهم عن شيء.

قال لي: وجميع من جرب التتر يشهد أن سيرتهم خير من سيرة الخوارزميين.

ثم قال الموفق: ولما توجه جلال الدين إلى غزنة والهند فارا من جنكيزخان واستنجد بملكها، فأرسل معه جيشا، فأقاموا في قتال التتر أياما كثيرة، ثم انهزم وحيدا فقيدا، وتوجه نحو كرمان، وكان هناك ملكان كبيران، فأحسنا إليه، فلما قوي شيئا، غدر بهما، وقتل أحدهما، وفر فأتى شيراز على بقر وحمير، وأكثر من معه رجاله، فدفع به صاحبها نحو بغداد، فأفسد في شهرابان وتلك النواحي. وكان أخوه غياث الدين قد انفرد في ثلاثين رجلا هاربا، ومعه صوفي يصلي به، فلما نام توامر الجماعة على قتله، والتقرب برأسه إلى التتر، فأحس بذلك الصوفي، فتركهم حتى ناموا وأيقظه وأعلمه، فعاجلهم فذبحهم، وترك منهم قوما يشهدون بما عزموا عليه. ثم دخل أصبهان فقيرا وحيدا، فأحسنوا إليه، واجتمع إليه شذاذ عسكر أبيه، وجاءته خاع من بغداد وتشريف، ووُعد بالسلطنة، فسمع بوصول أخيه فقال: لا تصل إلا بأمر الديوان، فاستأذن، فأذن له، فلما وصل جلال الدين خاف من أخيه، فاعتقله، وقيده مدة حتى قوي واستظهر، ثم أطلقه. وفي الآخر ضعف دَسْت جلال الدين، ومقته الناس لقبه سيرته، ولم يترك له صديقا من الملوك بل عاد الكل، ثم اختلف عليه جيشه لما فسد عقله بحب مملوك، فمات المملوك فأسرف في الحزن عليه، وأمر أهل توريز بالنَّوح واللطم، وما دفنه، بل بقي يستصحبه،

ويصرخ عليه، والويل لمن يقول: إنّه ميت، فاستخف به الأمراء وأنفوا منه، وطمعت فيه التتار لانهزامه من الأشراف واستولوا على مراغة وغيرها.

قلتُ: وفي الحوادث على السنين قطعة من أخباره. ولقد كان سدّاً بين التتر وبين المسلمين، والتقاهم غير مرة. وقد ذهب إليه في الرُّسْلِيّة الصاحب محي الدين يوسف ابن الجوزي، فدخل إليه، فرآه يقرأ في المصحف ويبكي، واعتذر عما يفعله جنده لكثرتهم وعدم طاعتهم. وفي آخر أمره كَسَرَه الملك الأشرف، وصاحب الروم، فراح رواحا بخسا، ثم بعد أيام اغتاله كردي، وطعنه بحربة، فقتله في أواءل سنة تسع وعشرين بأخٍ له كان قد قتل على يد الخوارزمية. وتفرق جيشه من بعده وذلوا.

قلتُ: لم يشتهر موته إلا في سنة تسع، وإنما كان في نصف شوال سنة ثمان.

الملحق رقم: ٢.

مكاتبات الإمام النووي إلى الملك الظاهر بيبرس[١]

كتب الإمام النووي ورقة إلى الملك الظاهر، تتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس. وكتب معه فيها جماعة ووضعها في ورقة كتبها إلى الأمير بدر الدين بيلبك الخزندار، بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان، وصورتها:

" بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله يحيى النووي، سلام الله تعالى ورحمته وبركاته على المولى المحسن، ملك الأمراء بدر الدين، أدام الله الكريم له الخيرات، وتولاه بالحسنات، وبلغه من أقصى الآخرة والأولى كل آماله، وبارك له في جميع أحواله، آمين.

و يُنهي أهل العوم الشريفة، أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش وضعف حال، بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلة الغلاّت والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك. و أنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الراعي والرعية، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع، الناصحون للسلطان، المحبون له، كتابا يذكره النظر في أحوال الرعية والرفق بهم. وليس فيه ضررٌ بل هو نصيحة محضة، وشفقة، وذكرى لأولي الألباب. والمسؤول من الأمير أيده الله تعالى تقديمه إلى السلطان ، أدام الله له الخيرات، ويتكلم عنده من الإشارة بالرفق بالرعية بما يجده مدخرا عند الله تعالى: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه﴾**. وهذا الكتاب أرسله العلماء أمانة ونصيحة للسلطان، أعز الله أنصاره [و المسلمين كلهم في الدنيا والآخرة]، فيجب عليكم إيصاله

للسطان، أعز الله أنصاره، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة، و لاعذر لكم في التأخر عنها. ولاحجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى، وتسألون عنها: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾**، **﴿يوم يفر المرءُ من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم**

---

(١) نقلا عن المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي للسيوطي ص ٦٦-٧٦.

يومئذ شأن يغنيه﴾، وأنتم بحمد الله تحبون الخير وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات، وقد أُهِلتم له، وساقه الله إليكم، وهو فضل من الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال الله تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾، وقال تعالى: ﴿**و ما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾.

والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فإذا فعلتموه، فأجركم عند الله: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

فلما وصلت الورقتان إليه، أوقف عليهما السلطان، فرد جوابهما ردا عنيفا مؤلما، فتنكدت خواطر الجماعة الكاتبين، فكتب رضي الله تعالى عنه جوابا لذلك الجواب:

" بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد. من عبد الله يحيى النووي، يُنْهي انّ خَدَمَة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان -أعز الله أنصاره- فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذُكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوْجب الله إيضاح الأحكام عند الحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى:﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه**﴾، فوجب علينا حينئذ بيانه، وحرم علينا السكوت، قال الله تعالى: ﴿ **و لا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم**﴾.

وذُكر في الجوار أن الجهاد ليس مختصا بالأجناد، و هذا أمر لم ندعه، ولكن فرضُ كفاية، فإذا قرر السلطان له أجنادا مخصوصين، ولهم أخبار معلومة من بيت المال، كما هو الواقع، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم، ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزراعة والصنائع، وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخبار المقررة لهم، ولايحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع، أو أرض، أو ضياه تباع، أو غير ذلك، وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان -أعز الله أنصاره- متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله تعالى معمور، زاده الله عمارة وسعة وخيرا وبركة بحياة السلطان، المقرونة بكمال السعادة له

والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين، ﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾، وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبي ﷺ ، وملازمة أحكام الشرع.

وجميع ما كتبناه أولاً وثانيا، هو النصيحة التي نعتقدها،وندين الله بها، ونسأله الدوام عليها إلى أن نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان، إلا لعلمنا أنه يحب الشرع، ومتابعة أخلاق النبي ﷺ ، في الرفق بالرعية والشفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي ﷺ ، وكلٌّ ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه.

و أما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام و أهل الإيمان والقرآن، بطغاة الكفار؟! وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا؟.

و أمّا تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟

وأما أنا في نفسي، فلا يضرني التهديد ولا أكثرمنه، ولايمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى: ﴿**إنما هذه الحيوة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار**﴾، ﴿**وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد**﴾، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيث كنا، وأن لا نخاف في الله لومة لائم.

ونحن نحب للسلطان أكمل الأحوال، وما ينفعه في آخرته ودنياه، ويكون سببا لدوام الخيرات له، ويبقي ذكره على ممر الأيام، ويخلد به في الجنة ويجد نفعه ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا**﴾. وأما ما ذكر في تمهيد السلطان البلاد، وإدامة الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة، التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة وطارت في أقطار الأرض، ولله الحمد، وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا**﴾.

ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وكتب إلى الملك الظاهر لما احتيط على أملاك دمشق:

" بسم الله الرحمن الرحيم. قال الله تعالى :﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾، وقال الله تعالى:﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾. وقال تعالى: ﴿**و تعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان**﴾.

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان –أعز الله أنصاره– ونصيحة عامة المسلمين. ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:"الدين النصيحة، لله، وكتابه، وأئمة المسلمين، و عامتهم". ومن نصيحة السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه بكرامته أن ننهي إليه أحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام. وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم. قال تعالى: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾.و في الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ :"إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم"، وقال ﷺ : "من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، وقال ﷺ :اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه"، وقال ﷺ : "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، وقال رسول الله ﷺ :" إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا".

وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين، بالسلطان –أعز الله أنصاره–، فقد أقامه لنصرة الدين والذب عن المسلمين ، وأذل له الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهودة، في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسيفه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له و للمسلمين وزيادتها في خير وعافية آمين.

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين فقال تعالى:﴿**لإن شكرتم لأزيدنكم**﴾ وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثباتا لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه، لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته. وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به فهو أولى من عمل به، والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والافراج عن جميعهم، فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة، وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين، والضعفة والصالحون، وبهم تنصر وتغاث وترزق، وهم سكان الشام المبارك، جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، و سكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم وأطلقهم في الحال، ولم يؤخرهم، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها .

فبالله! أغث المسلمين، يغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الافراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء، وقد نهبت كتبهم.

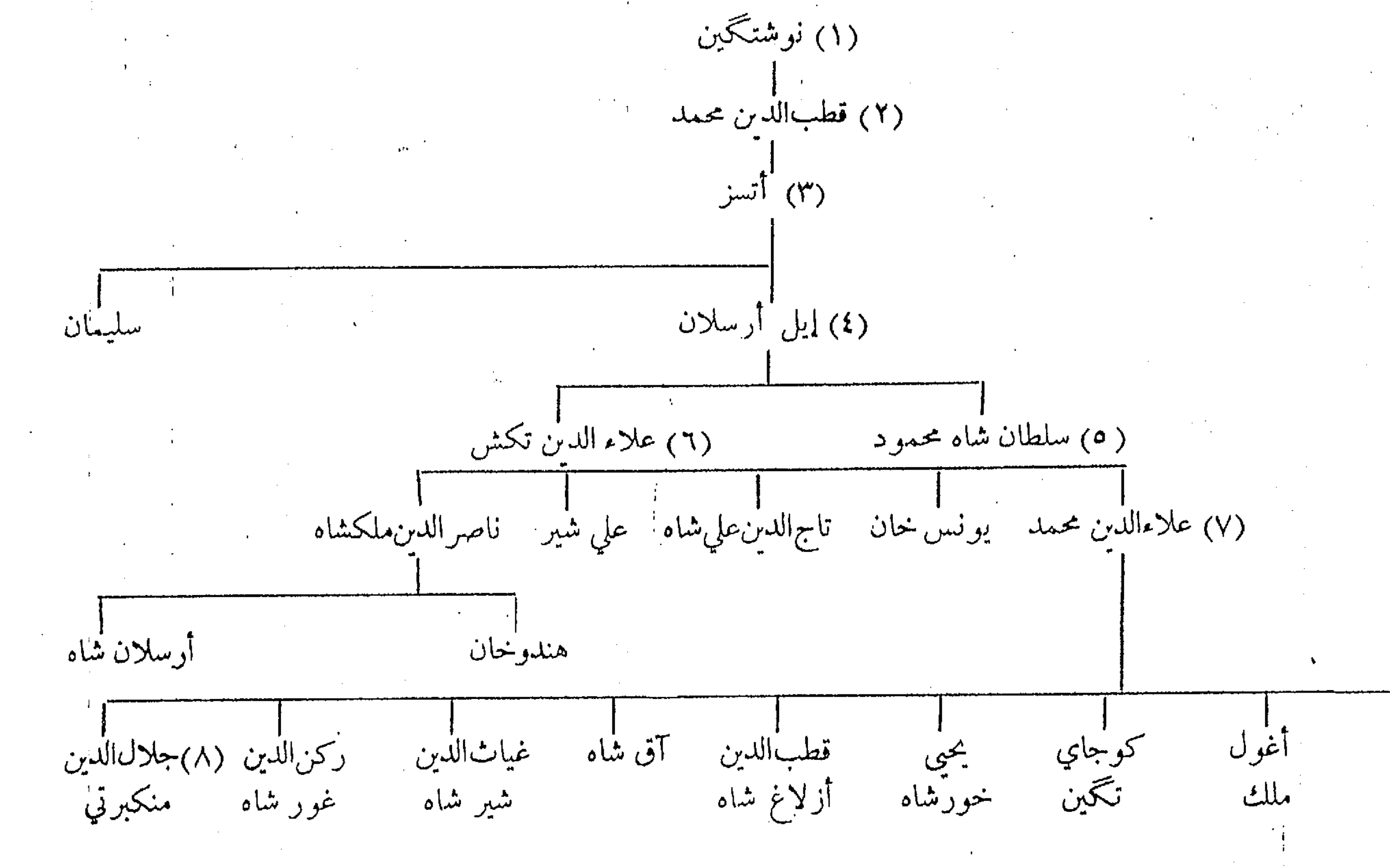
و إذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته ونصره الله على أعدائه. فقد قال الله تعالى:﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾،وتتوفر له من رعيته الدعوات وتظهر في مملكته البركات، ويبارك في جميع ما يقصده من الخيرات وفي الحديث عن رسول الله ﷺ :"من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة".فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

الملحق رقم :٣

الجداول والخرائط

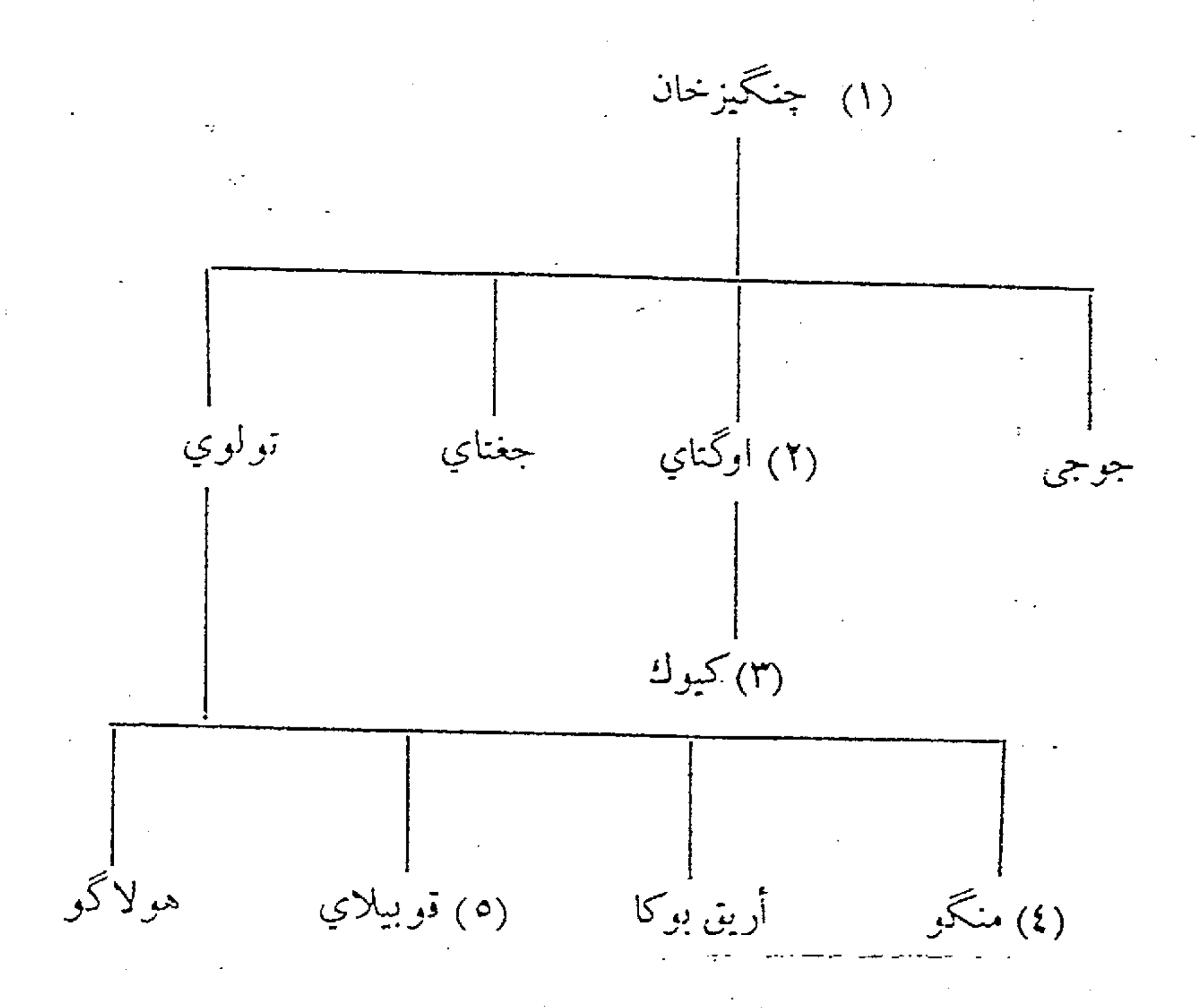
- جدول سلاطين خوارزم .
- == خانات المغول .
- == حكام الدوله الايلخانية .
- خارطة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي
- = = للدولة الخوارزمية في اقصى اتساعها .
- == الايوبيون في مصر و الشام قبيل الغزو المغولي .
- مخطط معركة عين جالوت .

سلاطين خوارزم



(الصياد ، المغول في التاريخ)

خانات المغول



(الصياد ، المغول)

تولوي بن جنكيزخان

توفي قبل أن يتولى ما خصصه له أبوه

- مانكو — الخان الأعظم — ٦٤٧-٦٥٥
- قبلاي — الخان الأعظم — ٦٥٥-٦٩٣
- [١] هولاكو — توفي ٦٦٣
  - [٢] أباقا ٦٦٣-٦٨٠
    - [٤] أرغون ٦٨٣-٦٩١
      - [٧] غازان ٦٩٥-٧٠٣
      - [٨] اولجايتو محمد خرابنده ٦٩٥-٧١٦
        - [٩] ابو سعيد ٧١٦-٧٣٦
    - [٥] كيخاتو ٦٩١-٦٩٣
  - [٣] أحمد تكودار ٦٨٠-٦٨٢
  - طرخاي
    - [٦] بيدو ٦٩٣-٦٩٥
- أرتق‌بوكا

(محمود شاكر، التاريخ الاسلامي)

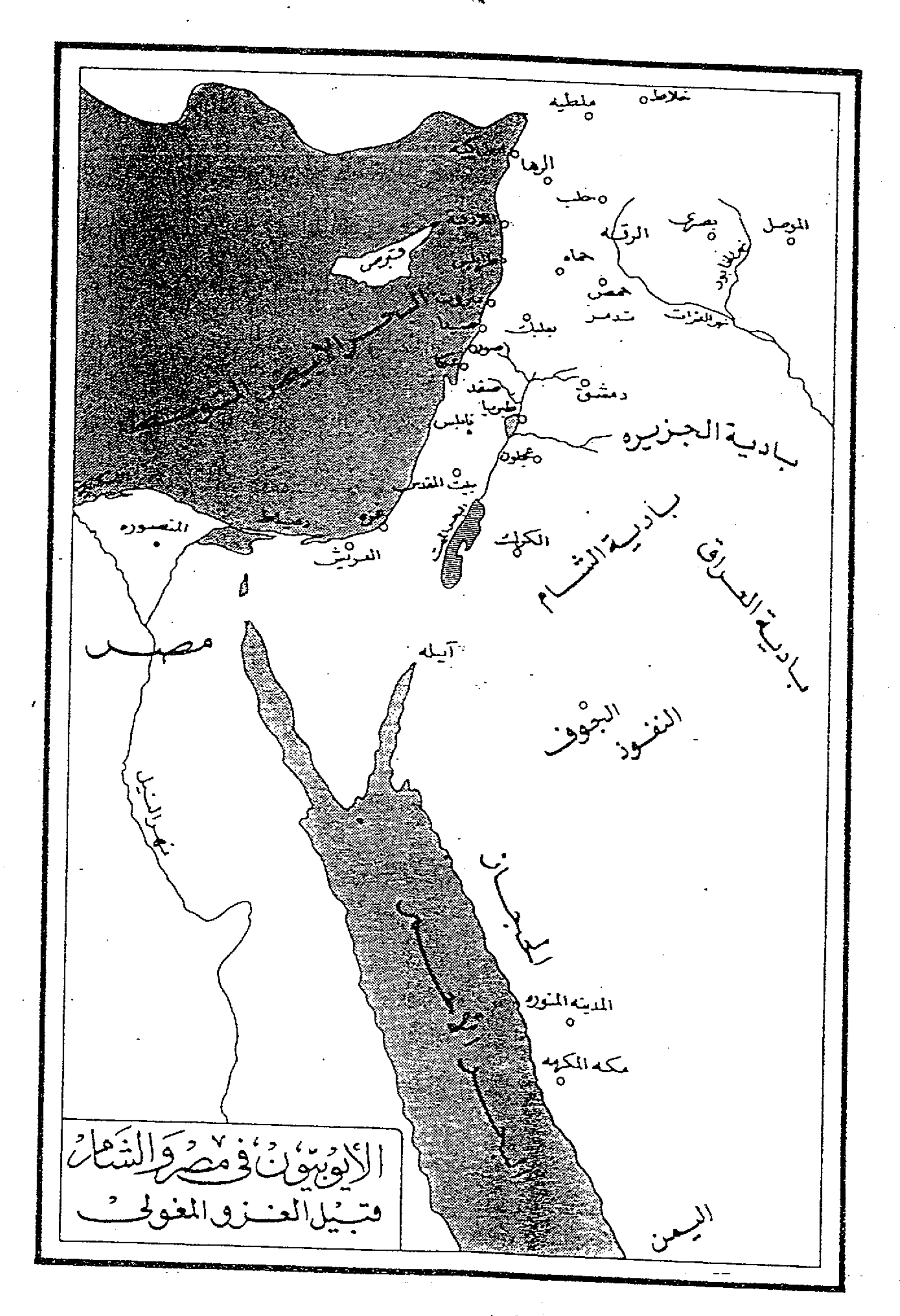


(الخالدي، العالم الاسلامي)

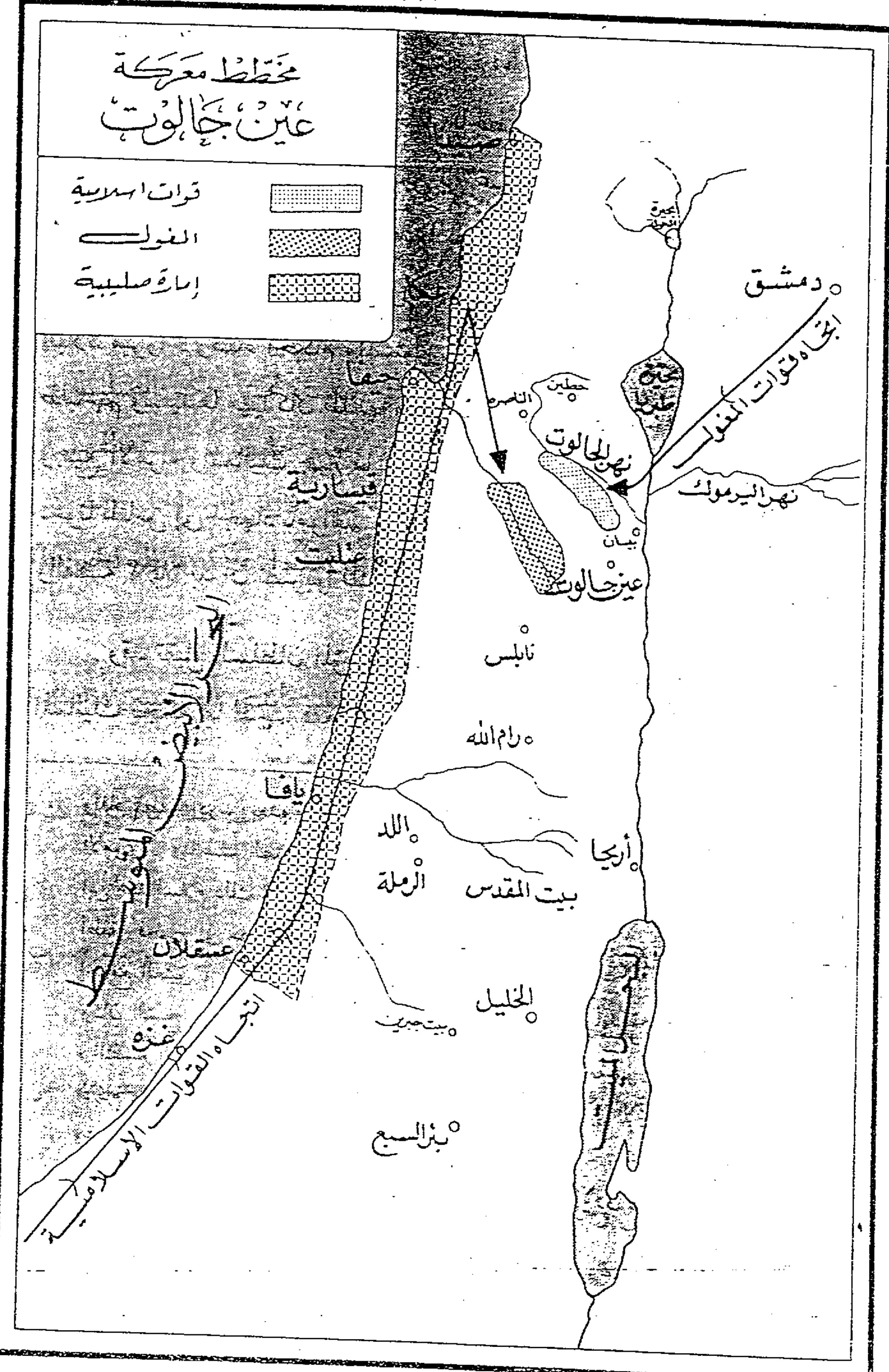
الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

سلاجقة الروم
جورجيا
كنجة
أران
شروان
أرمينية
الجزيرة
سوريا
الموصل
أذربيجان
أربل
همذان
نهاوند
قزوين
قم
الإسماعيلية
ألموت
آمل
بحر قزوين
بغداد
العراق
العراق العجمي
أصفهان
مازندران
خوزستان
البصرة
شيراز
فارس
يزد
كرمان
هرمز
الخليج الفارسي
بلاد العرب
خوارزم
إقليم خوارزم
شهرستان
نسا
مرو
نيسابور
زوزن
خراسان
هراة
الدولة الخوارزمية
الغور
قوهستان
سجستان
بلوخستان
مكران
بحر آرال
جند
أترار
نهر سيحون
أوزكند
بلاد ما وراء النهر
نهر جيحون
أموية
بخارى
سمرقند
كيش
بلخ
ترمذ
فرغانة
خجند
بناكت
بلاساغون
الطالقان
باميان
بروان
غزنة
كابل
بشاور
لاهور
مولتان
نهر السند
دهلي
نهر الكنج
بلاد الهند
كاشغر
ياركند
ختن
التبت
نهر تاريم
بحيرة بلكاش
إميل
نهر إميل
نهر إرتش

(الصياد، المغول)

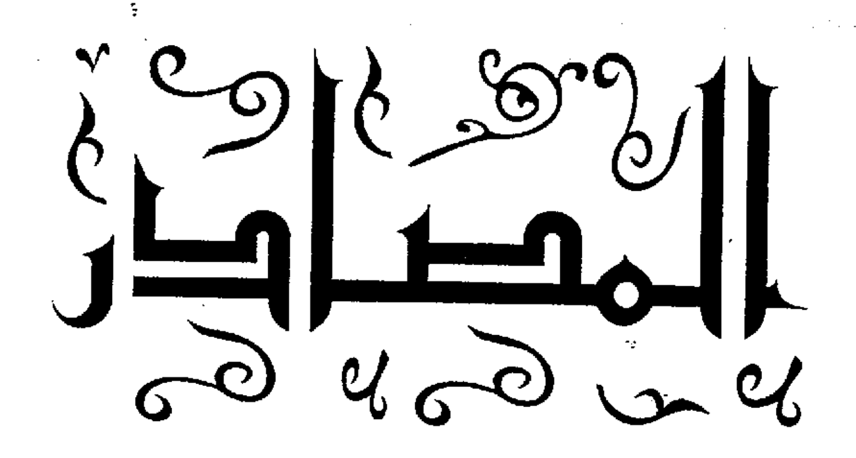


(الخالدي، العالم الاسلامي)



(الخالدى، العالم الاسلامى)





والمراجع

المصـــادر المخطوطة و المطبـوعة

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م):

– عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، ط بيروت، ١٩٦٥م.

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الملقب بعز الدين، ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

– الكامل في التاريخ، ط بيروت، دار صادر.

ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك، تـ٧٣٢هـ/١٣٣٢م):

–كنز الدرر وجامع الغرر.

– الجزء السابع وعنوانه: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، ط القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

–الجزء الثامن: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: ألرخ هارون، القاهرة١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

–الجزء التاسع: الدر الفاخر في سيرة السلطان الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، ط القاهرة١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تـ٩٣٠هـ/١٥٤٤م):

– بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو الحسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، تـ٨٧٤/ ١٤٦٩م):

– الدلي الشافي على المنهل الصافي ، تحقيق فهيم شلتوت، ط القاهرة .

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٧):

- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وأهل الإلحاد من القائلين بالحلول والإتحاد، تحقيق: موسى الدويش، ط العلوم والحكم ١٤٠٨هـ.
- مجموع الفتاوى، ط الثالثة ١٤٠٤هـ.
- الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم ط القاهرة، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.
- مجموعة الرسائل والمسائل، ط دار الباز.

ابن الجوزي(جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الإمام الحافظ ت ٥٩٧هـ):

- تلبيس إبليس، ط دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ.

ابن حجر العسقلاني(شهاب الدين أحمد ت٨٥٢هـ).

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط بيروت.
- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد مراجعة إبراهيم الأبياري، ط القاهرة.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، بيروت.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت٦٨١هـ/ ١٢٨٤م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ابن دُقماق(إبراهيم بن محمد العلائي ت ٨٠٩هـ):

- الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور مراجعة أحمد السيد دراج ط مكة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

ابن رجب(أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي، ت ٧٩٥هـ):

- الذيل على طبقات الحنابلة، ط بيروت.

ابن الساعي (أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازان، تـ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م-١٢٧٦م):

- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير. الجزء التاسع، تحقيق: مصطفى جواد، ط بغداد ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، تـ ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):

- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، ط بيروت بدون تاريخ الطبع.
- عيون التواريخ، تحقيق: نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، ط ١٩٨٤م.

ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله بن علي بن إبراهيم الحلبي، تـ ٦٨٤هـ/١٢٨٥م):

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة،ط دمشق ١٩٧٨م.

ابن طباطبا (محمد بن علي).

- الفخري في الآداب السلطانية والدول السلطانية، طبيروت١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

ابن طولون(محمد بن طولون الصالحي تـ ٩٥٢):

- الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط دمشق ١٩٥٦م.
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٤٠١هـ.

ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين السعدي، ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م):

- الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط الرياض ١٣٩٦هـ /١٩٧٦م.
- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط القاهرة ١٩٦١م.

ابن عبد الهادي(محمد بن أحمد بن عبد الهادي تـ ٧٤٤هـ):

- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط بيروت.

ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري، تـ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م):

- تاريخ مختصر الدول، ط بيروت ١٨٩٠م.
- تاريخ الزمان، ترجمة إسحاق أرملة، ط بيروت ١٩٨٦م، دار المشرق.

ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، تـ ٦٦٠هـ/١٢٦٢م):

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، ط المكتبة الفيصلية بدون تاريخ الطبع.
- بغية الطلب من تاريخ حلب، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، ط دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

ابن العماد الحنبلي (الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، تـ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ط بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن العميد (المكين جرجيس بن العميد، تـ ٦٧٢هـ/١٢٧٤م):

- أخبار الأيوبيين، بدون تاريخ ومكان طبع.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي، تـ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):

- تاريخ ابن الفرات،ج٥/ تحقيق: حسن محمد الشماع، ط البصرة ١٩٦٧م.و ج٧و٨ تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عزالدين ط بيروت١٩٣٩م.

ابن فرحون(إبراهيم بن علي بن محمد المالكي تـ ٧٩٩هـ):

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ط القاهرة.

ابن فهد(عبد العزيز عمر القرشي تـ٩٢٢هـ):

- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، ط مكة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني، تـ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م):

- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، الجزء الرابع، (أربعة أقسام)، تحقيق: مصطفى جواد، ط بغداد ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بيروت ١٤٠٧هـ.

ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد، تـ١٠٢٥هـ):

- درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الدمشقي تـ ٨٥١هـ):

- طبقات الشافعية، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه الحافظ عبد العليم خان، ط حيدر آباد الدكن ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

ابن قطلوبغا (زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني تـ ٨٧٩هـ):

- تاج التراجم، تحقيق محمد خير رمضان، دمشق ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ابن قنفذ القسنطيني (أبي العباس أحمد بن حسن، ت٨٠٩هـ):

- الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط بيروت ١٩٧١م.

ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر تـ ٧٥١هـ):

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ط دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى.

ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تـ ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):

- البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط الأولى دار الريان، القاهرة ١٤٠٨هـ.
- تفسير القرآن العظيم ط دار الأندلس، بيروت.
- طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم، محمد زينهم، ط القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ابن مفلح (برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله تـ ٨٨٤هـ):

- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط الرياض ١٤١٠هـ/١٩٩٠.

ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف، عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري):

- التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان). تحقيق: أبو العيد دودو، ط دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تـ٦٩٧هـ/١٢٩٨م):

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق جمال الدين الشيال، والجزء الرابع والخامس، تحقيق: حسنين محمد ربيع، ط المكتبة الفيصلية بدون تاريخ الطبع.

ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس، تـ ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):

- تاريخ ابن الوردي (جزءان)، ط النجف ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، تـ ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م):

- المختصر في أخبار البشر. ط بيروت، بدون تاريخ الطبع.

- تقويم البلدان، باريس، ١٩٤٠م.

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، تـ٦٦٥هـ/١٢٦٧م):

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين. نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني. ط بيروت ١٩٧٤م.

الأدفوي(كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي تـ ٧٤٨هـ):

- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن مراجعة طه الحاجري. ط القاهرة ١٩٦٦م.

الأربلي(عبد الرحمن سنبط قنيتو تـ ٧١٧هـ):

- خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعه وتصحيحه مكي السيد جاسم مكتبة المثنى بغداد.

الأصفهاني (عماد الدين محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب، تـ٥٩٧هـ /١٢٠١م).

- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨.
- تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، ط بيروت ط٢ ١٩٧٨م.

البخاري (محمد بن إسماعيل تـ٢٥٦هـ):

- صحيح الجامع، ط استنبول تركيا ١٩٨١.

البزار (عمر بن علي) :

- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش ط بيروت ١٣٩٦هـ.

البغدادي(عبد القاهر بن طاهر بن محمد تـ ٤٢٩هـ):

- الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط القاهرة بدون تاريخ.

البدليسي (شرف خان البدليسي، المتوفى في القرن الحادي عشر الهجري):

- شرفنامة، ترجمة عن الفارسية: محمد علي عوني، ط القاهرة بدون تاريخ الطبع.

بيبرس المنصوري(تـ٧٢٥هـ):

- التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر عبد الحميد صالح حمدان/ ط القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الجويني (عطا ملك الجويني، تـ٦٨١هـ):

- تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، تحقيق: محمد التونجي، ط دار الملاح للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، تـ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

- معجم الأدباء، دار الفكر بيروت ط ٣ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- معجم البلدان، ط بيروت ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

الحميري(محمد بن عبد المنعم تـ٧٢٧هـ):

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط بيروت ١٩٧٥م.

الحنبلي (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي، تـ٩٢٨هـ/١٥٢٢م):

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط بيروت ١٩٧٣م.

الديار بكري (حسين بن محمد بم حسين، تـ٩٦٦هـ/١٥٥٩م):

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ط مصر ١٢٨٣م.

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز، تـ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):

- دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، ط القاهرة ١٣٩٤م.
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، بيروت ط١ ١٤٠٥هـ
- المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق: خضير عباس المنشداوي، ط بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط وآخرون، ط بيروت. ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تتضمن حوادث من سنة ٦١٠-٦٤٠هـ، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط وصالح مهدي عباس، ط بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط الطائف ١٤٠٨هـ.

- معجم الشيوخ، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط الطائف ١٤٠٨هـ.
- تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي.
- الأمصار ذوات الآثار، تحقيق: قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية.
- الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق: رياض عبد الحميد وعبد الجبار زكار، طبيروت ١٤١٢/١٩٩١م.

رشيد الدين الهمذاني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني، تـ٧١٨هـ/١٣١٨م):

- جامع التواريخ أو تاريخ المغول ، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولاكو. ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد ومحمد موسى الهنداوي، ط القاهرة ١٩٦٠م.
- تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قا آن إلى تيمور قا آن. ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، ط بيروت ١٩٨٣م.

الزبيدي(محمد مرتضي الزبيدي، تـ ١٢٠٥هـ):

- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط بيروت ١٩٨٢م.

سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزا وغلي التركي الشهير بسبط ابن الجوزي، تـ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

- مرآة الزمان، (الجزء الثامن قسمان)، ط حيدر آباد. ١٣٧٠-١٣٧١هـ/١٩٥٠-١٩٥١م.

السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، تـ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م):

- طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق: محمود طناحي وعبد الفتاح الحلو، ط القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

السفاريني(محمد بن أحمد الحنبلي تـ ١١٨٨هـ):

- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية بشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ط دمشق ١٤٠٢هـ.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر محمد تـ٩١١هـ):

- تاريخ الخلفاء، ط بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، تحقيق أحمد شفيق دمج، ط بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

شافع بن عباس بن علي الكناني المصري تـ ٧٣٠هـ:

- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ط الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم تـ ٥٤٨هـ):

- الملل والنحل،تحقيق محمد سيد كيلاني، ط بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني تـ ١٢٥٠هـ):

- فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية من علم التفسير، ط دار الفكر.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط القاهرة الأولى ١٣٤٨هـ.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، تـ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

- الوافي بالوفيات، ط فرانز شتايز بقسيبادن (ألمانيا)، جمعية المستشرقين الألمانية ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

العز بن عبد السلام شيخ الإسلام(تـ ٦٦٠هـ):

- أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق نزيه حماد، ط ١٤٠٦هـ.

العصامي(عبد الملك بن حسين المكي تـ١١١١هـ):

- سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، ط القاهرة ١٣٨٠هـ.

العيني (بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى الشهير بالعيني، تـ ٨٥٥هـ/١٤٥١م).

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه الدكتور محمد أمين، ط القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الغزالي(أبو حامد):

- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سليمان دنيا، ط القاهرة ١٣٨١هـ.

الغياثي(عبد ا لله بن فتح ا لله البغدادي):

- التاريخ الغياثي، تحقيق طارق نافع الحمداني، ط بغداد ١٩٧٥م.

الفاسي(تقي الدين محمد بن أحمد تاحسني الفاسي تـ٨٣٢هـ):

- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥.

القرشي(محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي الوفاء الحنفيتـ٧٧٥هـ):

- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق د. الحلو.

القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي، تـ١٠١٩هـ/١٦١٠م):

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ط بغداد ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م.

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، تـ ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

- آثار البلاد وأخبار العباد. ط بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

القلقشندي(أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد تـ ٨٢١هـ):

- صبحى الأعشى في صناعة الإنشا، ط القاهرة .

- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط عالم الكتب.

الكرمي(مرعي بن يوسف الحنبلي تـ ١٠٣٣هـ):

- الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، ط بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية ، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، ط بيروت١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، ٨٤٥هـ/١٤٤١م):

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط القاهرة ١٩٥٦هـ.

- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي ط١ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الملطي (محمد بن أحمد الشافعي تـ٣٧٧هـ):

- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، قدم له وعلق عليه محمد زاهد الكوثري، وإعداد وتقديم فتحي جابر العقيلي، بيروت ط بدون تاريخ.

الملطي (عبد الباسط بن خليل تـ٩٢٠هـ):

- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق كمال الدين عز الدين، ط القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

المنذري(تقي الدين عبد العظيم بن عبد القوي تـ ٦٥٦هـ):

- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

النجم (عمر بن فهد تـ ٨٨٥هـ):

- اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣.

النسوي (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي، كان حياً سنة٦٣٩هـ).

- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي. تحقيق: حافظ حمدي، ط القاهرة ١٩٥٣هـ.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، تـ٧٣٣هـ/١٣٣٣م):

- نهاية الأرب في فنون الأدب، ط دار الكتب المصرية.

اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م):

- مرآة الجنان وعبره اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

اليافعي(حسن بن إبراهيم بن محمد ، كان حيا سنة ٦٧٩هـ):

- جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية، صورة مركز البحث و إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم١١٤٢.

اليماني(يحي بن أبي بكر بن محمد العامري تـ ٨٩٣هـ):

- غربال الزمان في وفيات الأعيان، صححه وعلق عليه محمد ناجي، دمشق ١٤٠٥هـ.

اليونيني(قطب الدين موسى بن محمد تـ ٧٢٦هـ):

ذيل مرآة الزمان، ط حيدر آباد الدكن، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

المراجع:

أحمد أمين:

- ظهر الإسلام، ط الخامسة بيروت دار الكتاب العربي.

أحمد بدوي:

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط القاهرة.

أحمد كمال الدين حلمي:

- السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط الكويت، الأولى سنة١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

أرمينيوس فامبري:

- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة أحمد محمود الساداتي، راجعه يحي الخشاب، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٧م ط الثانية.

أرنولد (سيرتوماس):

- الدعوة إلى الإسلام. ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، ط القاهرة ١٩٧٠م.

إسماعيل الخالدي:

- العالم الإسلامي والغزو المغولي، ط الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

إسماعيل بن محمد الباباني باش):

- هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول ، مطبعة البهية، ١٩٥٥م.

أكرم حسن العلبي:

- معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، ط ١٤٠٨.

ب. فلاديمير ستوف:

- حياة جنكيزخان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة: سعد حذيفة الغامدي، ط١ ١٤٠٣هـ.

بارتولد فاسيلي فلاديميروفتش:

- تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ط الأولى.

براون إدوارد جرانفيل:

- تاريخ الأدب في إيران،ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

جعفر خصباك:

- العراق في عهد المغول الإيلخانيين، مطبعة العاني ببغداد، ط١ ١٩٦٨م.

حافظ حمدي:

- الدولة الخوارزمية والمغول، ط القاهرة ١٩٤٩م.

حسن شميساني:

- مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة٩٢١/ ١٥١٥م، ط بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

خير الدين الزركلي :

- الأعلام، الطبعة الثالثة بيروت، ١٩٧٩م.

د.م. دنلوب:

- تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دمشق، ط ٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م،

رجب محمد عبد الحليم:

- انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية.

رشيد الجميلي:

- دراسات في تاريخ الدولة العباسية،ط الرباط ١٩٨٤م.

زامبارو:

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. ترجمة زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، ط مصر ١٩٥١م.

سالم علي الثقفي:

- مصطلحات الفقه الحنبلي، ط الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ستانلي لين بول:

- الدول الإسلامية، ترجمة محمد صبحي فرزات، ط دمشق ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

سعد محمد حذيفة الغامدي:

- أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي. ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- سقوط الدولة العباسية، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- بطولة وفداء في ميافارقين (بحث منشور في مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثانية عشرة، شوال ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

سعيد عبد الفتاح عاشور :

- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام.
- الحركة الصليبية، ط القاهرة ١٩٨٧م.

سوسن محمد نصر:

- بنو أيوب مع الخوارزمية و المغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة، بحث منشور في المجلة التاريخية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد : ٣٠- ٣١ عام ١٩٨٣-١٩٨٤

السيد الباز العريني:

- المغول. ط بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

سيد قطب:

- في ظلال القرآن، ط بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

سيديو:

- خلاصة تاريخ العرب، ترجمة محمد أفندي، عبد الرحمن الشرقاوي، ط بيروت ط٢١٤٠٠هـ.

شبولر:

- العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ خالد أسعد، راجعه وقدم له سهيل زكار، دمشق ١٩٨٢.

شوقي ضيف:

- عصر الدول والإمارات،ط القاهرة.

عباس إقبال الآشتياني:

- تـاريخ إيـران بعـد الإسـلام، ترجمـة محمـد عـلاء الديـن منصـور،ط القـاهرة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

عباس العزاوي:

- تاريخ العراق بين احتلالين، ط بغداد ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

عبد السلام عبد العزيز فهمي:

- تاريخ الدولة المغولية في إيران، ط القاهرة ١٩٨١م.

عبد الله سعيد الغامدي:

- جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري. ط مكة المكرمة ١٤١٠هـ.

عبد الله مصطفى المراغي:

- الفتح المبين في طبقات الأصوليين، ط بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م.

عبد المجيد بدوي:

- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي مـن القـرن الخـامس الهجري حتى سقوط بغداد، جدة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

عبد المنعم حسنين:

- سلاجقة العراق وإيران، ط القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٠هـ/١٩٧٠م.

علي عودة الغامدي :

- بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. ط مكة المكرمة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

عفاف صبرة:

- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية. ط القاهرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

عصام الفقي:

- بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، ط القاهرة بدون تاريخ.

عمر رضا كحالة:

– معجم المؤلفين ، ط بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

فايد حماد عاشور:

– العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية ، ط القاهرة.

فؤاد عبد المعطي الصياد:

–المغول في التاريخ. جـ١ ط بيروت ١٩٨٠م.

– الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ط قطر ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

ف. ويستنفلد:

–جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة: عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، ط القاهرة ١٩٨٠م.

الفقير م.م. الرمزي :

– تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، أورنبرغ، المطبعة الكريمية والحسينية ١٩٠٨م.

لسترنج (كي لسترنج).

–بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة: فرنسيس وكركيس عواد، ط بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

محمد بن محمد مخلوف:

– شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ.

محمد عبدالحي اللكنوي الهندي :

– الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، عني بتصحيحه وتعليق بعض الزوائد عليه السيد محمد بدر الدين ، بيروت ، بدون تاريخ.

محمد بن مسفر بن حسين الزهراني :

– نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ/١٩٩٢م.

محمد راغب الطباخ الحلبي:

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تنقيح: محمد كمال، حلب، ط الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محمد رضا الشبيبي :

- مؤرخ العراق ابن الفوطي ، بغداد ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.

محمد العبدة / طارق عبدالحليم:

- الصوفية نشأتها وتطورها ، برمنجهام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ط الثالثة .

محمد عمارة :

- معارك العرب ضد الغزاة ، ط دمشق ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

محمد ماهر حمادة :

- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ، ظ بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره ، ط بيروت ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

ناجي معروف :

- تاريخ علماء المستنصرية ، ط القاهرة ، دار الشعب .

نافع توفيق العبود:

الدولة الخوارزمية، نشأتها، علاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمها العسكرية والإدارية . ط بغداد ١٩٧٨م.

الندوي (أبوالحسن):

- رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، تعريب سعيد الأعظمي الندوي، الكويت ١٤٠٧هـ

نعمان الطيب سليمان:

- جهود المماليك في تصفية الوجود المغولي بالشام ، ط القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

الرسائل العلمية:

شاكر محمود عبد المنعم، تحقيق: العسجد المسبوك والجوهر المملوك في طبقات الخلفاء والملوك، تأليف: الملك الأشرف الغساني، ت٨٠٣هـ.

رسالة دكتوراة من جامعة بغداد.

مريم محمد عوض بن لادن، دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول الإيلخانيين من٦٦١هـ إلى ٦٢٨هـ.

رسالة ماجستير من جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فهرس الآيــات

واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.	١٧-٧٧
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون.	٤٨
ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار.	٣٨
ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.	٩٢.
ولا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم.	٥٨
ولتكن منكم أمــة يدعـون إلـى الخـير ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكـر وأولئك هم المفلحون	١٤٤
ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم	٣٨
وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا	١٤٤
وما النصر إلا بإذن الله.	١٣٩-٢٠٠
يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.	٣
يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهـم الأدبـار و مـن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضـب مـن الله و مأواه جهنم و بئس المصير.	٤٦
يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال.	١٣٢

فهرس الأحاديث

فهرس الموضوعات